الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة قسنطينة 2

كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية

قسم التاريخ والآثار

رقم التسجيل:...............

الرقم التسلسلي:...........

عنوان البحث

الصراعات الداخلية وأثرها على المجتمع الريفي في بايلك الشرق الجزائري أواخر العهد العثماني

(1771_ 1837م/1185_ 1253هـ)

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث.

تخصص: الريف والبادية

إعداد الطالبة:

جهيـــدة بوعزيز

إشراف الدكتورة:

جميلـــة معاشـــي

أعضاء اللجنة

الاسم واللقب	الرتبة	الصفة	الجامعة الأصلية
أ.د فاطمة الزهراء قشي	أستاذة التعليم العالي	رئيسا	جامعة قسنطينة 2
د. جميلة معاشي	أستاذة محاضرة	مشرفا ومقررا	جامعة قسنطينة 2
د. كريمة الأخلاق بن حسين	أستاذة محاضرة	عضوا مناقشا	جامعة قسنطينة 2
أ.د فلة القشاعي	أستاذة التعليم العالي	عضوا مناقشا	جامعة الجزائر 2

السنة الجامعية 2011-2012م

وجب عليّ في البداية أن أشكر الله عز وجل كما يُحب أن يُشكر فـ "اللهم لك الحمد والشكر كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك"، وأعترف بالدين كل الدين لهؤلاء الذين بصموا جل مراحل وخطوات هذا العمل وأخص بالذكر منهم:

_ أستاذتي الكريمة: الدكتورة "جميلة معاشي"، مهندسة هذا العمل التاريخي وسراجي في دروبه الوعرة، علمتني أبجديات البحث والتنقيب في التاريخ العثماني ورعتني بسداد رأيها وبُعد بصيرتها، فجزاها الله عني ألف خير.

_ أستاذي وخالي الفاضل: الدكتور "محمد يعيش" محفزي وقدوتي في حب دراسة التاريخ والغوص فيه.

_ أساتذة كِرام شرفوني بأخوتهم وأفادوني بعلمهم ومساعداتهم ووضعوا مكتباتهم رهن إشارتي: الأستاذ نورالدين مقدر، عمار قاصري، الطيب مباركي، مصطفى عبيد، هشام بهلول، نبيل فرج، ناصر بوشليق، عبد الرحيم رداوي، فلهم مني جزيل الشكر.

_ أساتذة أفاضل جلست معهم مجلس الدرس والتحصيل في كليات التاريخ بالمسيلة والقاهرة وقسنطينة، لم يتوانوا على مساعدتي في كل ما أطلبه فجزاهم الله عني خير الجزاء: د. فاطمة الزهراء قشي، د. صالح لميش، د. لخضر بولطيف، د. الطاهر بونابي، د. بوبكر حميدي، د. سيد علي أحمد مسعود، د. محمد دراج، د. عبد الكامل جويبة، د. عاصم الدسوقي، د. سيد فليفل.

_ أساتذة كرام فاتني الجلوس معهم مجلس الدرس والتحصيل، فعوضت ما فاتني بلقائهم ومناقشتهم في العمل أو الأنس بمؤلفاتهم: الموسوعة بحق كابة عبد الرحمن، د. كريمة بن حسين، د. فلة موساوي القشاعي، د. عائشة غطاس رحمها الله، د.خليفة حماش، د. أرزقي شويتام، د. الغالي الغربي.

_ صديقات وأُخيات رافقوني مشقة هذا العمل أخص منهم: رفيقة دربي وركيزتي في هذه الحياة هبة فلاك، والرائعة نصيرة مباني، وحبيبتي سلسبيل وليلى، والأصيلة صليحة "مستغانم"، والعزيزتين سكينة عميور ووسيلة علوش، والمميزة صاحبة فكرة هذا البحث سمية مزدور، والغالية حياة بودويرة، كما لا أنسى أخواتي وحبيباتي في غربتي بالقاهرة: أسماء، مخطارية، إيمان، سعيدة، وشهرة، وكل من جمعتني بهم لحظات جميلة: بسمة، أمينة، فاطمة، منال، سمرة، هالة، أسماء، زينب، وأستاذة الأنجليزية المتميزة ايمان، والملاك الصغير الذي وضع آخر لمسات هذه الدراسة، صغيرتي:نعيمة مباني.

_ عمال وعاملات مراكز الأرشيف في كل من الجزائر وقسنطينة وأخص بالذكر الأخت حكيمة والأخ محمد وأحمد ومديرة الأرشيف الذين لم يبخلوا عليّ بمساعدتهم وكلمتهم الطيبة جزاهم الله خيرا...

إلى كل هؤلاء ولغيرهم من الذين لازلت أحتفظ لهم بكل جميل أتقدم بعظيم شكري وامتناني.

جهيدة بوعزيز

مقرة/ 21 ماي 2011.

ABREVIATIONS:

- A.M.G: Archives du Ministère de la Guerre.
- Ed: Edition.
- Imp: Imprimerie.
- R.A: Revue Africaine
- R.O.M.M: Revue de l'occident Musulman et de la Méditerranée.
- R.S.A.C: Recueil des Notes et Mémoires de la société archéologique de Constantine.
- T.S.E. F. A: Tableau de la Situation des Etablissemens Français dans l'Algérie
- T: Tome.
- Trad: Traduction.

الجزء: ج.

د.ت: دون تاريخ.

الطبعة: ط.

العدد: ع.

شهد بايلك الشرق الجزائري، على غرار الأقاليم الجغرافية الأخرى، التي تدخل ضمن نطاق الدولة العثمانية، سلسلة من الصراعات الداخلية، كان لها الأثر البليغ على سكان البايلك بصفة عامة وسكان الريف على وجه الخصوص باعتبارهم قد شكلوا قاعدة الهرم الاجتماعي آنذاك. وقد عبّر الصراع عن نفسه في الواقع بالأحداث العسكرية من قتل ونهب وخراب، وبالأحداث السياسية من إستراتيجيات وتحالفات واتفاقيات. غير أن وراء هذه الأحداث الظاهرة، كشف الصراع في مساره وتطوره ونتائجه عن حقائق اجتماعية عميقة، وإنه لمن المفارقة الغريبة أن تكون الدراسات التي تناولت معرفة الصراع من جانب حقائقه الاجتماعية أقل بكثير، إن صحت المقارنة، بتلك التي تناولته من وجهة النظر السياسية والعسكرية، والتي وجدت اهتماما من طرف بعض الباحثين كالغالي الغربي[1] وأرزقي شويتام[2] الذين ركزوا في كتاباتهم على الجوانب السياسية والعسكرية للصراع بأبعادها الداخلية والخارجية.

غير أن هذه الكتابات، وإن استطاعت أن تُبين مدى حضور ظاهرة الصراع في المجتمعات الجزائرية، إلا أنها لم تُسهم بالكثير في الكشف عن الأبعاد الاجتماعية للصراع، إضافة إلى كونها ذات نظرة شمولية تخص الإيالة الجزائرية بحواضرها وأريافها كاملة. ومن ثم تأتي الحاجة إلى حقل علمي جديد يختص بدراسة مكان الصراع والاستعداد له في ذهنية أفراد المجتمعات الريفية، وأثر الصراع على حياة أفرادها اليومية، سواءً كانوا سكانا مستقرين أم رحّلا، رجالاً، نساءً، أم أطفالاً.

والواقع أن ما لفت انتباهنا للموضوع هو كونه يُعد مجالا خصبا للبحث، على الرغم من صعوبته وشح مصادره، كما أننا نعتقد أن الجانب الاجتماعي في علاقة الصراع بالمجتمع الريفي يمثل إحدى أبرز نقاط الجذب في قضايا الموضوع؛ إذ يهدف البحث إلى الكشف عن دور الصراع في عملية الحراك الاجتماعي، وأثره في بناء أو تفكك المؤسسات الاجتماعية، وكذا في وضع الأسرة زمن الصراع وبعده. وقد أخذنا المجتمع الريفي القسنطيني كنموذج لما يتميز به من خصوصيات عن باقي مجتمعات البياليك

---

[1] الغالي الغربي: الثورات الشعبية في الجزائر أثناء العهد التركي (1792– 1830)، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث، كلية الآداب، جامعة دمشق، 1975.

[2] أرزقي شويتام: نهاية الحكم العثماني بالجزائر وعوامل انهياره (1800_1830)، دار الغرب الإسلامي للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، الجزائر، 2011.

الأخرى، كالموقع الجغرافي الذي له أهمية كبيرة في خصوصية بنية المجتمع الريفي، والذي يستدعي عوامل فرعية أخرى تعطي لهذا الجزء مميزات تجعله أهم بايلك في الجزائر.

هذا، وقد نجح بعض الباحثين في الاهتمام بجانب من ظاهرة الصراع وفعلها التاريخي في المجتمع الريفي القسنطيني، من خلال محاولاتهم تصنيف المجتمع ضمن إحدى البنيات الاقتصادية والاجتماعية المعروفة، فقادتهم اجتهاداتهم إلى استنتاج نمط معين للإنتاج، يقوم فيه الصراع بدور محوري وأساسي في العلاقة بين الحاكم والمحكوم، ونقصد أساسا ما كتبته الباحثة "فلة القشاعي" في دراستها الموسومة بالريف القسنطيني اقتصاديا واجتماعيا،[1] ومن بعدها "النظام الضريبي في الريف القسنطيني أواخر العهد العثماني"،[2] فكان ما قدمته يُنمِ على وعي دقيق بالظاهرة وعمق أهميتها. ثم ما توصلت إليه الباحثة "جميلة معاشي"[3] في كتابتها عن "الأسر الحاكمة في بايلك الشرق الجزائري" من خلاصات رصينة بعد تشريحها لتلك الأسر التي كانت الممثل الأول لأغلبية المجتمع الريفي القسنطيني، وعلاقتها بسلطة البايلك خلال العهد العثماني، انطلاقا من الموروث الأرشيفي وغيره من النصوص المتنوعة، مما منح لاستنتاجاتها كثيرا من الأصالة والدقة والعمق.

وفي كل الأحوال، نُؤكد بأن المعالجة المتخصصة في مجال الصراع والمجتمع الريفي القسنطيني ليست شائعة بالرغم من أهميتها التاريخية، واقتناعا منا بأن إعادة النظر في إشكالية الصراع، خلال نهاية الفترة العثمانية، من خلال تصور علمي جديد يتجاوز سرد الأحداث العسكرية إلى البحث في حقائقها وبُناها ومُتغيراتها، والتنقيب عن آثارها في البنيات الاجتماعية، كفيل بالكشف عن عناصر جديدة من شأنها أن تُسهم في البحث التاريخي، وتدفع به إلى طرح اشكاليات جديدة لازالت عالقة. وذلك ما زادنا تعلقا

---

[1] فلة موساوي القشاعي: الريف القسنطيني اقتصاديا واجتماعيا أواخر العهد العثماني (1792_ 1837)، مذكرة لنيل دبلوم الدراسات المعمقة في التاريخ الحديث، جامعة الجزائر، 1983.

[2] فلة موساوي القشاعي: النظام الضريبي بالريف القسنطيني أواخر العهد العثماني (1771_1837)، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث، جامعة الجزائر، 1992.

[3] جميلة معاشي: الأسر المحلية الحاكمة في بايلك الشرق الجزائري من القرن (16–19م)، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث، جامعة قسنطينة، 1992.

بموضوع "الصراعات الداخلية وأثرها على المجتمع الريفي في بايلك الشرق الجزائري أواخر العهد العثماني 1771_1837م"، ونقصد به أساسا ذلك الصراع الذي جرت أحداثه داخل[1] الريف القسنطيني، سواءً الصراع الذي كان بين القبائل الريفية، أم بينها وبين سلطة البايلك، وأثره على المجتمع الريفي القسنطيني. وإن كنا قد ركزنا أكثر على الصراع الذي جمع الريف بالسلطة، لكثرة مشاهده وشدة تأثيره وإسفاره عن أهم التحولات التي مست البنيات التحتية للمجتمع الريفي القسنطيني.

هذا ولم يكن اختيار الفترة (1771_1837م) إطارا زمنيا للدراسة بمحض المصادفة، بل كان نتيجةً لما شهده البايلك من تحولات هامة مست بايلك الشرق الجزائري برمته، خاصة بعد تراجع العائدات البحرية ووصول صالح باي إلى سلطة البايلك سنة 1771م، وما صاحب ذلك من تغيير كبير لسياسة البايلك في الريف القسنطيني، خدمة للمدينة على حساب الريف، وذلك بترسيخ السلطة فيه بتوحيد وتنظيم وزيادة الضرائب، وبالتالي تفاقم الصراع، وما أفرزته تلك التحولات من انعكاسات عميقة في مختلف مظاهر حياة المجتمع الريفي. كما بدأت مع الفترة التي أعقبت وفاة صالح باي بوادر التراجع والانحطاط الذي عرفته سلطة البايلك في علاقتها بالمجتمع الريفي، إن لم نقل أنها مثلت المنعطف الأكبر الذي ترك أثره الواضح في تطورات لاحقة شهدها البايلك إلى غاية احتلال قسنطينة سنة 1837م.

وللخوض في الموضوع طرحنا إشكالية أساسية وهي: "ما هي أهم الصراعات الداخلية التي شهدتها الفترة (1771_1830م)؟ وما هو أثرها على المجتمع الريفي لبايلك الشرق الجزائري؟ ثم دققنا هذه الإشكالية بتساؤلات فرعية أبرزها:

كيف كانت وضعية المجتمع الريفي في بايلك الشرق الجزائري قبل تفاقم الصراع خلال فترة صالح باي؟ وما هي العلاقة التي كانت تربطه بسلطة البايلك؟ وهل كانت مبنية على مسؤول ورعيته أم على مصلحة معينة؟ ثم ما هي أسباب ومحركات الصراع الحقيقية؟ وهل هي متداخلة فعلا مع الطبيعة المركبة لها بكل جوانبها السياسية، الاجتماعية، الاقتصادية، وأبعادها الداخلية والخارجية أم أنها مجرد غريزة عدوانية

[1] أدرجنا مصطلح الصراع الداخلي في الريف القسنطيني تفاديا للتدخل في تأثيرات العدوان الخارجي على الريف، مثل تونس، إسبانيا، وفرنسا.

سيطرت على سلوكيات المجتمع الريفي والسلطة؟ وإذا كان لكل دولة مصدر للسلطة التي تمارسها على المجتمع، فمن أين استمد الأتراك سلطتهم على المجتمع الريفي القسنطيني في تلك المرحلة؟ وبعبارة أدق هل كان الصراع رمزا لوجود السلطة وضمانا لاستمرارها؟ وإن كان كذلك فما هي أبرز التحولات التي خلفتها ظاهرة الصراع؟ وما هي أهم الآثار التي مست الاقتصاد والديموغرافيا والصحة والمجتمع؟ ثم هل أخلَّ الصراع بعملية الحراك الاجتماعي، وأثّر في بناء أو تفكك الأسرة الريفية؟ وأخيرا ما هي أبرز الآثار النفسية التي خلفتها الظاهرة داخل المجتمع الريفي؟ وهل من ترسبات في البنى الذهنية للأفراد والجماعات لهذه الظاهرة أم أنها انتهت بانتهاء الصراع؟

وللإجابة عن هذه التساؤلات وغيرها، حاولنا قدر الإمكان النهل من المادة التاريخية بشقيها العربي والأجنبي، والبعد عن السكوت المبالغ فيه للمصادر المحلية والتأويل المفرط للكتاب الأجانب في كتاباتهم عن المجتمع الريفي موضوع الدراسة. ويأتي في مقدمة المصادر المعتمدة في هذه الدراسة، الموروث الأرشيفي الذي حرصنا، رغم قلته، أن يكون المورد الأول لمضامين البحث، والملاذ الذي استندنا إليه في تحليلنا لقضاياه. وعلى رأسه تلك الرسائل التي يضمها أرشيف كل من ولايتي قسنطينة والجزائر، والتي احتوت على مادة تاريخية هامة استطعنا توظيفها في الصراعات التي جمعت القبائل والسلطة، كرسائل صالح باي، والحاج أحمد باي إلى الداي بالجزائر، التي تعبر عن إخضاع العديد من القبائل الريفية لسبب أو لآخر. فضلا عن الرسائل التي كان يرفعها ممثلو المقاطعات الحدودية والتي تكشف عن ذلك التطاحن الذي كان بين القبائل الحدودية الجزائرية والتونسية على حد سواء.

ولا تقل مصادر الفترة أهميةً عن الوثائق الأرشيفية؛ إذ مثلت لنا الركيزة التي ارتكزنا عليها للخوض في أغوار هذه الدراسة، نذكر منها كتابات العنتري[1] وأحمد

[1] صالح العنتري: فريدة مؤنسة في حال دخول الترك بلد قسنطينة واستيلائهم على أوطانها أو تاريخ قسنطينة، مراجعة وتقديم وتعليق: يحي بوعزيز، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2005.

_ صالح العنتري: سنين القحط والمسغبة ببلدة قسنطينة، منشورات تحت عنوان: مجاعات قسنطينة، تحقيق: رابح بونار، قسنطينة، 1974.

الشريف الزهار،[1] وابن العطار،[2] وحمدان بن عثمان خوجة،[3] الذين حفظوا لنا معلومات في غاية الأهمية خاصة في تحديد نمط معيشة المجتمع الريفي القسنطيني، وأسباب صراع القبائل فيما بينها وبين سلطة البايلك، ودور هذه الأخيرة في تحريك الصراع وزعزعة المجتمع الريفي. كما قدموا لنا معلومات دقيقة على انعكاسات الصراع في الاقتصاد، والمجتمع، وحتى العمران في الريف. وساعدتنا هذه الكتابات في دراسة أنواع السلوكيات الاجتماعية من مصاهرات وتحالفات، ودور الصراع في توجيهها وصقلها.

ولم تخلُ هذه الدراسة من كتب النوازل، كالتي كتبها "محمد بن الفكون"،[4] كونها الأقرب لفترة الدراسة، حيث قدمت لنا صورة واضحة عن المجتمع الريفي، والمشاكل التي اعترضت السير العادي لحياته اليومية، ومعلومات دقيقة على وضع الأسرة الريفية جراء تفشي الصراع واستمراريته. كما كشفت لنا عن أنواع العقود التي تداولت بين الأفراد نتيجة التطورات التي أحدثها الصراع، ولا شك أن أهمية هذه النوازل، إذا تجاوزنا مشكل التحديد الزمني لوقوعها بالضبط، إذ تعود إلى فترات مختلفة من العهد العثماني، تكون أصدق مادة عبرت عن مآسي المجتمع الريفي جراء ظاهرة الصراع.

ومن خلال مقارنة المصادر المتوفرة بكتب السياسة والمجتمع، وفي طليعتها مقدمة ابن خلدون[5] التي كانت بمثابة المدرسة المُنظرة لعلاقة السلطة بالمجتمع، أمكننا التوقف عند أهمية ظاهرة الصراع في بنية سلطة البايلك واستمرارها، وأدوارها المادية والرمزية، وموقعها ضمن مجمل اهتمامات السلطة المركزية. وعلى صعيد آخر انصب اهتمامنا على كتب الرحلة والجغرافيا بشقيها العربي والأجنبي، وإن كانت متقدمةً زمنيا على فترة الدراسة، ذلك أن انتقالنا بين مصادر الفترة المدروسة والتي قبلها، أمكننا من رصد أهم التطورات والتحولات التي لحقت بالبايلك وساكنيه، وموقع الصراع ضمن مجمل العوامل

---

[2] أحمد الشريف الزهار: مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار نقيب اشراف الجزائر، تقديم و تعليق: احمد توفيق المدني، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، 1979.

[3] أحمد ابن المبارك ابن العطار: تاريخ قسنطينة، تحقيق: رابح بونار، الجزائر، 1971.

[4] حمدان بن عثمان خوجة: المرآة، تقديم و تعريب وتحقيق: محمد العربي الزبيري، ط.2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982.

[4] محمد بن عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم الفقون: كتاب النوازل، نسخ محمد بن عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم الفقون، ملك للأسر وقد زودتني الأستاذة المشرفة بصورة عنه جزاها الله خيرا.

[5] عبد الرحمن ابن خلدون: المقدمة، تحقيق: على عبد الواحد وافي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 1972.

التي ساهمت في أحداثها، مثل كتب الرحالة المغربي "أبي بكر العياشي"[1] والفرنسي "*Peyssonnel*"،[2] التي مكنتنا من التقاط إشارات قيّمة لتحديد الملامح الطبيعية والبشرية والعمرانية للريف، ودور الصراع في فهم هذه الملامح، وإحداث التغيرات فيها.

هذا، وقد حتمت علينا طبيعة الموضوع الاعتماد على عدد من الكتابات الأجنبية، والتي مكنتنا من وضع تصور واضح لطبيعة ظاهرة الصراع التي شهدتها هذه الحقبة التاريخية، ومستوياتها، وموقعها من الزمان والمكان، ودائرة وقوعها، ودوريتها وتواترها، والنتائج العامة التي خلفتها في الريف القسنطيني. ويأتي في طليعة هذه الكتابات المقالات المنشورة في المجلة الافريقية "*La Revue Africaine*" التي وفرت لنا مادة هامة في هذا الصدد بحكم تعمد مؤلفيها إبراز عيوب العثمانيين في الجزائر.

وبالرغم من ذلك فإننا لا نعدم قيمتها في تتبع الحملات العسكرية وتحديد مداها، وفهم وظائف الصراع ذاته خاصة وظيفته التدميرية والاستنزاف المزدوج للبشر والثروات ونهب الأموال، وهو ما أبرزته كتابات كل من المترجم الفرنسي "*Féraud*" والباحثين "*Vayssettes*" و"*Mercier*" بكثير من الدقة والوضوح. فضلا عما زودتنا به بعض الكتابات الأجنبية المترجمة في الكثير من القضايا، ونخص بالذكر منهم كتاب القنصل الأمريكي "وليام شالر"[3] الذي أعطانا صورة مقتضبة على الأوضاع الداخلية التي كان يعيشها المجتمع الريفي في هذه الحقبة، بل ووضعنا أحيانا أمام الأسباب الحقيقية وراء حدوث ظاهرة الصراع وتفشيها، وما انجر عنها من هجرة قسرية إلى الجبال والمدن الكبرى. وكذلك كتاب الأسير الألماني "شلوصر"[4] الذي ترك لنا وصفا دقيقا لنظام المحلة وقوانينها، كما زودنا بإشارات هامة عن قيم الشجاعة والفروسية، وموقعهما ضمن مجمل القيم الحربية التي مجدها المجتمع الريفي. غير أن هذه المادة المنتقاة من هذا النوع من

---

[1] عبد الله بن محمد بن أبى بكر العياشي: الرحلة العياشية (1661_1663)، تحقيق وتقديم: سعيد الفاضلي وسليمان القرشي، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي، 2006.

[2] PEYSSONNEL et DESFONTAINE: *Voyages dans les régences de Tunis et dans les régences de Tunis et d'Alger*, paris, 1838.

[3] وليام شالر: مذكرات قنصل أمريكا في الجزائر 1816_ 1824، تعريب وتعليق وتقديم: إسماعيل العربي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982.

[4] شلوصر فندلين: قسنطينة أيام الحاج أحمد باي 1832–1837، ترجمة وتقديم: أبو العيد دودو، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1980.

الكتابات تحتاج إلى كثير من التمحيص والنقد لتخليصها من الشوائب العالقة بها بحكم انتماءات أصحابها وميولاتهم الاستعمارية.

ولاستكمال الصورة العامة عن أثر الصراع في المجتمع الريفي وذهنياته، لم يكن البحث ليغفل عن تلك المقطوعات الشعرية المتناثرة بين صفحات المجلة الإفريقية والتي مثلت وعاء هاما لتأملات أصحابها، ومرآة موضوعية، وتمُثلا دقيقا لذهنية المجتمع ووجدانه، وتعبيرا عن مواقفه من استفحال ظاهرة الصراع وأصدائها ونكباتها. وقد استطاع هذا النوع من المتون، أن يُشّخص الأبعاد التي انتهت إليها آثار ظاهرة الصراع، أكثر مما استطاعت كتب التاريخ نفسها، وتمثل قصيدة الشيخ "أبو القاسم الرحموني الحداد"[1] أبرز نموذج في هذا الصدد.

وفضلا عن المادة المصدرية التي تم استغلالها بشكل مكثف في فصول البحث ومباحثه، وسّعنا مجال الاطلاع ليشمل العديد من الدراسات المعاصرة من مختلف التخصصات العلمية لتساعدنا على بناء رؤيا نرجو أن تكون شاملة لجوانب الموضوع، ككتب السياسة، وعلم الاجتماع، وعلم النفس الحربي وغيرها.

أما فيما يخص المنهج المتبع لاستغلال هذه المادة المصدرية حرصنا على الرصد الأمين للوقائع التاريخية، لملء الفراغ، واستنتاج المبتور، والكشف عن الجديد إن أمكن، ساعين إلى تقديم أقرب صورة للموضوع، انطلاقا من مقاربة تاريخية تحرص على تكامل عناصر الظاهرة التاريخية، معتمدين في ذلك ما أمكن، على مناهج التحليل والوصف، والإحصاء، والتفكيك، والاستنباط. ثم إعادة التركيب وتغليب الاحتمال على الاقرار، خاصة فيما يتعلق بأثر الصراع على الأسرة الريفية ابتداءً من الرجل مرورا بالمرأة وصولا إلى الطفل. كما لم ندّخر جهدا في إنجاز المقارنة كلما سمحت لنا الفرصة بذلك، خاصة بين الأزمنة لتبيين الثابت والمتحول جراء ظاهرة الصراع.

والواقع أن المنهج الأكثر استعمالا في هذه الدراسة هو المنهج التحليلي، الذي وظفناه في تحليل الظواهر والتفاعلات الاجتماعية والاقتصادية والعمرانية بالريف القسنطيني. والقيم التي أفرزها الصراع لخلق مجتمع ريفي على استعداد تام لمجابهة أي تعدٍ مهما كان مصدره، وذلك بمناقشة الأحداث ومحاولة استنباط استنتاجات موضوعية.

[1] أنظر الملحق رقم: 11.

وبفضل ما أمكننا الاطلاع عليه من مادة تاريخية، وانطلاقا من الرؤيا المنهجية التي أطرت تعاملنا مع الموضوع، وبصعوبة كبيرة تمكّنا من الحصول على خطة قارة لهذه الدراسة. والتي تم من خلالها تقسيم البحث إلى مقدمة، ومدخل، وثلاثة فصول، وخاتمة. أما المقدمة فهي تأطير إشكالي للموضوع. في حين خصصنا المدخل للتعريف بمصطلحات الدراسة، وبنية المجتمع الريفي، كما تطرقنا فيه إلى العلاقة بينه وبين السلطة المركزية. أما الفصل الأول فقد عنونّاه بعوامل الصراعات الداخلية والسياسة العثمانية تجاه المجتمع الريفي، حيث تحدثنا في المبحث الأول عن عوامل الصراع الداخلية والخارجية داخل الريف القسنطيني، ثم ركزنا في المبحث الثاني على سياسة بايات قسنطينة في أرياف البايلك، والتي كانت السبب الرئيس في زيادة الفرقة والكراهية بين المجتمع الريفي والسلطة المركزية، إن صح التعبير، خاصة بعد تطور النظام الضريبي الذي تكثف معه نشاط المحلة، وكثرت تجاوزاتها في الريف القسنطيني، وهو ما جاء في المبحثين الثالث والرابع على التوالي.

وفي الفصل الثاني عملنا على تتبع مراحل تطور الصراع داخل الريف القسنطيني بين (1771_1837م)، والوقوف على درجة إسهام الأفراد والجماعات في أحداثه. حيث افتتحناه بتفاقم الصراع داخل أرياف البايلك نتيجة لوصول صالح باي إلى مقاليد السلطة، الذي تعددت صراعاته مع شيوخ القبائل وشيوخ الزوايا، كما وضعنا مخططا بيانيا وضحنا فيه مدى نفوذ صالح باي في الريف القسنطيني. ثم تطرقنا إلى تزايد صراع الأسر المتنفذة في الريف القسنطيني خاصة في ظل سياسة البايات في تدبير الخلافات بين تلك الأسر لاحتواء خطرها وضمان تفرقها في آن واحد. ثم أخذنا ثورة ابن الأحرش أنموذجا للثورات التي اندلعت داخل الريف القسنطيني، وعملنا على تبيين مدى استمرارية الاضطرابات وتأزم الأوضاع في الريف القسنطيني بعد هذه الثورة، لننتهي إلى شكل آخر من أشكال الصراع، والذي نقصد به النزعات القبلية الحدودية بين القبائل الجزائرية والتونسية على حد سواء.

أما الفصل الثالث والأخير فخصصناه لتتبع أثر الصراع على المجتمع الريفي القسنطيني، من خلال تحليل الانعكاسات التي خلفها في الاقتصاد والديموغرافيا والمجتمع، هذا الأثر الذي تجاوز الفقر والجوائح من المجاعات والأوبئة في الريف القسنطيني ليكشف

على أهم التحولات الكبرى التي عرفها من تفاقم في البداوة ونزوح إلى المدينة. كما سلطنا الضوء على الانعكاسات الاجتماعية التي خلفها الصراع في الأسرة الريفية بشرائحها الثلاث "الرجال، النساء، والأطفال". وختاما تطرقنا إلى الآثار النفسية للصراع في المجتمع الريفي ودوره في بروز الأولياء والمعتقدات الشعبية كأساليب دفاعية لمواجهته، والكشف عن أبرز الترسبات الذهنية التي تركها في المجتمع الريفي القسنطيني.

وأنهينا الدراسة بخاتمة جمعنا فيها ما جاء متفرقا في ثنايا فصول البحث ومباحثه من خلاصات واستنتاجات راجين أن تكون إجابة مقبولة ومقنعة لإشكالية الدراسة. ولتسهيل الإطلاع على هذه المذكرة وإفادة قراءها ذيلناها بمجموعة من الملاحق والفهارس.

أما بالنسبة للصعوبات التي اعترضت طريقنا فهي كثيرة جدا، كان أهمها قلة المادة التاريخية المتعلقة بالمجتمعات الريفية، فالكتابات التي استطعنا جمعها فيما تقدمه من قضايا متعلقة بالمجتمع الريفي القسنطيني تظل في حكم النادر والمتفرق أحيانا كثيرة. وتحتاج إلى جهد كبير في الوصول إليها وجمعها ثم تفكيكها واستقرائها، وإلى كثير من الصبر والدقة والتروي في تمحيصها ونقدها، قبل أن تصبح مادة علمية كفيلة بأن تجيب عن بعض الإشكاليات المتعلقة بالموضوع في هذه الفترة.

وتتفاقم الصعوبات عندما يتعلق الأمر بتبيين أثر الصراع في المجتمع الريفي القسنطيني، نظرا لانصراف المصادر إلى تدوين تاريخ البايات في مركز سلطتهم، والذي يخص عادة المدينة دون الريف، ولم ينقذنا من هذا المأزق سوى نُتف المعلومات التي جادت بها المصادر الدفينة مثل الموروث الأرشيفي والنوازل، واللجوء إلى المنهج الذي قوامه التحليل والتفكيك والاستقراء ثم الاستكشاف، حيث اضطررنا إلى تفكيك معظم المتون المصدرية التي استطعنا الوصول إليها وإعادة تركيبها كلٌّ في مجاله لتوضيح أثر الظاهرة على البنى التحتية للمجتمع الريفي القسنطيني.

شكر وامتنان:

إن كنت مدينة لأحد في إتمام هذا العمل فإن الأولى بذلك هي أستاذتي المشرفة "جميلة معاشي" التي كانت لي خير مرشد وأفضل عون، فهي التي شدّت على يدي وتابعت عملي وسهرت على تزويدي بالملاحظات القيّمة، كما دأبت على رفع معنوياتي وزودتني بأفكار كانت نبراسا أنار طريقي، فإليها يعود كل الفضل والتقدير. كما لا يفوتني أن أتقدم بالشكر الجزيل إلى كل من: الأستاذ عبد الرحمن كابة، والأستاذة نصيرة مباني، اللذين علماني أبجديات الترجمة السليمة، وكانا خير عون لي في ترجمة المراجع الأجنبية فجزاهما الله خير الجزاء.

وفي الأخير أحمد الله تعالى حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه، على توفيقه لي لإتمام هذا العمل، والذي أتمنى أن أكون قد وُفقت فيه ولو بقسط قليل إلى إبراز بعض الجديد في حقل التاريخ الاجتماعي للأرياف القسنطينية وذلك بالكشف عن الآثار العميقة التي مست البنى التحتية للمجتمع الريفي جراء ظاهرة الصراع، وما توفيقي إلا برضا الله ورضا والديَّ حفظهما الله.

أولا_ مفاهيم عامة حول موضوع الدراسة.

1°_ مفهوم الريف:

لقد تعددت مفاهيم الريف في مصادر مختلفة الأنماط، غير أنها تصب جميعا في قالب واحد، فالريف في المفهوم القرآني هو المصر الجامع، أو أي تجمع سكاني اتخذ قرارا وسكنا.[1] أما في الموسوعات العربية فيعرفه ابن منظور على أنه:" الخصب والسعة في المأكل والمشرب وجمعه أرياف، والريف ما قارب الماء من أرض العرب وغيرها".[2] كما يُعرف في معجم علم الاجتماع بأنه البيئة التي يعيش فيها الفلاحون ويمارسون فيها نشاطاتهم،[3] وقد وُجد عند العرب كلمات في معنى الريف مثل البادية، الوبر، المدر، الحدر، والقرية.[4] ويُفرق ابن خلدون بين البداوة والريف، حيث يُقر بأن أهل الريف تتصف حياتهم بالاستقرار، ونشاطهم الدائم قائم على الزراعة وتربية النحل والماشية، ولأن حياتهم مستقرة فهم لا يضطرون إلى الترحال كما هو الحال عند البدو.[5]

وحالة الاستقرار هذه أثرت على علاقاتهم وسلوكياتهم، حيث جعلت من طباعهم الرضى، القناعة، والتعاون، إلا أنهم، حسب أحد المراجع، كسالى بسبب اعتمادهم على ما تعود به الأرض من خيرات فقط مما جعلهم لا يبادرون ولا يتطلعون إلى حياة أفضل،[6] كما هو الحال عند قبائل الرعية في البايلك. وعموما فإن الريف القسنطيني لا يختلف كثيرا عما أوردته المتون السابقة، من كونه المكان الذي تستقر فيه معظم القبائل بأصنافها المختلفة، وتتخذه موطنا يُعبر عن كيانها السياسي والاقتصادي والاجتماعي. كما يتميز بخصوصيات تختلف عن باقي المناطق الريفية الأخرى، ابتداءً من موقعه الجغرافي إلى الإثنيات المشكلة له وغيرها من المميزات التي سيأتي تفصيلها لاحقا.

---

[1] محمد السرياني: مفهوم القرية ودلالاتها في القرآن الكريم، مجلة العقيق، العدد 1، السعودية، 1992، ص 17.

[2] جمال الدين أبو الفضل ابن منظور الإفريقي: لسان العرب، دار المعارف، القاهرة، حرف الفاء، فصل الراء.

[3] معجم العلوم الاجتماعية، ترجمة: إبراهيم مدكور، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1975،ص 298.

[4] عبد المنعم ماجد : تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، المكتبة المصرية، القاهرة، 1978، ص 9.

[5] عبد الرحمن ابن خلدون: المصدر السابق، ص 408.

[6] عبد الحميد بوقصاص: النماذج الريفية الحضرية لمجتمعات العالم الثالث في ضوء المتصل الريفي الحضري، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائرية، د.ت، ص 56.

2°_ مفهوم المجتمع الريفي:

لقد لفت نظر المهتمين بدراسة المجتمع منذ أجيال بعيدة وجود طابعين مميزين من المجتمعات، تختلف طبيعة كل منهما على الآخر، فهناك الريف بطابعه البسيط العائلي وثقافته التقليدية الرتيبة، وهناك المدينة بطابع حياتها المعقد وثقافتها سريعة التغير. فهذا ابن خلدون[1] يرى أن البعض يتعاون على تحصيل ما هو ضروري وبسيط، فمنهم من يستعمل الفلح ومنهم من ينتحل الخيام ويهتم بالماشية، وهم البدو، والبعض الآخر يتعاون في الزائد على الضرورة ويستكثر من الأقوات والتأنق والترف ويتخذون المنازل والقصور مسكنا، ومن هؤلاء من ينتحل في معاشه الصنائع والتجارة فتأتي مكاسبهم أغنى من أهل البدو لأن أحوالهم زائدة على الضروري، وهم الحضر.

وهذا المفهوم أساسه المعايشة وليس التصور الفكري المحض، لأنه عاش هذا الواقع في بلدان المغرب العربي ومن جملتها الجزائر، وجاء الوصف مطابقا لواقع المجتمع وخصائص كل منطقة، وإن لم يذكر كلمة ريف صراحة، لأن اهتمامه كان منصبا أساسا على المقابلة بين سكان البادية وأهل الحضر، وهو لا يعني المفهوم الضيق لكلمة البداوة، بل يعني كل من ليس هم من أهل الحواضر.

وإذا كانت خصائص الحياة الريفية تتميز بالصفات التي ذكرها ابن خلدون من بساطة وتواضع وبعد عن الترف، فإن هذه الخصائص غير ثابتة في كل تجمع ريفي، بل قد تخضع للتغير والتحول الذي يتبع سيرورة المجتمع، وللطبيعة البشرية التي لا يمكن بأي حال من الأحوال نكرانها. وهذا التغير لا يصيب الجانب المادي فقط، بل يتعداه إلى ما يتعلق بالجوانب الثقافية والسلوكية وحتى الهيكلية والمعمارية، وهو ما يعبر عنه بوضوح ريف "خنقة سيدي ناجي" الذي تحول إلى حاضرة مميزة، فأضحى مركزا عمرانيا نشيطا شُيدت به المباني التي تشبه الطراز المعماري بتونس، وقُسم إلى خمس حارات كل حارة تضم مسجدا وسوقا ومحلات، كما تطورت به صناعة المجوهرات والفضة والنحاس والروائح والعطور، واختصت كل عائلة بنوع من الحرف، منها الحدادة والطب والإدارة والشؤون العامة وغيرها[2].

---

[1] عبد الرحمن ابن خلدون: المصدر السابق، ص 408.

[2] كريمة بن حسين: خنقة سيدي ناجي ابان العهد العثماني، مقال نشر بالجمعية الناصرية للتنمية الثقافية والاجتماعية لخنقة سيدي ناجي بولاية بسكرة، نشر دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 2002، ص 62.

3°_ مفهوم الصراع:

تميزت الصراعات الداخلية في الريف القسنطيني بكونها ظاهرة ذات طبيعة معقدة ومركبة فهي ذات صبغة اقتصادية، سياسية واجتماعية، بأبعاد داخلية وخارجية. ومن هنا فإن محركات الصراع تتداخل مع هذه الطبيعة المركبة لها بكل جوانبها وأبعادها المشار إليها. ويُعرّف الصراع بأنه تنافس على القيم والقوة والموارد، وهو تفاعل بين البشر ولا يشمل صراع الإنسان ضد بيئته الطبيعية،[1] كما يُعبر الصراع على إرادة المجتمع في امتلاك الفريد من الأشياء والعيش بطريقة أفضل.[2] ويمكن تعريف الصراع في الريف القسنطيني بأنه تصادم في المصالح، واختلال في التوازن بين المطلوب والموجود، وهو ما زاد من التباعد والتعارض بين القبائل الريفية فيما بينها، وبينها وبين السلطة.

وتجدر الإشارة إلى أن مصطلح الصراع قد يصطدم بجملة من المفاهيم التي تكاد أن تكون الدالة عليه، مثل النزاع، التنافس، التوتر والحرب، والتي أردنا توضيحها لتجاوز الخلط بين ظاهرة الصراع التي نحن بصدد دراستها وغيرها من المفاهيم الأخرى. فالنزاع مثلا وحسب الكثير من الباحثين[3] يمتاز بميزتين: الأولى هي التوتر والثانية هي الأزمة، وكلتاهما مستويات أقل ظاهرة من الصراع، لأن التوتر هو حالة من التباين في المصالح والأهداف تصحبها مشاعر من الخوف والشك في تصرفات الطرف الآخر، فهو ظاهرة سابقة للصراع وليس ظاهرة الصراع نفسَها كما هو الحال بالنسبة للأزمة.

أما الحرب فتُعرف بأنها وبلا منازع الظاهرة الأشد عنفاً بين كل الظواهر الاجتماعية عبر التاريخ، كما أنها صراع مسلح ودموي بين جماعات منظمة واعية بأهدافها وغاياتها.[4] ويمكن التمييز بين الصراع والحرب من زاويتي التنظيم والإدارة؛ فالحرب تفرض وجود عدو نشيط منظّم ولا تتم إلا بشكل واحد وهو التصادم الفعلي بواسطة العنف المسلح،[5] وبالتالي قد تكون الحرب نقطة في تطور ظاهرة الصراع، ومنه يبقى الصراع كظاهرة مرافقة للحرب وليس هو الظاهرة نفسُها.

---

[1] جيمس دوفرتي، روبرت بالستغراف: النظريات المتضاربة في العلاقات الدولية، ترجمة وليد عبد الحي، شركة كاظمة للنشر والتوزيع، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 1985، ص 140.

[2] ريمون اوران: صراع الطبقات، ترجمة عبد الحميد الكاتب، منشورات عويدات، بيروت، 1983، ص 37.

[3] عبد العزيز جراد: العلاقات الدولية، موفم للنشر، الجزائر، ص 95.

[4] ناصف يوسف حتي: النظرية في العلاقات الدولية، دار الكتاب العربي، ط 1، بيروت، 1985، ص 295.

[5] غاستون بوتول: الحرب والمجتمع، ترجمة: عباس الشربيني، دار النهضة العربية، بيروت، 1983، ص 37.

ثانيا: بنية المجتمع الريفي ومميزاته ببايلك قسنطينة.

ارتبطت حياة الريفيين بالأرض، فتمحورت حول الحقل والعائلة ومزارات الأولياء والعلاقات الأولية الشخصية الوثيقة، واستنبطت قيم الخصب والصبر والأخوة والعصبية، ومارست تقاليدها ممارسة طقوسية كممارستها للفصول.[1] ولأنّنا بصدد دراسة العلاقة الجدلية بين ظاهرة الصراع والمجتمع الريفي القسنطيني، ارتأينا إبراز العوامل التي تميز خصوصية المنطقة عن غيرها من المناطق الريفية الأخرى، والتي وفرت الظروف المناسبة لكثافة ظاهرة الصراع بالبايلك، كالموقع الجغرافي الذي له أهمية كبيرة في خصوصية بنية المجتمع الريفي، والذي يستدعي عوامل فرعية تعطي لهذا الجزء مميزات تجعله أهم بايلك في الجزائر، فهو الأوسع من حيث المساحة والأغنى من حيث الثروة.[2]

وقد حدد الدكتور الإنجليزي "*Shaw*" الموقع الجغرافي لإقليم بايلك الشرق، بأنه يمتد من الشمال إلى الجنوب بمسافة 58 فرسخ،[3] ومن الشرق إلى الغرب بمسافة 95 فرسخ، وأن نهر بوبراك الذي يصب في ميناء دلس هو الذي يفصل بايلك الشرق عن دار السلطان.[4] أمّا من الشمال فيحده البحر الأبيض المتوسط، ومن الغرب الكاف حتى تبارك، وجنوبا واحات الصحراء الشمالية الشرقية وعلى رأسها: بسكرة، تقرت وورقلة، وواحات ميزاب بوادي الشبكة.[5]

أما الحدود الشرقية ورغم أنها حُددت بمعاهدة بين الإيالتين الجزائرية والتونسية سنة 1614م بوادي صراط، إلا أنها لم تكن تُحترم من طرف القبائل الحدودية؛[6] فكثيرا ما ميزتها الصراعات منذ أن الحقت الجزائر بالدولة العثمانية، وهذا ما جعل "*Noushi*"[7]

---

[1] حليم بركات: المجتمع العربي المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2001، ص 78.

[2] يعتبر بايلك الشرق المجال الحيوي الذي تنتهي إليه طرق الصحراء وتنطلق منه المسالك نحو تونس وطرابلس، كما أن ساحله يتوفر على العديد من الموانئ الطبيعية الصالحة للملاحة والمتفتحة على السواحل الأوربية للحوض الغربي المتوسط. أنظر، فلة القشاعي: النظام الضريبي...، المرجع السابق، ص 2.

[3] **الفرسخ:** في وحدة قياس محرفة من كلمة فرسنك الفارسية، وهو يساوي 5763 متر. أنظر: سهيل صابان: المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، مطبوعات مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، 2000م، ص162.

[4] THOMAS SHAW: Voyage dans la régence d'Alger au XVIII^{e} siècle, traduit de l'anglais par: E.Mac Carthy, Paris, 1830, p108.

[5] صالح العنتري: فريدة مؤنسة...، المصدر السابق، المحقق، ص 27.

[6] جميلة معاشي: الأسر المحلية الحاكمة...، المرجع السابق، ص 3.

[7] NOUSHI: Enquête sur le niveau de vie des populations rurales constantinois de la conquête jusqu' en 1919, Essai d'histoire économique et sociale , P.U.F. , Paris , 1961, p15.

يصفها بالحدود المتحركة، أما "*Urbain et Warnier*"[1] فيؤكدان بأن الحدود الشرقية تصل إلى غاية طبرقة داخل الحدود التونسية، لذلك ذهب بعض المؤرخين[2] إلى ربط الحدود الجزائرية الشرقية بمواطن وحركة تنقل القبائل الحدودية.

هذا وقد قدر "*Vayssettes*"[3] عدد سكان بايلك قسنطينة بحوالي 5/2 من مجموع السكان بالجزائر في الفترة العثمانية، وأحصى"*Noushi*"[4] عدد سكان الأرياف في البايلك بحوالي 1156716 نسمة. وعلى صعيد آخر يُعتبر البايلك بصفة عامة جبليا في معظمه، من حيث المظهر التضاريسي،[5] ويغلب عليه الطابع الصحراوي في الجنوب، والذي تتميز فيه الحياة بقسوة الطبيعة وما ينجر عنها من عدم الاستقرار وصعوبة التنقل ونقص المياه وانعدام الإمكانيات ومشقة العيش[6].

ويتزعم البايلك مجموعة من الأسر المتنفذة، كأسرة الحنانشة بالشرق، المقراني بمجانة، بوعكاز وبن قانة بالصحراء، وبني جلاب بوادي ريغ، كلها أسر ذات نفوذ واسع لدرجة أنها تشارك سلطة البايلك في الحكم،[7] فضلا عن القبائل ذات النفوذ الواسع، أمثال الحراكتة، النمامشة، البابور، قبائل الأوراس الجبلية، البرّانية، عامر الشراقة، زواغة، فرجيوة، وغيرها.[8] كل هذه القوى الفاعلة لعبت دورا هاما في علاقة المجتمع الريفي بسلطة البايلك ومرد هذا لخصوصية المنطقة ومن يقطنها، فهذه العوامل وغيرُها لها دورها الكبير في جعل المجتمع الريفي شبه منغلق على نفسه، مما يعطيه بعض الخصوصيات التي تميزه عن باقي المجتمعات الأخرى، ومن تلك الخصوصيات نذكر:

---

[1] URBAIN ET WARNIER: "Notice sur la province de Constantine Organisation et situation à l'époque de l'occupation", in T.E.F, 1841,p 308.

[2] أحميدة عميراوي: علاقات بايلك الشرق بتونس أواخر العهد العثماني وبداية الاحتلال الفرنسي، دار البعث، قسنطينة، 2002، ص 15.

[3] VAYSSETTES: "Histoire des dernier beys de Constantine depuis 1793 jusqu'à la chute d'Hadj Ahmed", R.A, N°03, 1858, p 166.

[4] NOUSHI : OP.CIT, p 22.

[5] محمد الصالح العنتري: فريدة مؤنسة...، المصدر السابق، المحقق، ص 27.

[6] عبد الله العياشي: المصدر السابق، المجلد الأول، ص ص 113_114.

[7] للاستزادة حول موضوع الأسر المتنفذة بالبايلك، أنظر، جميلة معاشي: الأسر المحلية الحاكمة...، المرجع السابق.

[8] URBAIN ET WARNIER: OP.CIT, pp 329 –328.

1°_ البناء الاثني والاجتماعي:

يتألف المجتمع الريفي القسنطيني من ثلاث إثنيات مختلفة العادات والتقاليد وأنماط العيش واللغة، وهي العرب المنتشرون على جنوب البايلك، والشاوية على المنطقة الوسطى منه، والقبائل على الساحل في شمال البايلك.[1] تتميز كل إثنية بالأصل العشائري الواحد، ومتانة العلاقات الاجتماعية التي تربط بين أفراده،[2] والتي تقوم أساسا على القرابة، والعنصرية في العلاقات تحت لافتة العصبية حسب مفهوم ابن خلدون.[3]

لكن، وفي الوقت نفسه لا يمكن تجاهل ذلك التمييز الشرائحي الذي كرسته سلطة البايلك في المجتمع الريفي، والذي أدى إلى زيادة التفاوت بين المستويات المعيشية؛[4] فسياسة السلطة في خلق شريحة موالية لها كقبائل المخزن وشيوخ الزوايا والمرابطين والأجواد، وتهميش الغالبية العظمى من المجتمع الريفي، أدى إلى نوع من التنافر والتباعد في العلاقات الاجتماعية. وبهذا الخصوص يشير صالح فركوس[5] إلى أن القبائل الجزائرية ظلت خلال الحكم العثماني تعيش صراعات دموية نتيجة السياسة التركية التي كانت تستهدف الحيلولة دون وحدتها لأن ذلك كان يشكل، في اعتقاد أكثر الحكام الأتراك، خطرا على وجودهم، الأمر الذي لم يحقق انصهار المجتمع في بوتقة واحدة مع الأتراك وظّل هذا المجتمع يعيش فرقة موحشة وعداوات قاتلة.

---

[1] Idem, pp 309_312.

[2] مصطفى الأشرف: الجزائر الأمة والمجتمع، ترجمة: حنفي بن عيسى، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983، ص 38.

[3] عبد الرحمن ابن خلدون: المصدر السابق، ص 142.

[4] عبد اللطيف ابن اشنهو: تكون التخلف في الجزائر، محاولة لدراسة حدود التنمية الرأسمالية في الجزائر بين عامي 1830_1962، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1979، ص 37.

[5] صالح فركوس: المختصر في تاريخ الجزائر من عهد الفينيقيين إلى خروج الفرنسيين (814 ق.م-1962)، دار العلوم، عنابة، 2002، ص 126.

2°_ الواقع الثقافي:

في قراءة بسيطة للواقع الثقافي في الريف القسنطيني نجد أن بعض الأجانب قد نفوا وجود العلم والتعلم في الجزائر كما ادعوا أنّ السكان يحتقرون العلم ويكتفون بتعلم القرآن.[1] وعلى نقيض هذا يتعجب البعض الآخر من انتشار التعليم وخاصة الإبتدائي بالجزائر العثمانية، وهذا ما جاء به الجنرال "*Daumas*" مؤكدا على أن لكل القبائل مدارس بمعلميها قبل الاحتلال الفرنسي.[2]

في حين تتفاوت الكتابات العربية في وصف أهل العلم بالأرياف، فابن حمدوش مثلا يصف في رحلته[3] تواضع علم أهل البوادي مقارنة مع الحواضر، إذ يرى أن "طلبة البوادي يقنعون من السلامة بالإياب، أما طلبة الحواضر فأشدهم بحثا وأقربهم تعلما وإدراكا وأوجدهم مواد". غير أن العياشي[4] يخالف هذا الرأي ويُقر بحسن علم أهل الأرياف، خاصة أهل الخنقة الذين وصفهم بأنهم: "أهل خير وبركة ولهم رغبة في العلم وتعلمه"، كما أشاد بازدهار الصحراء بسلسلة من الزوايا التي عظم شأنها وزاد نفوذها حتى تحول بعضُها إلى مدن مثل عين ماضي وتماسين وطولقة، وذكر ما اشتهر منها من الزوايا مثل زاوية "سيدي أحمد بن موسى" و"سيدي عمر بن محمد الأنصاري الخزرجي" وزاوية الأخضري، هذه كلها دور علم وتعليم وإشعاع فكري في الريف[5].

وعموما فقد تمسك المجتمع الريفي القسنطيني بكل العادات والتقاليد القبلية، فحياته تميزها البساطة والبعد عن الكماليات وبالتالي فإن ثقافته هي الأخرى تتسم بالتواضع، لأنه يشتق رؤيته للحياة وفهمه لها من علاقته بالأرض، ما جعل الحياة الثقافية تنحصر تقريبا في العلوم الشرعية التي تدرس في الزاوية وما تجود به على سكان الريف.

3°_ الواقع الاقتصادي:

[1] أنظر، مولاي بالحميسي: المرجع السابق، ص 31.

[2] YVONNE TURIN: Affrontements culturels dans l'Algérie coloniale, Alger, 1983, p127.

[3] عبد الرزاق ابن حمدوش الجزائري: رحلة ابن حمدوش الجزائري المسماة لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال، تقديم وتحقيق وتعليق: أبو القاسم سعد الله، إصدارات المكتبة الوطنية، الجزائر، 1983، ص 149.

[4] عبد الله العياشي: المصدر السابق، المجلد الثاني، ص538.

[5] مولاي بالحميسي: الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، بحث تحت إشراف: المركز الوطني للدراسات التاريخية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ص 30.

تعتبر الفلاحة المهنة الغالبة في المجتمع الريفي القسنطيني، وقد كانت ملكيات البايلك تُعرف بالعزل، وتنتشر على مساحة شاسعة حوله. استغلالها يتم مباشرة من طرف الحكام، الذين يستخدمون الخماسة، أو يلجئون إلى تسخير قبائل الرعية "السخرة"، وإذا تعذر الاستغلال المباشر تُعطى لذوي النفوذ مثل المرابطين وشيوخ القبائل والعشائر المهمة المتعاملين مع البايلك.[1] ومن أهم المنتجات الزراعية نجد الحبوب المناسبة لمناخ البايلك والتي لا تحتاج لأمطار غزيرة، والمميز فيها أنها تُخزن لفترة طويلة ولا يلحقها الفساد،[2] وهي تشكل حزاما متصلا بين الحدود التونسية شرقا حتى نواحي برج بوعريريج غربا[3]، بالإضافة لأنواع الخضار والثمار والمزروعات المختلفة التي تنتشر بالبايلك[4].

هذا وقد عمل صالح باي على تحسين أوضاع الزراعة وتنمية الإنتاج الفلاحي؛ فقد كان شديد الرغبة في غرس الأشجار، كما شجع الرعية على تقليده في ذلك بمنحه ريالا لكل من يقوم بغرس شجرة ومائة ريال لمن يغرس مائة شجرة،[5] وأدخل بعض المزروعات الجديدة مثل الأرز في سهل الحامة مستعينا في ذلك بنظام ري دائم معتمد على تشغيل عدد من النوريات لرفع الماء إلى مستوى مشاتل الأرز، هذا إلى جانب استصلاح الأراضي التي تغلب عليها المستنقعات بنواحي عنابة، وقد أنشأ لهذا الغرض شبكة من القنوات لصرف المياه الراكدة إلى مجرى النهر. ولعلّ أهم مشروع زراعي حققه صالح باي هو استغلال السهول الخصبة القريبة من عين مليلة، وإقرار قبيلة السقنية بالأراضي الخصبة بنواحي القرفية وعين كرشة قصد استغلالها زراعيا، وجعل جزءا منها حظيرة لتهجين خيول البايلك ومكان ملائم تحفظ فيه الخيول لوقت الحاجة[6].

---

[1] نصرالدين سعيدوني والمهدي بوعبدلي: المرجع السابق، ص 52.

[2] جودت عبد الكريم: الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في المغرب الأوسط خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ص 39.

[3] NOUSHI: OP.CIT, p 66 .

[4] CHARLES LOUIS FERAUD: "Documents pour servir a l'histoire de BONE" , R A, N° 32, Alger, 1888, p197.

[5] جميلة معاشي: "مخطوط عن صالح باي حاكم بايلك قسنطينة (1771_1792م)"، المجلة التاريخية المغاربية، العدد 140، منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، تونس، جويلية 2010، ص39.

[6] ناصرالدين سعيدوني: دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر _ العهد العثماني_، سلسلة الدراسات الكبرى، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص 68.

وعلى صعيد آخر يذهب حمدان خوجة إلى اعتبار صحراء قسنطينة "مصدر ثروات البلاد وأساس كيانها السياسي، وأنها تشكل بمفردها أكبر جزء تعتمد الإيالة كل الاعتماد على سكانه".[1] أما أهل الصحراء فيمتهنون مهنة الرعي التي انتشرت في أراضي السهول الجافة والمناطق المتاخمة للصحراء،[2] وهي المصدر الرئيسي لمعيشة المناطق غير الملائمة للإنتاج الفلاحي، وتشكل نشاطا اقتصاديا مستقلا بذاته تمارسه عشائر الهضاب العليا وقبائل المناطق المتاخمة للصحراء، بينما ظل يشكل نشاطا مكملا للزراعة في المناطق الشمالية وبعض الأودية الخصبة. وقد اشتهرت بعض القبائل بثروتها الحيوانية مثل قبائل النمامشة، الحراكتة، أولاد عطية، أولاد يحي، وأولاد عبد النور وغيرهم.[3]

ونذكر في هذا الصدد قبيلة النمامشة التي كانت ثروتها الرئيسية تتمثل في قطعان الماشية وخاصة الجمال، فهم لا يهتمون كثيرا بالزراعة لأنهم رحل، فيرتحلون عند الشعور بالخطر ويتوغلون في الصحراء، وحين يشتد البرد ينتقلون من جبل الدير ونواحي تبسة ويدخلون إلى بحيرة الأرانب، أين تزرع كل عائلة قطعة أرض تناسبها، ولما ينتهي المحصول يزحفون نحو الصحراء، وكانت تبسة وقرية أوقاس المخازن المؤقتة لحبوبهم[4].

4°_ الشرائح الاجتماعية:

تتكون بنية المجتمع الريفي حسب الأعراف من الأسرة التي تعتبر الخلية الأساسية فيه، كما أن القبيلة هي الوحدة الاجتماعية التي ينفرد بها الريف دون المدينة.[5] وتتكون القبيلة من عدة فرق يشرف على كل فرقة شيخ يعين من طرف الباي، وتنقسم الفرقة إلى دواوير تنقسم بدورها إلى عدة عائلات أو خيام.[6]

أما حسب التصنيفات الحديثة فقد أجمع جمهور المؤرخين بأن بنية المجتمع الريفي خلال الفترة العثمانية مقسمة إلى أربع مجموعات، فحسب *"Louis Rinn"* يتكون المجتمع

---

[1] حمدان بن عثمان خوجة: المرآة، المصدر السابق، ص 84.

[2] ناصر الدين سعيدوني: دراسات تاريخية في الملكية والوقف والجباية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ص17.

[3] فلة القشاعي: النظام الضريبي... ، ص 15.

[4] CH. FERAUD: "Notes sur Tébessa" , R A, N° 18, Alegria, 1874,p 449.

[5] فلة القشاعي: الريف القسنطيني...، المرجع السابق، ص 248.

[6] VAYSSETTES: "Histoire des dernier beys…", OP.CIT, p 102.

الريفي من قبائل المخزن، الرعية، الأجواد والمرابطين والقبائل المستقلة، ويتعمق أكثر في دراستهم بإحصاء عدد فرق كل مجموعة في بايلك الشرق كما يلي:

اسم الجماعة	قبائل المخزن		قبائل الرعية	القبائل المتحالفة	القبائل المستقلة
عدد المجموعات في بايلك الشرق	المحاربون	آخرون	14	25	138
	25	22			

المصدر:

LOUIS RINN: "Le Royaume D'Alger sous de dernier dey, chapitre7, beylik Qsantina", R.A, N° 43, 1899, p122.

لو قمنا بجمع هذه المجموعات لوجدناها 224 مجموعة من أصل 516 مجموعة في البياليك الأربعة،[1] والملاحظ هنا أن بايلك قسنطينة أكثر كثافة سكانية في الريف، كما أن القبائل المستقلة تشكل أكبر نسبة بالمقارنة مع القبائل الأخرى، ويعود ذلك إلى شساعة مساحة البايلك وصعوبتها، ولوجود الأسر المتنفذة والقبائل القوية في البايلك والتي تتقاسم الحكم مع سلطة البايلك، ما أدى وبصورة آلية إلى انخفاض نسبة قبائل الرعية مقارنة مع نسبة المجموعات القبلية الأخرى، وفيما يلي توضيح لكل مجموعة على حدى.

أ_ قبائل المخزن: لقد ضم الجيش العثماني منذ الوهلة الأولى قبائل المخزن كأطراف حليفة، حيث أصبحت عنصرا أساسيا في معادلة القوة والضعف بالنسبة للجيش العثماني، ولا شك أن سلطة البايلك استمرت على أساس تعدد المشاركين في الغلبة العسكرية، وتعتبر قبائل المخزن ذات صبغة فلاحية، عسكرية وإدارية، لما تقوم به من أعمال. كما أنها لا تعود في أصولها إلى نسب واحد، فهي تجمعات سكانية ذات تكوين اصطناعي، منهم العبيد وعرب الصحراء وسكان الهضاب والجبال، إضافة إلى المغامرين القادمين من مختلف مناطق العالم.[2]

ويُصنفهم *"Robin"*[3] من بين أكبر القبائل بالبايلك، بما فيهم بعض الهاربين من قبائلهم الأصلية، خوفا من الانتقام والأحكام التي فُرضت عليهم. وينعتهم ابن العطار[4]

---

[1] يقدر عدد المجموعات بدار السلطان بـــ 73 مجموعة، وفي بايلك التيطري 62 مجموعة، أما بايلك وهران فـــتقدر بـــ 157 مجموعة، لمزيد من الإطلاع أكثر انظر: LOUIS RINN: OP.CIT, p 122.

[2] ناصرالدين سعيدوني، المهدي بوعبدلي: المرجع السابق، ص ص 105_106.

[3] N. ROBIN: "Note sur l'organisation militaire et administrative des turcs dans la grand kabylie", R.A, N° 17, Alger, 1873, p 196.

[4] أحمد بن المبارك ابن العطار: المصدر السابق، ص 49.

بأنهم "أهل غلظة وفظاظة لكون غالبهم من أهل البادية"، ونذكر من بين فرق المخزن بالبايلك مخزن الحراكتة وقائد منطقة الأوراس والسحاري وغيرهم.[1] وقد قدر *Vayssettes*[2] عدد فرق المخزن في بايلك قسنطينة بحوالي ستة آلاف فارس وستة آلاف من المشاة، واعتبر مخزن الزمالة المرابطة بسهل عين مليلة أهم مجموعة في البايلك.

أما نشاطها فهو عسكري بحت في كثير من الأوقات في حين تمارس الفلاحة أوقات السلم والاستقرار،[3] حيث تشارك في المحلات الفصلية لاستخلاص الضرائب، وترفع المكوس على أعمال الآخرين وضرائب مرتفعة تثقل كاهل الخمّاسة الذين كثيرا ما استعبدوا لعجزهم عن أداء ديونهم،[4] وتوقع العقاب بالممتنعين والمعادين لسلطة البايلك. كما أنها تلعب الدور الرئيسي في شؤون الحرب،[5] حيث عُين في كل ثغر عدد مخصوص من الجند،[6] وذلك لحراسة الأبراج والممرات الصعبة والأسواق الموسمية وغيرها.

وبالتالي فهي تشكل حلقة وصل بين السكان في الأرياف والحكام في المدن حتى ارتبطت بها أنظمة الحكم، وأصبح امتداد نفوذ الدولة داخل البلاد يقاس بمدى نشاط هذه القبائل، ومقابل هذه الخدمات كانت قبائل المخزن تحظى بامتيازات من طرف سلطات البايلك كالإعفاء من الضرائب الإضافية والاكتفاء بتقديم بعض المساهمات العينية الخفيفة التي لم تكن تتجاوز سدسيّ المحصول[7].

ب _ قبائل الرعية: هي أضعف حلقة في سلسلة المجتمع الريفي، لا يمكنها شقُ عصا الطاعة لأنها محصورة بين مراقبة قبائل المخزن وتهديد فرق المحلة بهجمات مباغتة، كما حٌظر عليها كل أنواع الأسلحة كشراء البنادق واقتناء البارود[8]، وتتكون من

---

[1] LOUIS RINN : OP.CIT, pp 133_135

[2] VAYSSETTES: "Histoire des dernier beys…", OP.CIT, p38.

[3] ERNESET MERCIER: "histoire de l' Afrique septentrionale (berbérie) depuis les temps les plus reculés jusqu'à la conquête française", 1830, Paris, 1868, p 133.

[4] أندري برنيان، أندري نوشي، ايف لاكوست: الجزائر بين الماضي والحاضر، ترجمة: رابح اسطنبولي ومنصف عاشور، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1984، ص 209.

[5] صالح عباد: الجزائر خلال الحكم التركي 1514_1830، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، ط2، الجزائر، 2007، ص 319.

[6] أحمد بن محمد بن سحنون الراشدي: الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، تحقيق وتقديم: المهدي بوعبدلي، منشورات وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، سلسلة التراث، مطبعة البعث، قسنطينة، 1973، ص 442.

[7] ناصرالدين سعيدوني والمهدي بوعبدلي: المرجع السابق، ص ص 106_107.

[8] ناصر الدين سعيدوني والمهدي بوعبدلي: المرجع نفسه، ص 107.

المجموعات السكانية الخاضعة مباشرة للبايلك والتي تتمركز في عين مليلة، ميلة، سطيف، واد زناتي، المسيلة، والعلمة، عنابة وسكيكدة،[1] إضافة إلى قبائل عامر الشراقة وعامر الغرابة وأولاد علي والعشايش العطاطفة وأهل وادي الذهب وغيرهم[2].

وقد عاشت هذه القبائل في ظروف صعبة جدا تميزت بالتعاسة والحرمان والبؤس وفي الوقت نفسه كانت مصدر ثروة لبايلك الشرق،[3] فهي التي تتحمل كل الأعباء الضرائبية الثقيلة، هذه الأخيرة التي لطالما استحدثت حسب متطلبات البايلك. كما أُرغمت على بيع محاصيلها الزراعية بأسعار زهيدة، ومُنع عنها الاتصال بالقبائل المعادية للبايلك، ووُضع على رأس القبائل الكبيرة قياد من الأتراك والكراغلة وشيوخ من العائلات المتعاملة مع البايلك. كما أدى الضغط المتزايد الذي كانت تتعرض له إلى تفككها فلم تعد تعتمد على تجانسها وتلاحمها على الأصل المشترك والانتساب العرقي، بل أصبح انسجامها وتلاحمها يرتكز على الظروف المعاشية ومعاملاتها مع الحكام[4].

ج _ **القبائل المتحالفة:** هي القبائل التي تتعامل مع البايلك عن طريق مرابطيها الذين أصبحوا بحكم العادة والعرف يتوارثون حكمها معتمدين في ذلك على نفوذهم الديني. وقد غلب على هذه العائلات الطابع الروحي الذي كان له الدور الكبير في التأثير على سكان الأرياف، وهذا ما أكده حمدان بن عثمان خوجة[5] بقوله:" فعلى الرغم من عدم وجود قانون يسوون به خلافاتهم (السكان) ويكبحون به جماحهم، وعلى الرغم من أنهم لا يقبلون الخضوع لأي سلطان فإن طاعتهم للمرابط طاعة لا يمكن تفسيرها". كما كانوا يجوبون البلاد شرقها وغربها دون الخوف من قطاع الطرق، وفي هذا الصدد أشار "*Haedo*"[6] إلى المسافرين الذين كانوا يصطحبون معهم أحد المرابطين ليتجنبوا اللصوص كما كان يفعل الذين يعبرون جبال جيجل خائفين من لصوص بني عباس.

وهذا ما تفطن له العثمانيون منذ البداية فربطوا علاقة ودية معهم بالتقرب إليهم

[1] أرزقي شويتام: المجتمع الجزائري وفعالياته في العهد العثماني 1519_1830، رسالة مقدمة لنيل درجة دكتوراه دولة في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة الجزائر، 2006، ص 186.

[2] LOUIS RINN: OP.CIT, pp 136_137.

[3] فلة القشاعي: النظام الضريبي...، المرجع السابق، ص 129.

[4] نصرالدين سعيدوني والمهدي بوعبدلي: المرجع السابق، ص 107

[5] حمدان بن عثمان خوجة: المرآة، المصدر السابق، ص 56.

[6] HAEDO:" Topographie et histoire générale d'Alger", R.A, N° 15, Alger , 1871, p 218.

وتكليفهم بمهام مقابل امتيازات لهم في الريف، فهذا الداي علي باشا الدولاتلي 1168هـ/1754م مثلا يبعث بمرسوم خاص لتعيين مرابط في قرية جيجل، وأمر بعدم الاعتداء عليه من طرف أهل النوبة ولا غيرهم،[1] ومرسوم آخر في تعيين مرابط على كافة عرش برباشة ناحية بجاية.[2] بالإضافة إلى تأمين المرابطين على أموال الجند كمرابط جيجل "المقراني" الذي كُلف بنقل أجرة الجنود من قسنطينة إلى جيجل[3]. إلا أن هذا الموقف بدأ يتغير بتغير السياسة العثمانية، فقد تدهورت العلاقات بين الأتراك والمرابطين واشتد نفوذ الأتراك على الريف حتى وصل إلى قمته مع حكم صالح باي، ما أدى فيما بعد إلى اشتعال ثورات ريفية عديدة ضد النظام التركي بزعامات طرقية.[4]

د_ القبائل المستقلة: وهي أكبر مجموعة سكانية في بايلك الشرق، ومرد ذلك إلى صعوبة مواطنها وعزلتها الطبيعية وبُعدها عن مركز السلطة ومواطن قبائل المخزن،[5] وكان أغلبها مؤلفا من القبائل التي تعيش في المناطق الجبلية الحصينة كالبابور وشمال قسنطينة والأوراس وتخوم الصحراء وغيرها[6]. ونذكر على سبيل المثال قبيلة النمامشة الكبيرة التي طالما فرت من كل ملاحقة من قبل البايلك،[7] وكذا قبيلة الحراكتة بسبب تمردها وامتناعها عن دفع الضرائب،[8] وقبيلة الحنانشة ومشيخة الدير وبوسعادة وبني جلاب وبوعكاز وغيرهم.[9] كل هذه القبائل وغيرها لم تكن تدفع الضرائب إلا بتجريد الحملات العسكرية عليها، وهذا ما سنتطرق له بالتفصيل في الفصول اللاحقة بحول الله.

---

[1] CH. FERAUD : "Exploitation des forets de la karasta sous la domination turque", R A, N° 13, Alegria, 1869,p 38.

[2] على خنوف: السلطة في الأرياف الشمالية لبايلك الشرق الجزائري نهاية العهد العثماني وبداية الإحتلال الفرنسي، الميزان للنشر والطباعة، الجزائر، 1999، ص 20.

[3] CH. FERAUD: "Exploitation des forets…", OP.CIT, p 158.

[4] فلة موساوي القشاعي: الريف القسنطيني اجتماعيا واقتصاديا...، ص 71.

[5] فلة موساوي القشاعي: النظام الضريبي...، المرجع السابق، ص 142.

[6] نصرالدين سعيدوني والمهدي بوعبدلي: المرجع السابق، ص 109.

[7] CH. FERAUD: "Notes sur Tébessa" , OP.CIT, p 450.

[8] CH. FERAUD: "AIN ELBAIDA", R A, N° 16, Alegria,1872, p 413.

[9] LOUIS RINN OP. CIT, p 305.

ثالثا_ علاقة المجتمع الريفي بسلطة البايلك.

إنّ الدارس لعلاقة سلطة البايلك بالمجتمع الريفي في ظل سياسة الصراعات الداخلية بالبايلك، يكون مضطرا لإقحام النظام الضريبي الذي عُرف بإرهاقه لسكان الريف في فهم تلك العلاقة، فهذا وليام شالر يصفها بالمضطربة والمتزعزعة حتما، حيث كان البايات مضطرين إلى الضغط على الرعية حتى يتمكنوا من جمع الضرائب التي تسمح لهم بالاحتفاظ بمناصبهم،[1] ومرد ذلك لهشاشة نظام الحكم وكثرة تعاقب الحكام الذين تميز أغلبهم في الفترة الأخيرة بالضعف وعدم الكفاءة.[2]

هذا، ورغم تبعية سكان الأرياف للسلطة المركزية اسميا، فإنهم فيما عدا دفعهم للضرائب هم في حالة شبه مستقلة ويخضعون لشيوخهم ولقوانينهم الخاصة،[3] ما جعل العلاقة تتلخص أساسا في مجموعتين حاكمة ومحكومة في خضم النظام الضريبي، وهنا تكمن أهمية دراسة هذا النظام كعنصر أساسي في تحديد طبيعة العلاقات السائدة بين السلطة والمجتمع الريفي. وكانت السلطة تستند في جمع الضرائب إضافة إلى موظفيها على:1_ قبائل المخزن الذين تباينت أدوارها باختلاف الأوضاع السائدة في البايلك.

2_ بعض الأسر المتنفذة التي تقرب منها البايات عن طريق سياسة المصاهرة قصد احتواء خطرها وتوظيفها في ضرب القبائل المناوئة لنظام الحكم في نفس الوقت.[4]

3_ شيوخ الزوايا الذين حاول معظم البايات إرضاءهم لقيمتهم الروحية البالغة بين الريفيين، ونذكر على سبيل المثال مرابطو أولاد عزام الذين عملوا على إخضاع كل من قبائل الذواودة والحنانشة مقابل إعفائهم من الضرائب.[5] وقد حاول صالح باي في بداية

---

[1] وليام شالر: المصدر السابق، ص 45.

[2] بكار العايش: "الوضعية العامة للجزائر قبيل الاحتلال مجلة حوليات مخبر التاريخ و الجغرافيا، كلية الآداب و العلوم الإنسانية بالمدرسة العليا للأساتذة، بوزريعة، العدد 2، الجزائر،2008، ص 152.

[3] وليام شالر: المصدر السابق، ص 108.

[4] السعيد قاصري: "معالم الدولة والمجتمع في فكر نظام الحكم العثماني بالجزائر وفي فكر الأمير عبد القادر مقاربة تاريخية"، مداخلة ألقاها بملتقى في جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، 2010، ص6.

[5] MOULOUD GAID: Chronique des Beys De Constantine , Office des Publications Universitaires, 1975, p 19.

عهده، رغم قوته، اكتساب تأييدهم بمنحهم العطايا وإسقاط المطالب المخزنية عنهم وإعطائهم الاقتطاعات الواسعة[1].

هذا واستطاعت تلك الحلقات الثلاث بسط نفوذها على سكان الأرياف لما حظيت به من امتيازات، وامتلكته من ثروات طائلة مقابل خدماتها، حتى أصبحت تمثل حلقة وصل على غرار قبائل المخزن بين المجتمع الريفي والسلطة المركزية. ولعلّ الأمر الذي زادها شرعية هو حصولها من طرف البايات على مراسيم وفرمانات التولية من وقت لآخر.[2] ونذكر على سبيل المثال ما قاله حمدان خوجة في تعيين مشايخ الصحراء، حيث يُهدى إليهم معطف مدبج بالخيوط الذهبية، ويوضع تحت تصرف الشيخ الواحد عشرون خيمة من الجنود الأتراك، ويكون هذا الشيخ كالملك بالنسبة لسكان الصحراء[3].

والواقع أن تلك المجموعات قد بالغت في جمع الضرائب باسم سلطة البايلك وسيرت الأمور لصالحها،[4] وهذا ما أشار إليه "*Féraud*" حين قال بأن مراكز الجباة أصبحت أشبه بمخازن للثروات وأماكن تجمع المحاصيل الزراعية؛[5] غير أن الزّهار يرى أن البايات الأواخر هم المسؤولون عن تلك المبالغة بقوله أنهم: "صاروا يُخرجون المحلات لاستخلاص المغارم والظلمات ونهب أموال المسلمين، وما وقع هذا حتى صار الناس فجارا والأمراء ظالمين"[6].

وعموما، فإن علاقة العثمانيين بالقوى المحلية والأسر المتنفذة كانت مبنية على المصلحة المشتركة، فمقابل تلك الامتيازات التي كانت تحظى بها، تقوم بجمع الضرائب مستعملة في ذلك مختلف الطرق الشرعية وغير الشرعية، وأصبح الحكام ينظرون إلى مجموع السكان لا على كونهم رعايا خاضعين فقط، وإنما باعتبارهم أصنافا ومجموعات بشرية متفاوتة من حيث الأهمية والحقوق والواجبات، وهذا ما سيؤدي لا محالة إلى تفاقم الصراع وزيادة الفتن وانتشارها أوساط المجتمع الريفي. فعلى أي أساس قامت تلك

[1] ناصر الدين سعيدوني: دراسات وأبحاث ...، ص 73.

[2] ناصر الدين سعيدوني والمهدي بوعبدلي: المرجع السابق، ص 109.

[3] حمدان بن عثمان خوجة: المرآة، المصدر السابق، ص 76.

[4] المصدر نفسه، ص 144.

[5] CH. FERAUD: "Notes sur bougie, légendes_ traditions", R A, N°3, Algérie, 1858, p 111.

[6] الشريف الزهار: المصدر السابق، ص 35.

الصراعات؟ وما هي أسبابها الحقيقية؟ والأهم من ذلك ما هي رهاناتها المعتمد عليها من قبل تلك الشريحة الاجتماعية والتي بنت عليها آمالها المرجوة؟ هذا ما سيتم التطرق له في الفصل الموالي بإذن الله وعونه.

الفصل الأول:

عوامل الصراعات الداخلية والسياسة العثمانية تجاه المجتمع الريفي.

أولا_ عوامل الصراع داخل الريف القسنطيني.

1_ العوامل الداخلية.

2_ العوامل الخارجية.

ثانيا_ سياسة بايات قسنطينة في أرياف البايلك.

ثالثا_ النظام الضريبي في الريف القسنطيني.

رابعا_ نشاط المحلة وتجاوزاتها في الريف القسنطيني.

باستقراء معالم المجتمع الريفي عبر التاريخ، نجد أن مفهوم الصراع يعبّر عن نفسه بوضوح في العلاقة بين الذات والآخر في جميع التكوينات الاجتماعية، وقد يكون هذا الذات فردا، أسرة، قبيلة، جماعة سياسية أو دينية أو طبقة اقتصادية أو غير ذلك، في مواجهة الكيانات الأخرى المناظرة. لذلك يمكن أن نقول بأن وجود الصراع في المجتمعات الريفية من الظواهر الطبيعية.

وانطلاقا من هذه الخلفية، فإن الريف القسنطيني لم يخلُ من الصراع المألوف المتعدد الأوجه والأهداف، كالاحتكاكات العادية بين المزارعين والرعاة حول الموارد الطبيعية، وصراع الأسر المتنفذة وغيرها. لكن، الجديد في الأمر هو تحول ذلك الصراع المألوف إلى صراع عنيف تجذّر داخل الريف القسنطيني، خاصة بعد تدهور العائدات البحرية، ووصول صالح باي للسلطة سنة 1771م، وتداعيات ذلك على الواقع الاجتماعي في الريف. حيث أخذ صالح باي يتغلغل في الأرياف القسنطينية حتى وصل هذا التغلغل أوجَه في نهاية حكمه، ويبدو ذلك واضحا من خلال زعزعة التحالفات القبلية القديمة، وظهور بوادر تفكك النسيج الاجتماعي. الشيء الذي ساهم وبشكل كبير بتفاقم الصراع في أرياف البايلك مما جعل المنطقة مهددة بقيام ثورة قبلية عارمة خاصة في ظل غياب هيبة السلطة المركزية وهشاشة الوضع الأمني في البايلك.

فما هي أسباب ومحركات الصراع الحقيقية؟ وهل هي متداخلة فعلا مع الطبيعة المركبة لها بكل جوانبها السياسية والاجتماعية والاقتصادية، وأبعادها الداخلية والخارجية؟ أم أنها مجرد غريزة عدوانية سيطرت على سلوكيات المجتمع الريفي والسلطة المركزية؟ ثم ما السياسة التي انتهجها البايات وأولهم صالح باي في أرياف قسنطينة والتي أوصلت الأمور إلى هذا الحد؟

أولا_ عوامل الصراع داخل الريف القسنطيني:

1_ العوامل الداخلية

تكاد المتون المصدرية التي تحصلنا عليها أن تُجمع على استفحال ظاهرة الصراع القبلي، بل وحتى الأُسري، وهذا الانطباع هو الذي تكون لدى مصادر الفترة، فقد عبر العنتري عن الظاهرة "بترادف الأفتان والأهوال"[1] بالبايلك. أما وليام شالر فأكد على "ميل القبائل القسنطينية إلى الشقاق وأنها من أكبر القبائل وأشدها بأسا"[2]. ونجد نفس الانطباع تسجله كتب الرحلة على مدار مراحل تاريخية متباعدة؛ إذ يصف العياشي[3] منطقة بسكرة بقوله "ابتليت بتخالف الترك عليها وعساكر العرب...فاجتمعت عليها غارة العرب من خارج وظلم الترك من داخل حتى أشرفت على الخراب". ويبدو أن ظاهرة الصراع كانت متجذّرة فعلا في هذه المنطقة، لأنه وبعد حوالي قرنين كاملين من الزمن يصفها الرحالة الزياني[4] بمثل ما وصفها العياشي قائلا أن "أهلها تحت قهر الأتراك ومذلة العرب".

وعلى نفس الشاكلة تحدث الرحالة الفرنسي "*Peyssonnel*"[5] عن قوة هذه القبيلة وكثرة عدة وعدد تلك، حيث تبدو الشجاعة والقدرة على المخاطرة، والمعرفة بأساليب الحروب، مؤهلات ضرورية لأية قبيلة؛ إذ بمقدار ما تتوفره على مجموعة هامة من الفرسان المحاربين الأقوياء والشجعان، يتسع نفوذها وتعظم هيبتها كقبيلتي الحنانشة والنمامشة بالبايلك، وأكد أن القبائل التي تقع شرق البايلك فيها ما يقارب من 4 إلى 5 آلاف فارس عدا المشاة.

ومن جانب آخر، صوّر لنا نفس المصدر بعبارة توحي على قِدم ظاهرة الصراع القبلي واستمراره كثابت من ثوابت الحياة القبلية، وذلك عند مقارنته للأمن في كل من تونس وقسنطينة بقوله أن الأمن في تونس أحسن منه في قسنطينة حيث أنه بإمكان المرء التنقل في تونس بمرافقة رجل أو اثنين من الصبايحية أما في قسنطينة فلا يمكنك الحراك

[1] صالح العنتري: مجاعات قسنطينة، المصدر السابق، ص 39.

[2] وليام شالر: المصدر السابق، ص 116.

[3] عبد الله العياشي: المصدر السابق، المجلد الثاني، ص 540.

[4] أبو القاسم الزياني: الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برا وبحرا 1734_1809، تحقيق وتعليق: عبد الكريم الفيلالي، غشت، 1967، ص 149.

[5] PEYSSONNEL, OP.CIT, T2. p290-292.

إلا برفقة 20 أو 30 رجل خوفا من قطاع الطرق واللصوص.[1] وهو ما يجعلنا نلاحظ بعين الرحالة أن القبائل القسنطينية في تلك الفترة في معظمها قبائل متنازعة.

والملاحظ أنه إذا كانت بعض النصوص قد اهتمت بذكر ما كان بين القبائل من صراع، ووصف قوتها أو ضعفها، فالواضح أنها لم تول أهمية كبيرة لاستنباط الأسباب العميقة وراءها، واكتفى بعضها بردها إلى العدوان المتأصل في "طباع العرب من التوحش والتعدي"[2] كما نلمس ذلك أيضا عند حمدان بن عثمان خوجة الذي عزى تجذّر الصراع لدى القبائل القسنطينية برجوعه إلى ما في طِباعهم البربرية من ميل إلى الصراع، وهو أمر جُبلت عليه فطرتهم واقتضاه ميل إقليمهم.[3]

هذا ما أكده الحاج أحمد باي بقوله: "أن الحرب هي عادة الأعراب وأن الذي يريد حكمهم قد يتحتم عليه إبقاءها بينهم، والتحريض على المنافسات بين القبائل المختلفة الأصول والأجناس، أما أوضاع السلم فإنها تقارب بين العرب وتوحدهم حول غرض واحد، وهذه حالة لا ينبغي أن يطمئن إليها من كان يريد السيطرة عليهم إذ قد تأتي ظروف يتحد فيها هؤلاء الرجال كالإخوة ويجدون أنفسهم منظمين للقيام بالثورة، وعلى العكس فإذا وجدت الحرب أو العداوات بينهم؛ فإن من يريد حكمهم يكون دائما متأكدا من إيجاد الأنصار"[4].

ما جعل رواد المدرسة الاستعمارية يعتبرون هذه المقولات ذرائع وأدلة كافية لتبرير التدخل الأجنبي وتمجيده، والقول أن الغالب على أهل الجزائر هو كثرة التنافس والفتن،[5] و"أن القبائل القسنطينية المنيعة كانت تعيش قبل الفتح[6](!) في فوضى تامة، ومستقلة عن

---

[1] PEYSSONNEL, OP.CIT, T2, p 298.

[2] _ أحمد ابن أبي الضياف: إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، النشرة الثانية، المكتبة التاريخية، تونس، 1963، ص 78.

[3] حمدان بن عثمان خوجة: المرآة، المصدر السابق، ص 66.

[4] مذكرات أحمد باي وحمدان خوجة وبوضربة، ترجمة: محمد العربي الزبيري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ص 40-41.

[5] VAYSSETTES: "Histoire des dernier beys…", OP.CIT, pp 350_352.

[6] احتفظ المترجم بعبارة شارل فيرو "Conquête" .

بعضها البعض"،[1] حتى "أن الثارات الشخصية كانت تنجر عنها معارك متواصلة تميزت بالغضب البربري والحياة الوحشية"[2].

وبعيدا عن هذا الجدال فإنه ومن غير الخفي مدى زيف هذا التفسير لافتقاره إلى ضوابط البحث التاريخي الموضوعي، ولمقاربة هذه الظاهرة مقاربة علمية فلا مناص من وجود عوامل موضوعية، اقتصادية، اجتماعية وتاريخية، تحتاج منا إعمال المنطق قصد عقل هذه الظاهرة وتبيين أنساقها.

أ_ ظاهرة العصبية:

يُفهم من كلمة العصبية المحاباة والمدافعة، وعصبة الرجل قومه الذين ينتمي إليهم،[3] فالجماعة القبلية تتحدد على أساس علاقات القرابة، المعبّر عنها بروابط العصبية.[4] ويُعرف أحد المؤرخين[5] العصبية على أنها رابطة اجتماعية سيكولوجية شعورية ولا شعورية معاً، تربط أفراد جماعة ما، قائمة على القرابة، ربطا مستمرا يبرز ويشتّد عندما يكون هناك خطر يهدد أولئك الأفراد كأفراد أو كجماعة، واتحادهم هذا مفروض عليهم لمواجهة تحديات الطبيعة من عدم توفر الأمن وقلة توفر سبل المعيشة في أغلب الأحيان[6].

إذن، تعيش كل جماعة قبلية على شكل وحدات متحالفة على أساس الانتساب إلى أصل واحد،[7] وفي مقدمة أسباب تحالفها ظاهرة الصراع التي نحن بصدد تحليل ميكانيزماتها داخل هذه الجماعات، فهل لهذه الرابطة التحالفية دور في إنتاج الصراع وتحريكه بين القبائل؟.

الواقع أن النسب وما يتبعه من عصبية يبدو في النظرية الخلدونية " طبيعي في البشر إلا في الأقل، ومن صلته النعرة على ذوي القربى وأهل الأرحام إن ينالهم ضيم أو تصيبهم هلكة، فإن القريب يجد في نفسه غضاضة من ظلم قريبه أو العداء عليه، ويود لو

---

[1] شارل فيرو: تاريخ جيجلي، ترجمة عبد الحميد سرحان، دار الخلدونية للنشر والتوزيع، الجزائر، 2010، ص35.

[2] المصدر نفسه، ص 51.

[3] ابن منظور: المصدر السابق، ج4، فصل العين.

[4] عبد الرحمن ابن خلدون: المصدر السابق، ص 103.

[5] محمد بن حسن: القبائل والأرياف المغربية في العصر الوسيط، دار الرياح الأربعة للنشر، تونس، 1986، ص13.

[6] جودت عبد الكريم يوسف: المرجع السابق، ص 252.

[7] محمد عابد الجابري: فكر ابن خلدون العصبية والدولة معالم نظرية في التاريخ الاسلامي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1992، ص 212.

يحول بينه وبين ما يصله من المعاطب والمهالك".[1] وقد أكد حمدان خوجة هذه النظرية بقوله :"أن سكان الريف لديهم تعصبا ليس من التعقل العمل على استئصاله".[2] ولا تنقصنا القرائن في هذا الشأن فكثيرا ما توحدت القبائل الريفية لمجابهة أي تعدٍ خارجي، سواء كان من قِبل القبائل المجاورة أم السلطة المركزية. نذكر على سبيل المثال لا الحصر تحالف قبيلتي الحراكتة والخرارب ضد قبيلة أولاد داود القوية، والتي تمادت في فرض سيطرتها على القبائل المجاورة لها[3].

وتجدر الإشارة إلى أن العصبية ظاهرة متأصلة في المجتمع الريفي، حتى وإن كان أفراده بعيدين عن مواطنهم الأصلية. وهذا ما أشار إليه وليام شالر في حديثه على بعض أفراد قبائل قسنطينة الذين هاجروا إلى مدينة الجزائر لأجل العمل قائلا:" أنه فَقَدَ جميع خدامه فجأة بسبب حب الوطن الذي يستحوذ على قلوبهم، وقد رحلوا بحجة أن بلدهم تخوض غمار الحرب وهم مدعوين لحمل السلاح"[4].

هذا وقد عمل الأتراك على تشتيت هذه الرابطة وزعزعتها في ذهنية المجتمع الريفي، فقد نجح البايات في خلق النزاع بين القبائل لإضعافها وإحكام سيطرتهم عليها، بل حتى بين أفراد الأسرة الواحدة مثلما نجح صالح باي في بث الشقاق بأسرة الحنانشة بين شيخ القبيلة "إبراهيم بن بوعزيز" وابنه "بوحفص"، وبالتالي بينه وبين أتباعه وأصهار ابنه من قبيلة النمامشة.[5] وهناك سياسة أخرى لزيادة تشتيت العصبية قام بها الأتراك، وذلك بإيقاف رجال القبائل العاملين بقسنطينة أو بالسهول، والاحتفاظ بهم كرهائن، وأحيانا بضرب أعناقهم ومعاقبتهم على الأخطاء المرتكبة من قبل أهاليهم في الجبال.[6]

فضلا على أن الصراع القبلي موجود دوما حتى عند تحالف القبائل القسنطينية، لأن تحالفها قائم على قواعد متغيرة جدا، وحتى متناقضة أحيانا، مثلما هو في القبائل الشمالية،

---

[1] عبد الرحمن ابن خلدون: المصدر السابق، ص 102.

[2] حمدان بن عثمان خوجة: المرآة، المصدر السابق، ص 69.

[3] CH. FERAUD : "AIN ELBAIDA", OP.CIT, p 413.

[4] وليام شالر: المصدر السابق، ص117.

[5] جميلة معاشي: الأسر المحلية...، المرجع السابق، ص 267.

[6] شارل فيرو: تاريخ جيجلي، المصدر السابق، ص 36.

فما يكون مقبولا في قبيلة يكون مستخفا به في أخرى[1]، كما أن القبيلة ذات القوة والجاه تكون ذات سلطة على القبائل المجاورة.

ب_ العوامل الطبيعية والاقتصادية:

تعود جملة من دوافع الصراع القبلي إلى ظروف طبيعية جغرافية بالخصوص، ذلك لأن الجغرافيا التاريخية في المجتمعات ما قبل الصناعية تعّد مسؤولة في جزء كبير على تحديد المستوى المادي والاجتماعي للأفراد والجماعات.[2] وقد صدق بعض الباحثين[3] عندما أكدوا أنه "يجب الاعتراف بأن الأرض بما تقدمه من معلومات هي من بين المستندات التاريخية الأغزر مادة والأبعد عن الخطأ". ويبدو أن للمجال الطبيعي باعتباره مصدرا لوفرة الثروة أو ندرتها نسبة كبيرة في خلق الصراع القبلي الذي يتسبب غالبا في هدر مجهود الإنسان وأمواله، وبالتالي ما ينعكس سلبا عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية.

والواقع أن الريف القسنطيني عاش رهانا دائما مع الطبيعة والاستقرار من أجل تحصيل المعاش، فإذا أمطرت السماء واستقرت الأوضاع زُرعت الأرض وحصل للماشية من الماء والكلأ ما يكفيها، وإن شحت السماء وتدهورت الأوضاع ضعف المحصول أو توقف إنتاجه وتسبب ذلك في ظهور المجاعات وما ينتج عنها من الأوبئة. ويكشف لنا العنتري[4] عن جملة من الكوارث الطبيعية التي لا تكاد تنتهي واحدة إلا و تبدأ الأخرى، كما لو كانت تظهر بشكل دوري ومنتظم، وذلك لإهمال السلطة المركزية للجانب الصحي و"التزامها التقشف والتعصب في عدم دفع المضرة".[5]

إن تلازم مجموعة من القحوط التي توالت على الريف القسنطيني مع الاضطرابات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية،[6] جعلتنا نلتفت إلى أن كرونولوجيا سنوات الجفاف[7]

---

[1] شارل فيرو: المصدر نفسه، ص 50.

[2] محمد أستيتو: الفقر والفقراء في مغرب القرنين 16 و 17م، مؤسسة النخلة للكتاب، جدة، 2004، ص 53.

[3] غلاب السيد، يسري الجوهري: الجغرافيا التاريخية، المكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، 1998، ص 12.

[4] صالح العنتري: مجاعات قسنطينة، المصدر السابق، ص 27.

[5] حمدان بن عثمان خوجة : إتحاف المصفين والأدباء في الاحتراس عن الوباء، تقديم وتحقيق: محمد عبد الكريم، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1968، ص 44_45.

[6] مولاي بالحميسي: سياسة الضرائب بالجزائر في أواخر العهد العثماني، أعمال الملتقى الثالث لتاريخ وحضارة المغرب، الجزء الأول، منشورات ديوان المطبوعات الجامعية، 1983، ص 197.

[7] NACEREDDINE SAIDOUNI: L’Algérois rural à la fin de l’époque ottomane (1791-1830), Beyrouth, Dar Al-Gharb Al-Islami, 2001, ppp 270_ 271_.272.

وما تبعها من مجاعات وأوبئة كافية للقول بأن العنصر الطبيعي الجغرافي أسهم بشكل أو بآخر في صياغة ظاهرة الصراع. ولعلّ تضافر تلك العوامل أسفر عن ظهور وتفاقم مشاكل زعزعت الأسس المادية للفلاحة.[1] كما أن موجات الجفاف الكثيرة أثرت سلبا على الوضع المائي عامة،[2] ولما كانت الحبوب أهم منتوج فلاحي للريف لتأمين المعاش فقد كان فقدانها يعني توقف الحياة بالنسبة للغالبية العظمى، وهذا ما سيخلق بالضرورة نزاعات قبلية حادة حول مصادر المياه مع ضعف استغلال المياه الموجودة آنذاك، وكانت مشكلة الأعالي والأسافل من أشهر القضايا المائية التي أثيرت في مجتمع تلك الفترة.

ولعل ما زاد من حدة الصراع بين أفراد القبيلة الواحدة هو سياسة العثمانيين في فرض الضرائب، وأذكر في هذا الصدد أنه في سنة 1771م كان "أولاد فرقان الفواقة يدفعون ضريبة نقدية تقدر بـــ 300 ريال، في حين أن التحاتة يدفعون 800 ريال".[3] وهذا دليل واضح على أن السلطة المركزية كانت قبل تولي صالح باي تكتفي بجمع المستطاع من المناطق الريفية الوعرة، وهو ما يظهر بوضوح بالفارق الكبير في المبلغ السالف الذكر في القبيلة الواحدة. ومن جهة أخرى كانت سنوات العجاف تزيد من حدة النزاع بين القبائل الرعوية حول المجالات الحيوية لتنقلاتها.

ج_ المحرك السياسي:

الظاهر أن قلة الموارد المادية وندرتها والتنافس على البقاء كلها عوامل جعلت من الريف القسنطيني كيانا منغلقا على ذاته، فصراعه مع الطبيعة من جهة، وتنافسه مع غيره من القبائل من جهة أخرى يستهلك جل نشاطه، لذلك نجد أن علاقته مع السلطة المركزية تتسم في الغالب بالمحدودية، والنتيجة الموضوعية لهذا الانغلاق هو أن المجتمع الريفي يُكوّن وحدة سياسية، اقتصادية واجتماعية،[4] ويشعر شعورا لا سبيل لزعزعته بأن الأرض التي يكسب منها عيشته هي أرضه ما دام يقيم بها ويحتلها، بل أنها تعتبر مقدسة في نظره إلى درجة أنها قضية حياة أو موت بالنسبة للفرد والمجتمع.[5] وغالبا ما تسببت في ظهور

[1] A. BERBRUGGER: "Epoque de l'établissement des turcs a Constantine", R.A, N° 1, Alger, 1956, p 402.
[2] NACEREDDINE SAIDOUNI: OP.CIT, p 272.
[3] الضرائب في بايلك قسنطينة، أرشيف المكتبة الوطنية الجزائرية، مجموعة رقم 1646، 1771م.
[4] محمد العربي الزبيري: التجارة الخارجية للشرق الجزائري، الشركة الوطنية للنشر، الجزائر، 1972، ص 45.
[5] مصطفى الأشرف: المرجع السابق، ص 95.

الفتن والنزاع وإراقة الدماء في حالة الاعتداء عليها من طرف قبائل أخرى لا علاقة لها بهذه الأراضي.[1] ويكفي هنا استحضار الصراع العنيف الذي دام سبعة أيام، بين قبائل الأوراس وقبائل القرفية حول مواطن العيش،[2] ومن هنا تتكون وحدة سياسية تجد تعبيرها في الانتماء المكاني المباشر لمساحة من الأرض تعتبرها موطنا لها.

فالصراع هنا ومهما كانت أسبابه المعلنة فضلا عما يخفيه من تنازع على الخيرات يمثل حيز تعبير عن سياسة المجتمع الريفي الخارجية؛ إذ يعكس موقفه وإرادته في بقائه كيانا مستقلا ومن ثمة فالصراع هنا وسيلة يعتمدها المجتمع الريفي لغاية سياسية.

2_ العوامل الخارجية:

تحمل العوامل التي كانت سببا في الصراع القبلي في طياتها سؤالا يطرح نفسه بإلحاح، ألا يمكن لهذه القبائل أن تستثمر تلك الأعراف التي نظمت من خلالها عملية الصراع فيما بينها في تنظيم ما يدفعها للصراع ضد السلطة المركزية ووضع حلول لضعفها المنفرد؟ والواقع أن كل تلك العوامل وخاصة بعدي العصبية والأرض حين يضمنان عدم انقسام القبيلة، يتضمنان الرابطة السياسية المتمثلة في استبعاد الدخيل الآخر الذي تعبر عنه السلطة المركزية، فالخطر الخارجي الذي من شأنه أن يهدد وحدة الجماعة، سرعان ما يدفع بصورة ديناميكية وفعالة إلى تناسي الخلافات الداخلية، والتكتل لمجابهة السلطة المركزية.

وهذا ما حدث عند تحالف معظم قبائل الصحراء إثر مقتل شيخهم "محمد بن السخري" على يد مراد باي قسنطينة سنة 1638م، حيث وبمجرد وصول خبر اغتيال الشيخ إلى الصحراء اندلعت ثورة بزعامة أخ الضحية "أحمد ابن السخري"، وسرعان ما تحولت هذه الثورة من انتقام شخصي إلى ثورة عارمة اجتمع حولها معظم قبائل البايلك والأسر المتنفذة أمثال أسرتي الحنانشة والنمامشة وغيرهما.[3] وكذا تحالف قبيلتي النمامشة والحراكتة سنة 1797م وتمردهم على الحكم المركزي[4].

---

[1] فلة القشاعي: الريف القسنطيني اقتصاديا واجتماعيا...، المرجع السابق، ص 258.

[2] المرجع نفسه، ص 256.

[3] جميلة معاشي: "مشيخة العرب والسياسة العثمانية ببايلك قسنطينة، مجلة كلية الدراسات الاسلامية والعربية"، مجلة علمية محكمة، العدد 35، الامارات العربية المتحدة، دبي، 2008، ص ص 425_428.

[4] ERNEST MERCIER: Histoire de Constantine, éd Braham, Constantine, 1903 , p 303.

كما أن ندرة الموارد وعدم تكافئها والإجحاف في جمع الضرائب وما تبعه من رغبة الأرياف في استقلال كيانها هو على جانب كبير من التوتر، الذي يكفي ليجعل رجلا واحدا كابن الأحرش سنة 1804م، يجمع حوله آلاف المتذمرين من سياسة السلطة المركزية ويُحولهم بسرعة إلى مقاتلين معبرين على استيائهم من السياسة الجبائية الجائرة التي انتهجها السلطة المركزية آنذاك، ليخوض بهم صراعا عنيفا ضدها فكان لتكتل القبائل الشمالية في هذا الصراع فتنة كبيرة بالبايلك[1].

ومن دون شك، أن أهم ما يستدعي تكتل هذه القبائل وتوحدها هو إحساسها الجماعي باستبداد البايات الأواخر الذين بالغوا في إخراج المحلات لاستخلاص المغارم وما يتبعه من الظلم ونهب في الأموال،[2] فكثيرا ما كان سبب ذلك الصراع الذي جمع الريف بالسلطة المركزية راجعا إلى السياسة الجبائية التي اتبعها البايات أثناء جمعهم للضرائب من السكان.[3] كما هو الحال عند قبائل سكان بجاية الذين يكّدون في العمل من أجل توفير الحبوب التي تساعدهم على المعيشة، وبالتالي فهم دائما في مطاحنات مع الأتراك.[4] فضلا عن سكان البابور وجيجل والقل وغيرهم من الذين لا يدفعون الضرائب إلا بعد تجريد الحملات العسكرية[5].

كما أنه وفي الوقت الذي كان فيه ابن الأحرش يقوم بدعوته ويروّج لها في أوساط قبائل ناحية جيجل سنة 1802م كان باي قسنطينة مصطفى أنجلير يقوم بقمع ومصادرة قطعان قبيلتي النمامشة والحنانشة،[6] هذه الأخيرة التي كانت تتزعم معظم القبائل الشرقية القسنطينية.[7]

وعلى صعيد آخر، فلا شك أن استمرارية بحث السلطة المركزية عن تحالفات مساعدة، بتشجيع طرف على حساب آخر، ومنح الكثير من الاقطاعات والامتيازات للقبائل الحليفة من أجل جمع الضرائب التي فرضتها نهاية الفترة، قد استهلك كثيرا من أموالها،

---

[1] "Notes chronologiques pour l'histoire de Constantine", R.A, N° 39,Aléria, 1895, p165.

[2] الشريف الزهار: المصدر السابق، ص 35.

[3] BOYER: "Contribution à l'étude de la politique religieuse des turcs dans la régence d'Alger", R.O.M.M,N°1,1966;p48.

[4] E. Daumas: : La Kabylie, Éditeur : L. Hachette , Paris, 1857, p 09.

[5] A.M.G: H227, Notice sur la Province de Constantine.

[6] علي خنوف: تاريخ منطقة جيجل قديما وحديثا، منشورات الأنيس، الجزائر، 2007، ص 71.

[7] CH.FERAUD: "Notes historiques sur les tribus de la province de Constantine (les Amamra)", in R.S.A.C .1868., p231.

لذلك كان لِزاما عليها الاصطدام بالريف لتعويض نفقاتها العسكرية. ويمكن استحضار العطايا التي كانت تجود بها على المرابطين والفقهاء وشيوخ القبائل المقربين في إطار ما سماه ابن خلدون بأسلوب الاشتراك المنفعي.[1] إضافة إلى أنه من الطبيعي أن تكون الأموال التي أنفقتها السلطة المركزية على الجيش ضخمة وذات قيمة كبرى، بل قد لا نبالغ إذا قلنا أنها شكلت أهم أوجه صرف ميزانية الدولة خاصة في هذه المرحلة التي أصبحت فيها الحاجة إلى المجندين ضرورة ملحة وحيوية لكل باي لتدبير صراعاته وضمان استمراريته في الحكم.

[1] عبد الرحمن ابن خلدون، المصدر السابق، ص 135.

ثانيا_ سياسة بايات قسنطينة في أرياف البايلك.

إنّ ما تعرضنا له في المبحث السابق يُلزمنا طرح تساؤلات كثيرة حول ما إن كانت بالفعل تلك هي محركات الصراع الحقيقية أم أن هناك أمورا أخرى كانت تتتبع مجريات الأحداث، وتزيد من حدة تلك الصراعات؟ وعن السياسة التي انتهجها البايات وعلى رأسهم صالح باي في أرياف قسنطينة.

يُعد صالح باي[1] من أهم البايات الذين حكموا بايلك قسنطينة لما أظهره من دهاء وحنكة في تلك الفترة. ويؤكد كاثكارت أنه "أغنى البايات الثلاثة[2] ويتمتع بصلاحيات لا حد لها"،[3] فقد انتهج سياسة محكمة مبنية على المزج بين القوة العسكرية والصرامة الإدارية والقانونية في علاقته مع السكان سواءً بالمدينة أو الريف،[4] فعمل على تطويع مناطق البايلك بقوة السلاح تارة والبحث على الأنصار تارة أخرى، واتجه إلى البناء والتعمير مما مكنه من السيطرة الفعلية على مقاطعته.[5]

والواقع أن هذه السياسة كانت من متطلبات استمرارية السلطة في مختلف الولايات العثمانية بتلك الفترة، وهذا ما أشار له المؤرخ المصري عبد الرحمن الجبرتي[6] الذي يرى أنه:" لولا قهر الحكام وسطوتهم لتسلط القوي على الضعيف والدنيء على الشريف". من

---

[1] ولد صالح باي في مدينة أزمير بتركيا سنة 1737 م، وفي سن 16 تسبب في مقتل أحد أقربائه، هرب إلى الجزائر حتى يتفادى العقاب، اشتغل في أحد مقاهي مدينة الجزائر، التحق بفرقة الميليشيا العسكرية للعمل بها ثم بُعث إلى قسنطينة واشترك في حملة الباي زرق عينو ضد تونس وأبدي شجاعة أثارت انتباه احمد القلي فقربه إليه وزوجه ابنته، ثم لما أصبح على رأس البايلك عينه قائدا على عرش الحراكتة لثلاث سنوات ثم خليفة للباي لست سنوات، ولما توفي الباي أحمد القلي عُين على رأس البايلك. أنظر: صالح العنتري: فريدة منسية، المصدر السابق، المحقق، ص79.

[2] وهو ما تؤكده عقود الملكية الموسومة بالأوقاف والمسجلة باسمه بأرشيف ولاية قسنطينة والمتكونة من 75 وقفية. أنظر: سجل صالح باي للأوقاف(1185_ 1207هـ/1771_ 1792م)، تقديم وتحقيق: فاطمة الزهراء قشي، تصدير: عبد الجليل التميمي، دار بهاء الدين للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009.

[3] كاثكارت (أسير الداي): مذكرات قنصل أمريكا في المغرب، ترجمة وتعليق وتقديم: إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1982، ص 118.

[4] جميلة معاشي: الانكشارية والمجتمع ببايلك قسنطينة في نهاية العهد العثماني، رسالة دكتوراه العلوم في التاريخ الحديث، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة قسنطينة، قسم التاريخ والآثار، 2008، ص 255.

[5] فاطمة الزهراء قشي: قسنطينة في عهد صالح باي البايات، منشورات ميديا بلوس، قسنطينة، 2005،ص 72.

[6] عبد الرحمن حسن الجبرتي: عجائب الآثار في التراجم والأخبار، تحقيق: عبد الرحيم عبد الرحمن، تقديم: عبد العظيم رمضان، ج1، مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ص15.

هذا المنطلق انتهج صالح باي سياسته المتشددة في الحكم، وحرص بشدة على عدم ولوج فكرة الخروج عن حكمه لأذهان رعاياه.[1]

فلا شك إذن أن تمركز صالح باي في السلطة بداية من 1771م قد اقترن بتغيير كبير في السياسة المتبعة تجاه الأرياف، خاصة إذا علمنا أن فترة صالح باي قد تزامنت مع تراجع الأسطول البحري واختلال توازنه أمام الأساطيل الأوربية، ما أدى بالسلطة المركزية إلى التوجه نحو الداخل لتعويض النقص الذي تسبب فيه هذا التراجع. وذلك بزيادة الضرائب على الأرياف واستعمال القوة، إن كان ذلك ضروريا، لجبايتها، ومنذ ذلك الحين اتبع البايات الأواخر سياسة جديدة تتماشى مع الأوضاع المعيشة في تلك الفترة نذكر منها ما يلي:

1°_ تنصيب عشائر المخزن في الأماكن المهمة بالإقليم:

لا ريب أن الحكم العثماني في الجزائر استمر على أساس تواجد قبائل المخزن إلى جانب الإنكشارية في مختلف مناطق الإيالة، ولا تعوزنا الدلائل التي تثبت ذلك، ففضلا عن النصوص التي تكشف عن ذلك الجمع شبه الدائم بين الانكشارية وقبائل المخزن في مجمل تحركات المحلات خلال الحروب أو الثورات الداخلية أو عملية جباية الضرائب، تتحدث نصوص أخرى عن أهمية إعلان المخزن على غرار الانكشارية تبعيتهم لأي باي أثناء استلامه مقاليد الحكم، لدرجة يمكن القول فيها أن إقرار باي ما في السلطة مرتبط بتبعية هاذين الطرفين، وقد ذهب "*Esterhazy*"[2] إلى القول أنّ قبائل المخزن قوة مأخوذة من الجزائر لحكم الجزائر.

لذلك اقتطع البايات لقبائل المخزن أراضي صالحة للزراعة والرعي، فحصل المخزن على اقتطاعات تشتمل على مراعي واسعة لممارسة تربية الحيوانات،[3] لتتمكن من حراسة الممرات الجبلية منها التي بنواحي باتنة لمراقبة كتلة بلزمة الحصينة، ومخزن السحاري التي تحرس الجهات الشمالية والشرقية لبسكرة،[4] كما تستقر في سهل عين مليلة

---

[1] ERNEST MERCIER: Histoire de Constantine, OP.CIT, p272.

[2] M. WALSIN ESTERHAZY: De la Domination turque dans l'ancienne régence d'Alger, Éditeur : C. Gosselin, Paris, 1840, p25.

[3] MOULOUD GAID: OP. CIT, p 140.

[4] ناصرالدين سعيدوني: ورقات جزائرية دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2000، ص 479.

فرقة الزمالة، التي أقطع لها صالح باي مساحات شاسعة من الأراضي الصالحة للزراعة قدرت بحوالي 4000 هكتار.[1] إضافة إلى الدواوير منها دائرة الخليفة التي تتكون من 200 فارس وتنشط في أحواز قسنطينة، دواير الخروب وأولاد رحمون، ودواير الأغا التي تنتشر في فرجيوة وتتكون من 1000 فارس،[2] وفرق "زواوة" التي تقطن بمنطقة جرجرة، وقد كانت تتحصل على نصف أجر الإنكشاري مقابل خدماتها، حيث قدرت التشريفات أجرها بزياني واحد مقابل 2 زياني للإنكشاري.[3] كما نجد أن مخزن الحراكتة وقايد العواسي من أهم القوات المخزنية بالبايلك، ويمكن أن تصل قواتها إلى 4000 فارس،[4] وهم موزعون في النقاط الحصينة كطريق الشرق نحو قسنطينة التي تتمركز في بعض جهاتها الوعرة قبائل المخزن كالزواتنة وابن هارون.[5] كل هذه الفرق وغيرها كان تنصيبها بهدف مراقبة السكان والحيلولة دون اندلاع الثورات التي قد يكون فيها خطر على سلطة البايلك.

2°_ سياسة تدعيم المشيخات الوراثية والمصاهرة:

لقد جاء في مختلف الخطابات الرسمية والفرمانات السلطانية منذ دخول الأتراك إلى قسنطينة، وجوب احترام القوانين المحلية والإبقاء على سيادة أمراء القبائل وشيوخها تفاديا للصدام معهم، وهو ما عبر عنه فرمان السلطان سليم الثاني(1566_ 1574م) إلى البيلرباي أحمد الشاوش بسطانجي (1563_1576م) سنة 1574م، يأمره فيه بعدم المساس بسيادة أحد شيوخ القبائل بشرق البلاد.[6] ولم يتوقف الأمر عند هذه التوصيات، بل يذهب ابن العطار إلى القول: "أن الباي إذا أتته خلعة الولاية من الجزائر يلبسها هو الأول ثم يبعث بها إلى شيخ العرب، وبعده إلى شيخ الحنانشة، ويُعرف وظيف الحنانشة بوظيف القفطان لأن ولايتهما كولاية الباي"[7].

---

[1] فلة القشاعي: النظام الضريبي، المرجع السابق، ص 135.

[2] جميلة معاشي: الانكشارية والمجتمع...، المرجع السابق، ص 84.

[3] ALBERT DEVOULX : Tachrifat, Recueil de notes historiques sur l'administration de l'ancienne Régence d'Alger, Imp. Du gouvernement général, Alger, 1852, p 31.

[4] LOUIS RINN: OP . CIT , pp 139_140

[5] N. ROBIN: OP.CIT, p134.

[6] جميلة معاشي: "مشيخة العرب ..."، المرجع السابق، ص419.

[7] أحمد ابن العطار: المصدر السابق، ص ص 56_ 57.

ومن هنا يمكن أن نفسر تلك السياسة الرشيدة التي استطاع بها الأتراك المحافظة على حكمهم بالجزائر لمدة تزيد على 300 سنة، ونستنبط العلاقة التي كانت تربط السلطة المركزية بهذه المشيخات، والتي تربطها المصلحة المشتركة بالدرجة الأولى، حيث توفر هذه المشيخات قوة عسكرية لجباية الضرائب وحفظ الأمن مقابل امتيازات تحظى بها خلافا على بقية الشرائح الإجتماعية الأخرى.

ونذكر من هذه المشيخات مشيخة أولاد بوعزيز بجهات بلزمة إلى الشرق من بريكة، ومشيخة أولاد بوضياف بالأوراس، ومشيخة العرب "بن زكري وبن قانة" بالزيبان، ومشيخة قصر الطير بالهضاب العليا الغربية وغيرها.[1] وقد كانت هذه العائلات وغيرها تتقاسم قيادة البايلك مع السلطة المركزية تقريبا، حيث تشرف على تسيير شؤون الغالبية الساحقة لقبائل الشرق، فصالح باي مثلا لم يكن يستطيع أن يثبت في الحكم لمدة طويلة إلا عن طريق التعامل مع هذه الأسر خاصة في بداية عهده.[2]

كما لجأ الأتراك أحيانا كثيرة إلى المراهنة على سياسة المصاهرة مع بعض القبائل الفاعلة والقوية في المجتمع الريفي قصد احتواء خطرها وتوظيفها في ضرب القبائل المناوئة لنظام الحكم.[3] والظاهر أن المصاهرة قد شكلت أهم وسيلة لعقد التحالف باعتبار أن علاقات القرابة في مثل هذه المجتمعات هي الوسيلة الفُضلى لضمان نجاح الحلف وتوثيق عُقده، وإن كنا نعتبر أن القرابة هنا لا تكفي إلا إذا كانت المصلحة مشتركة بين الطرفين، ومرتبطة بمدى ما يمكن أن تحصل عليه القبائل من هذا الحلف وتمثل أسرة ابن جلول التي صاهرها صالح باي خير مثال لذلك حيث ورث ثروته ومكانته.[4]

وكيفما كان الحال، فقد كانت علاقات المصاهرة تكتسي في مثل هذه الحالات صبغة سياسية تهدف من ورائها السلطة المركزية إلى تصدير الصراع إلى الأرياف التي لا تدخل في نطاق تلك التحالفات. وإذا أردنا أن نقدم مثالا لذلك ألفينا محاولة صالح باي مصاهرة شيخ قبيلة الحنانشة لإخضاع هذه القبيلة التي وصفها العدواني بلسان أهلها " أنها

---

[1] ناصر الدين سعيدوني: ورقات جزائرية... ، المرجع السابق، ص 480.

[2] صالح فركوس: الحاج أحمد باي قسنطينة 1826_1850، ديوان المطبوعات الجزائرية، الجزائر، 2007، ص 47.

[3] السعيد قاصري: المرجع السابق، ص 7.

[4] جميلة معاشي: الانكشارية والمجتمع...، المرجع السابق، ص 255.

ذات بأس شديد ومنيعة من الأعداء".[1] لكن، "إبراهيم بن بوعزيز" رفض طلبه مما أدى إلى غضب الباي وشنه العديد من الحملات على القبيلة[2].

ومن هنا يثبت لدينا أن المصاهرة سلاح ذو حدين، فإذا كانت الحكمة التي تؤطر مثل هذه التحالفات تقتضي أنه إذا كان هناك أعداء فينبغي تحويلهم إلى أصهار وبالتالي إلى حلفاء، فإن صلات القربى والمصاهرة لا يمكن أن تقوم بالدور الذي من أجله عقدت إلا إذا ارتبطت بالمصلحة المشتركة، وهو ما يفسر حرص أحمد باي على تقسيم المناصب على أصهاره من أسرة ابن قانة بالزيبان[3].

3°_ السعي للحصول على تأييد ومساندة شيوخ الزوايا والمرابطين:

لا شك أن المرابطين وشيوخ الزوايا وظاهرة التصوف وما يليها من الولاية والصلاح، تُعد من أبرز الظواهر الاجتماعية التي عرفها المجتمع الريفي على وجه خاص، حيث أضحت قوة اجتماعية وسياسية اكتسحت النسيج الاجتماعي وفعلت فيه فعلتها. كما كان لها الأثر العميق في مجرى الحياة اليومية للفرد الريفي خلال هذه المرحلة، وذلك نتيجة لشروط وظروف اجتماعية وتاريخية وفرت لها الأرضية الملائمة للنمو والتجذّر، خاصة منها ظروف الصراع التي يشتّد معها عود المرابطين ويترسخ أكثر خلال الأزمات[4].

وقد وُفق الحكام في سياستهم الدينية في بداية الأمر، لكن الأمر اختلف بعد تولي صالح باي لأمور البايلك، حيث تأرجحت علاقة الأتراك بالمرابطين بين سياسة الترغيب والترهيب. أما الأولى فتمثلت في التقرب من المرابطين وشيوخ الزوايا ومنحهم امتيازات مقابل دعمهم، حيث يرى *"Féraud"*[5] أنه بمصانعة كبرياء هذه الشخصيات الدينية، بواسطة هدايا ومجاملات مفخمة وإقطاعات، كان الأتراك يصنعون حلفاء أوفياء، فمؤازرتهم مفيدة جدا لكبح روح الانفصال والحد من تمردات القبائل في نفس الوقت.

---

[1] محمد بن محمد بن عمر العدواني: تاريخ العدواني، تقديم وتحقيق وتعليق: أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، الجزائر، 2005، ص 202.

[2] CH. FERAUD: "Les Harar, seigneurs des Hanencha", R.A , N°18, Alger, 1874, p357 .

[3] صالح فركوس: الحاج أحمد باي،المرجع السابق، ص 48_49.

[4] عبد اللطيف الشاذلي: التصوف والمجتمع نماذج من القرن العاشر الهجري، سلا، 1989، ص70.

[5] شارل فيرو: تاريخ جيجلي، المصدر السابق، ص 137.

وقد كثرت أوقاف الأولياء عن طريق تشجيع الحكام ورعايتهم بدافع الورع والتقوى والتقرب إلى الله من جهة، وضمان مآزرة المجتمع الريفي في حروبهم من جهة أخرى، كالنذر الذي تعهّد به حسين بن صالح باي قسنطينة سنة 1807م للشيخ سيدي علي العريان قبل مواجهته لحملة حمودة باشا، والذي جاء فيه:" ليعلم من يقف على أمرنا هذا من المشايخ والأعلام...أننا أشهدنا على أنفسنا والتزمنا التزاما كليا بحيث لا تسعنا المخالفة عليه، وهو أن قدمنا إلى تونس بمحالنا وعساكرنا وسهل الله أمرها علينا وأخذناها فالشيخ (كذا) سيدي علي العريان والسيد محمد بن سي سعيد ما يحتاجوه منا من بناء دار تكون بقربه وإصلاح مسجده ونجعلوا له أوقافا معلومة يستعينون بها على الطلبة وضيافة الغرباء والواردين، فعليهم بالإعانة لنا بدعائهم الصالح... أوائل ربيع الثاني 1222هـ "[1].

أما سياسة الترهيب فتمثلت في معاداة بعض شيوخ الزوايا، فالكثير من البايات الأواخر وابتداء من صالح باي أصبحوا يتجاهلون المرابطين وشيوخ الزوايا، ويعتمدون أكثر على الجوّاد والعائلات الإقطاعية في إدارة القبائل الريفية،[2] في الوقت الذي جرّدوا فيه بعض العائلات المرابطية من الامتيازات القديمة، كالإعفاء من دفع الضرائب، وحرمانهم من العطايا، وهذا ما فعله صالح باي مع المرابط سيدي محمد الغراب وسيدي أحمد الزواوي، الذي أمر بنهب أمواله الموجودة بالزاوية وبعدها إحراقها،[3] كما قام عثمان باي أيضا بتجريد المرابط عبد الله بن محمد الزبوجي من امتيازاته[4].

4°_ سياسة فرق تسد:

يذهب الحاج أحمد باي في مذكراته إلى القول:" أن الحرب بين القبائل تخّرب البلاد وتسهل السيطرة على من كانوا بعيدين عن السلطة"،[5] من هذا المنطلق عمل البايات على تجسيد سياسة فرق تسد في الأرياف القسنطينية بإثارة الأحقاد والضغائن وتعميق الهوة بين القبائل وحتى بين أفراد القبيلة الواحدة، وذلك بتحريضهم لطرف ضد طرف آخر من أجل

---

[1] CH. FERAUD: "Un Vœu D'Hussein Bey de Constantine 1807", R A, N° 7, Aleger, 1863, pp 91_92

[2] علي خنوف: تاريخ جيجل...، المرجع السابق، ص 71.

[3] جميلة معاشي: الإنكشارية والمجتمع...، المرجع السابق، ص 106.

[4] ERNEST MERCIER: Histoire de l'Afrique septentrionale (berbérie) depuis les temps le plus regules jusqu'à la conquête française 1830, Paris,1888, p 310

[5] مذكرات الحاج أحمد باي ...، المصدر السابق، ص41.

الانقضاض على خصومهم بعد عزلهم عن حلفائهم،[1] كما فعل ذلك صالح باي لما عزل الشيخ "عبد الله بالعباس" بالقالة وعين مكانه ابنه علي باي،[2] وأيضا الحاج أحمد باي الذي عزل الشيخ "مقورة بن عاشور" في فرجيوة بسبب عدم أداء العوائد الواجبة عليه وعين ابن عمه مكانه،[3] ثم قضى على "الشيخ مقورة" باعتباره أحد المتمردين بفرجيوة[4].

هذا، وقد عَمِدَ البايات إلى زرع الخلافات بين القبائل المجاورة بإغراء قبيلة لإحكام السيطرة على قبيلة أخرى عندما يستعصى عليهم الأمر، مثلما فعل الباي مصطفى الوزناجي في حملته على أولاد بوعون بالأوراس، حيث يصف لنا صاحب مخطوط بايات قسنطينة[5] بدقة تلك الحيلة التي لجأ إليها الباي للإيقاع بهم قائلا:" أن الباي قدم عليهم بمحلة بمحلة عظيمة من عسكر وقومان[6] وحشود من العربان وأحاط بذلك الجبل من كل ناحية ولم يقدر عليهم، فلما أن تحقق له عدم القدرة عليهم ولو لهم هناك شهران أو ثلاثة إشتغل بالحيلة...ودخل عرش قريبا منهم يقال لهم "الحليمية" وأعطاهم العطاء الكثير، وبعدها اتفق رأيهم على أن يكونوا لهم (كذا) ليلا قائلين لهم نحن وآبائكم أحباب، والذي يضركم يضرنا وهذا الباي أحاط بكم وأراد قتلكم ونهب أموالكم، وان كنتم تريدون النصر نبعث لكم مئتا رجل يعينكم في العسة والطرد، فأجبوه لذلك وتشكروا فضلهم فلما حل الليل ذهب لهم المئتي رجل وبعد طلوع الفجر فتحوا باب القرية للباي ومحلته وهجموا عليهم هجمة واحدة، ورغم صمود أولاد بوعون وقتلهم للكثير من الأتراك إلا أن الغلبة كانت للباي وحلفاؤه فمات منهم خلق كثير ولم ينج منهم إلا القليل".

وبالمثل فعل الباي "مصطفى إنجليز" عندما فشل آغا الدايرة المكلف من قبله بشنّ حملة على أولاد علي بن يحي العواسي في الحنانشة، بتسليط أولاد سي يحي بن طالب

---

[1] LOUIS RINN: OP.CIT, p126.

[2] رسالة من صالح باي إلى وكيل الباستيون، أرشيف المكتبة الوطنية الجزائرية، مجموعة رقم: 1641، وثيقة رقم: 61، 1778م.

[3] رسالة من الحاج احمد باي الى حسين باشا، أرشيف المكتبة الوطنية الجزائرية، مجموعة رقم: 1642، وثيقة رقم: 20، 15 محرم 1243هـ/ 1827م.

[4] رسالة من الحاج احمد باي الى حسين باشا، أرشيف المكتبة الوطنية الجزائرية، مجموعة رقم: 1642، وثيقة رقم: 28، 19 محرم 1244هـ/ 1828م.

[5] مؤلف مجهول: المصدر السابق، ص 58.

[6] **القوم:** هي قوات اضافية محلية كانت توفرها القبائل للبايلك عند الحاجة. أنظر جميلة معاشي: الأسر المحلية...، المرجع السابق، ص 248.

بزعامة شيخهم "يونس" الذي يتميز بشجاعة كبيرة ومهارة في الحرب على الثوار والعصاة، وهم مجاورون لهم في السكن فأغاروا على الحنانشة وقتلوا لهم شيخهم أحمد بن بوعزيز، وأخاه وأرسلوا رؤوسهم إلى قسنطينة.[1] وبالتالي يمكن القول بأنه إذا كان الهدف من وراء سياسة المصاهرة هو تصدير الصراع للريف كما رأينا سابقا، فإن الهدف من وراء سياسة فرق تسد هو زيادة حدة ظاهرة الصراع وتكريسها بالأرياف القسنطينية من أجل إحكام السيطرة عليها أكثر.

5°_ شن الحملات الانتقامية المفاجئة:

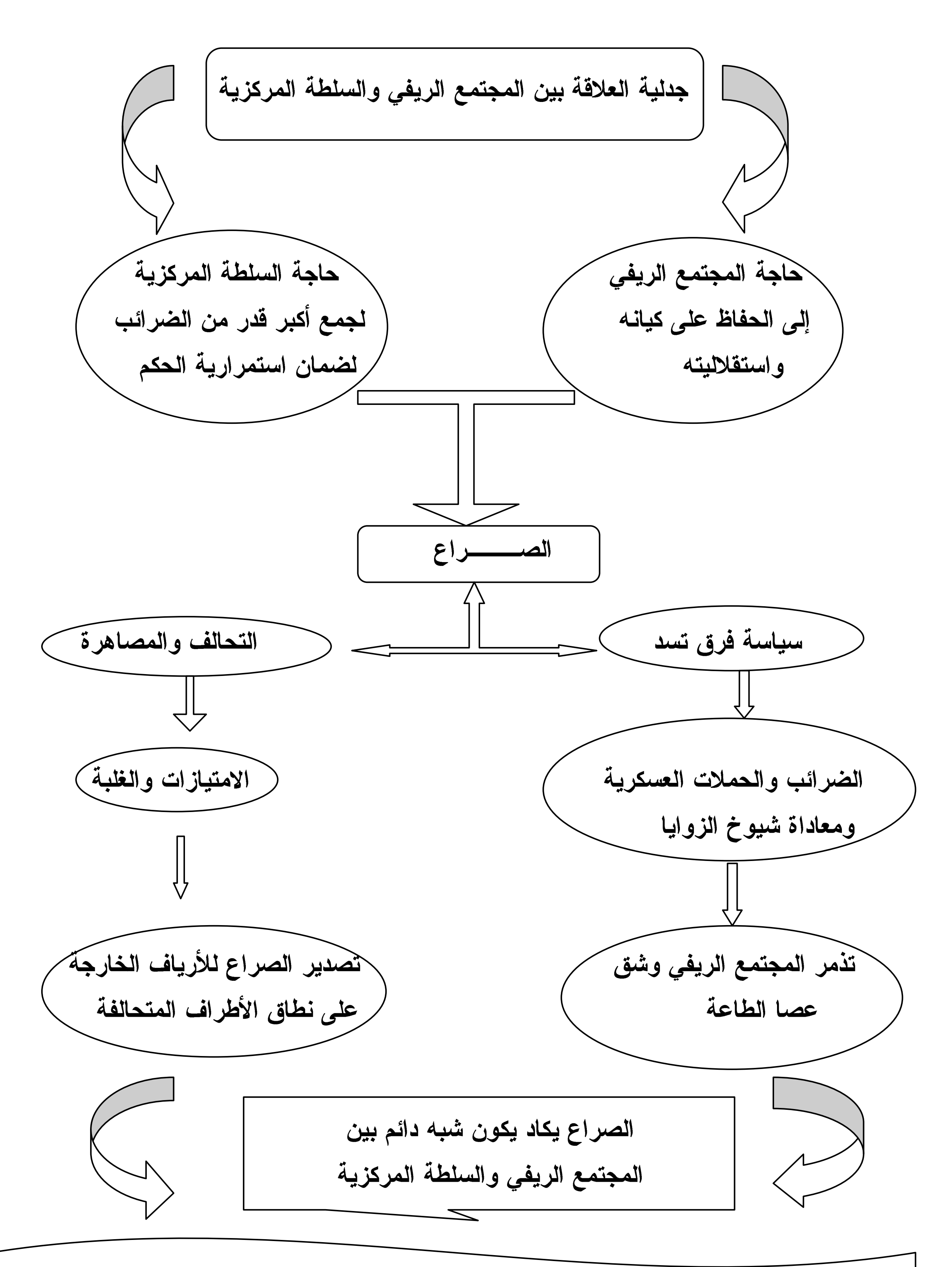
كانت بعض القبائل لا تدفع الضرائب إلا تحت الضغط والإكراه، ولهذا يلتجئ الحكام إلى إرسال الحملات التأديبية لإرغام السكان في حالة العصيان والتمرد على دفعها. وتعتمد هذه الحملات على قبائل المخزن التي تدعم الفرقة التركية، التي لا يتجاوز عدد أفرادها في أغلب الأحيان 270 جنديا، بأعداد وفيرة من الفرسان، وقد أدى ذلك إلى تكوين قوة ضاربة يتراوح عدد رجالها بين 500 و1000 رجل على رأسهم الباي والأغا. وتُعتبر هذه الحملات أداة فعالة لتنفيذ عمليات المصادرة واكتساب الغنائم التي ينال فيها كل مشارك نصيبا محدودا منها؛ فلقائد المحلة أو الباي ثلثا الغنائم ولفرسان المخزن الثلث الباقي فضلا على التشجيعات التي يتلقونها مقابل النتائج المتحصل عليها[2].

إذن، بقدر ما فضلت مجموعة من القبائل أداء الضرائب لشراء سِلمهم مثل قبائل الرعية، فضل البعض الآخر أداء هذه الضرائب مرغما بعد صراع مرير مع السلطة المركزية. والواقع لم تكن هذه الضرائب مجرد إتاوة للسلطة الحاكمة فقط، لكنها في العمق ضريبة صراع تؤديها القبائل المغلوبة على أمرها لتجنب الحملات المفاجئة. وسنتطرق لأهم تلك الحملات في الفصل الموالي بإذن الله، وفيما يلي نحاول إدراج مخطط توضيحي يلخص سياسة السلطة المركزية في تكريس ظاهرة الصراع داخل الأرياف القسنطينية.

---

[1] صالح العنتري: فريدة مؤنسة...، المصدر السابق، المحقق، ص ص 87_88.

[2] أهم هذه التشجيعات ينالها الفارس عندما يستظهر برأس قتيل من الأعداء، أو يغنم ببندقية أثناء المعركة ففي الحالة الأولى ينال منحة تقدر بـــ 30 ريال "60 فرنك"، وفي الحالة الثانية يتلقى مكافأة بـــ 10 ريال "20 فرنك" بينما الخيل تعود للدولة والملابس وأمتعة القتلى يحتفظ بها فرسان القبائل الحليفة. أنظر، ناصر الدين سعيدوني: النظام المالي للجزائر في الفترة العثمانية 1800_1830، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1979، ص 122.



مخطط تقريبي يوضح سياسة الدولة العثمانية في تكريس ظاهرة الصراع في الريف القسنطيني.

المصدر: المخطط من وضع الباحثة.

ثالثا_ النظام الضريبي في الريف القسنطيني.

إذا كانت كتب الفكر السياسي[1] التي أُنجزت تتفق على أهمية المال بالنسبة للدولة وبقائها، فقلما نجد فيها من تصور آخر لمصدر هذا المال غير الرعية، ولوسيلة جمعه غير الجباية؛ إذ لا مال إلا من جباية. فالضريبة من أهم المصادر المالية للدولة نظرا لضخامة الأموال التي توفرها للخزينة العامة، وتُعرف بأنها فريضة مادية إلزامية يلتزم الفرد بأدائها للدولة حيث تقتطعها الدولة أو من ينوب عنها من الأفراد جبرا.[2] ويذهب *Noushi*[3] إلى اعتبار الضريبة أساس كل نظام مالي واقتصادي في الجزائر العثمانية.

هذا، وقد عانى اقتصاد الايالة الجزائرية أواخر العهد العثماني من التذبذب المستمر، ففي الوقت الذي اختل فيه توازن الأسطول البحري الجزائري أمام الأساطيل الأوربية، زادت فيه مطالب البايات الذين اشتهر معظمهم بالجشع والتبذير، إضافة إلى نقمة الجهاز الإداري على شح عائداتهم المالية.[4] ولعل ما زاد الأمر سوء هو مطالبة الداي بمبالغ خيالية لا يكاد البايلك استيعابها،[5] والتي قدرتها التقارير الفرنسية بحوالي 340000 ريال[6]. فالداي لم يكن يهمه غير رفع قيمة الدنوش برفع الباي من الضرائب المفروضة.[7] وقد أشار *Peyssonnel* إلى أن بقاء الباي في منصبه مرهون بتوفيره قيمة الضرائب المفروضة عليه للداي،[8] بل أن سلطة الباي وحياته أيضا متوقفة على مدى استطاعته في اشباع جشع الداي وحكومته[9].

ناهيك عن انتشار الأمراض والأوبئة[10]، وتعدد الكوارث الطبيعية، كل هذه الظروف جعلت سلطة البايلك تتوجه بأنظارها نحو الداخل مجبرة سكان الأرياف على دفع أنواع عديدة من الضرائب الشرعية منها والمستحدثة، والتي استحدثها البايلك بغض النظر عن

[1] عز الدين العلام: السلطة والسياسة في الادب السلطاني، الدار البيضاء، 1991، ص ص145_147.

[2] عبد السلام العبادي: الملكية في الشريعة الإسلامية، ط.2، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، ص 285.

[3] NOUSHI: OP.CIT, p 102

[4] فلة القشاعي: النظام الضرائبي...، المرجع السابق، ص 81.

[5] NOUSHI: OP.CIT, p 110.

[6] A.M.G: H227, Notice sur la Province de Constantine.

[7] VENTURE DE PARADIS: Alger au XVIII siècle, Alger, 1898, p 127.

[8] PEYSSONNEL: T2, OP.CIT, p292.

[9] وليام شالر: المصدر السابق، ص 46.

[10] تجدر الاشارة هنا إلى أن البايات كانوا إذا ظهرت المجاعات والأوبئة في منطقة من مناطق البايلك يخففون من عملية الجباية في تلك المنطقة ويزيدونها ويتعسفون في جمعها من المناطق الريفية الأخرى.

الأحوال المعيشية لهذه الشريحة الاجتماعية التي زادت سوءا مع اتساع سلطة البايلك، وكثرة النزاعات العشائرية التي تضخمت بفعل سياسة الحكام، والحملات العسكرية المتكررة والفتن الداخلية[1] ومن تلك الضرائب نذكر:

أولا_ الضرائب الشرعية:

وهي تلك الجبايات التي تمس الإنتاج الزراعي والثروة الحيوانية بالريف، وتخضع لأحكام الشريعة الإسلامية، وتتمثل أساسا في ضريبتي العشور والزكاة التي تعتبر من التكاليف الشرعية القديمة. وكانت العشور تستوفي على المحاصيل الزراعية، وتحدد حسب الزويجات أو الجابدات،[2] حيث فُرض على كل محراث يجره ثوران حمولة بعير من القمح وأخرى من الشعير.[3] ويشرف عليها قائد جبري يقوم بجولتين في قطاعه احداهما في الخريف والأخرى بعد الحصاد لتقدير المحاصيل، وتحدد الكمية حسب أهمية هذه المحاصيل،[4] وذلك بحضور قائد القبيلة وشيخ الدوار والفلاح المعني بالأمر،[5] وقد قُدر عدد الجابدات في تقرير فرنسي ببايلك قسنطينة بـــ 12726 جابدة بمقدار 173247 ريال بوجو.[6] فهي تشكل مداخيل أساسية للبايلك لأن ثلث الأراضي الزراعية كانت ملكيات خاصة تخضع لهذا النظام وتوفر لمخازن الدولة كل سنة 20762 قيسة من القمح والشعير،[7] وقد ارتبطت هذه الضريبة بدفع أجور الجهاز الإداري والأعمال الخيرية.[8]

أما الزكاة فهي ضريبة شرعية تجب على المواشي بأنواعها كالأغنام والجمال والأبقار، فتأخذ رأسا عن عشرة من الأغنام، وجملا عن خمسة وعشرين جملا، وبقرة عن ثلاثين بقرة،[9] لكنها أضحت تخضع لقدرة وإمكانية أصحاب القطيع، فلا يُلتزم فيها بالنسبة ولا تُؤخذ بالنصاب المحدد لها. فتوسع فيها متولو الجباية بحيث أصبحت تُؤخذ على ما

---

[1] CH. FERAUD: "Revenus de la province", R.A.,N°3, 1858_1859,p 115.

[2] **جابدة:** هي أرض زراعية يحرثها ثوران وهي ما يوازي 8 او 10 هكتارات.

[3] حمدان بن عثمان خوجة: المرآة، المصدر السابق، ص 144.

[4] A.M.G: H227, Notice sur la Province de Constantine.

[5] ناصر الدين سعيدوني: النظام المالي ...، المرجع السابق، ص 89_90.

[6] A.M.G: H227, Notice sur la Province de Constantine.

[7] ناصر الدين سعيدوني: دراسات تاريخية في الملكية والوقف والجباية، الفترة الحديثة، ط1، دار الغرب الاسلامي، بيروت، 2001، ص 323.

[8] حمدان بن عثمان خوجة: المرآة ، المصدر السابق، ص 143.

[9] ESTERHAZY: OP.CIT, p 276.

يُوفره القطيع من صوف وزبدة وجلود، وبعض المنتجات النوعية كالعسل والشمع والتمر، ولعل هذا التوسع في ضريبة الزكاة هو الذي جعلها تُعرف بأسماء المواد الأولية التي تستخلص منها، الأمر الذي جعلها تدمج في مطالب وجبايات أخرى في البايلك. هذا ما أحدث إلتباسا في وضع الزكاة وجعل بعض الدراسات الفرنسية تذهب إلى القول بأن ضريبة الزكاة في الجزائر العثمانية لم تكن موجودة أصلا وفي أحسن الأحوال لم تعرف التطبيق في أغلب الجهات،[1] ولعل أبرز دليل على وجود هذه الضريبة هو ظهور نوازل عديدة فيها على أنها تؤخذ من أصحاب الماشية لتَعلُق الزكاة بها، مثل هذه النازلة التي تقول أنه إذا سُرقت الماشية فعلى الغاصب عقوبتان عقوبة غصبها وعقوبة منع زكاتها[2].

ثانيا_ الضرائب المستحدثة:

1°_ اللزمة: ضريبة تدفعها قبائل الرعية المغلوبة على أمرها، تتراوح كميتها حسب المناسبات، وذلك بتكليف شيوخ الدواوير في البوادي بجمعها،[3] وقد تُلتزم بها بعض القبائل بالمناطق الصحراوية أو الجهات الجبلية، وفي هذه الحالة تعوض ضريبة العشور والزكاة التي يتعذر دفعها في تلك المناطق البعيدة، ولهذا أصبحت تشكل مداخل عينية ونقدية وفيرة للخزينة. ويقدر مجموع ما تدفعه كل من قبائل بجاية وساحل البابور وفرجيوة وميلة 122055 ريال بوجو.[4] وغالبا ما يكون دفع اللزمة بمثابة إعلان الخضوع والدخول تحت سلطة البايلك، فمثلا نجد الباي أحمد المملوك قد ألزم منطقة توقرت بضريبة مرتفعة قدرت بـــ 500000 ريال بوجو[5].

2°_ الغرامة: تُفرض على القبائل الممتنعة أو البعيدة، والتي يعتمد سكانها أساسا على الرعي، وهي تأخذ في أغلب الأحيان من المنتوجات المحلية، وعند الضرورة تسدد نقدا وتتنوع بتنوع إنتاج القبائل التي تلتزم بدفعها، فقبائل الساحل بجهات سكيكدة، البابور، القرقور وزمورة غالبا ما تلتزم عند دفع الغرامة بتقديم الأبقار والبغال والخشب، أما قبائل شطابة والهضاب العليا بجهات السقينة وأولاد سلام تغرم خاصة بكميات من العسل

[1] ناصر الدين سعيدوني: دراسات تاريخية ... ، المرجع السابق، ص 323.

[2] محمد بن عبد الكريم الفقون: المصدر السابق، ص27.

[3] ناصرالدين سعيدوني: النظام المالي....، المرجع السابق ص ص 96_97

[4] فلة القشاعي: النظام الضرائبي...، المرجع السابق، ص 64.

[5] URBAIN ET WARNIER: OP.CIT, p363.

والزبدة. وبنواحي السباخ حيث بحيرات الملح كانت قبائل الزمول تساهم بكمية من الملح وهي عشر ما كانت تستخرجه من الترسبات الملحية،[1] أما قبائل توقرت فتسدد الغرامة في شكل هدية مؤلفة من 25 عبدا، ثم تحولت فيما بعد إلى مقدار من المال يُعرف بحق البشماق ويساوي 165 فرنك،[2] وكان مجموع ما تدفعه القبائل الصحراوية يعادل 21850 قرش،[3] أما العشائر التي تعتمد على الرعي مثل الحنانشة وأولاد سيدي يحي بن طالب والنمامشة، فتفرض عليها الغرامة مرة واحدة،[4] فالنمامشة مثلا تدفع عادة 3000 خروف سنويا ومثلها الحراكتة التي تسدد في شكل غرامة 1000 خروف.[5]

3°_ **الخطية والضرائب الخاصة:** تُفرض أحيانا على بعض القبائل كدليل على خضوعها لسلطة الباي، فتلتزم بها القبائل الثائرة المتمردة عند إخضاعها أو طلبها الأمان عوضا عما صدر عنها من مخالفة وعصيان. كما تفرض مقابل الجنح والمخالفات التي يرتكبها أفراد القبائل بصفة فردية أو جماعية،[6] وفي حالة عدم التعرف على الجاني فإن شيخ الدوار أو قائد القبيلة يلتجئ عادة إلى فرض خطية جزافية على مجموع أفراد العشيرة لعدم التعرف على مرتكب المخالفة[7].

وهناك أنواع كثيرة من الضرائب،[8] نذكر منها ضريبة الغفارة التي تضمن للأعراش حق الإقامة والتملك وتدل على التسجيل بالحالة المدنية في تلك الفترة.[9] ورسوم التولية أو حق البرنوس التي تدفع من قبل القياد كشيخ القبيلة أو شيخ العرب أو كبار الموظفين، وكانت تُدفع حسب أهمية المنطقة، وكثيرا ما كان الباي يتعمد تبديل القياد من أجل

---

[1] فلة القشاعي: النظام الضرائبي...، المرجع السابق، ص67.

[2] ناصر الدين سعيدوني: ورقات...، المرجع السابق ص538

[3] A.M.G: H227, Notice sur la Province de Constantine.

[4] ناصر الدين سعيدوني: دراسات تاريخية...، المرجع السابق، ص 304.

[5] فلة القشاعي: النظام الضرائبي...، المرجع السابق، ص67.

[6] ناصر الدين سعيدوني: دراسات تاريخية...، المرجع السابق، ص 304.

[7] فلة القشاعي: النظام الضرائبي...، المرجع السابق، ص68.

[8] للتعرف على معظم أصناف الضرائب التي كانت تدفعها الأرياف القسنطينية في الفترة العثمانية، أنظر: فلة القشاعي: النظام الضريبي في الريف القسنطيني، المرجع السابق.

[9] عقاب بلخير: سيدي حملة وأبنائه، المسيلة، د.ت، ص 20.

الحصول على أموال أخرى.[1] إضافة إلى مهر باشا وهي إعانة يساهم بها السكان في نقل هدايا الدنوش إلى الجزائر ففي بايلك قسنطينة يتراوح بين 600 الى 700 حصان، ورسوم التولية "الفرح"، وهي بمثابة رمز للفرح والابتهاج بتولية الباي الجديد أو بمناسبة الأحداث السعيدة، وكانت توفر للخزينة مداخيل هامة وبلغت في بايلك قسنطينة 20 ألف بوجو[2].

4°_ ضريبة الضيفة "ضيفة العادة في الشرق الجزائري"

وهي ضريبة تختلف عن الضرائب السابقة في كونها أشدها خطرا وتأثيرا على الريف القسنطيني، حيث تُعتبر أبرز مثال عن الإجحاف الضريبي الذي تعرضت له الأرياف، عُرفت بضيفة العادة باعتبارها مساهمة عينية موجهة إلى تغطية نفقات فرق الانكشارية (المحلة) وجماعات فرق المخزن التي تجوب الأرياف لاستخلاص الضرائب، وإقرار الأمن، وقمع حركات التمرد، وتُأخذ في بايلك قسنطينة على شكل إلزام عيني ونقدي يرمز إلى خضوع سكان المناطق الريفية وتبعيتهم للحكم المركزي، وهذا منذ أن فرضت هذه الضريبة في الربع الأول من القرن 16م[3].

فعند خروج المحلة لجمع الضرائب يُفرض على الرعية استضافة أفرادها، بتقديم اللحم والدجاج والكسكسي والشعير لكل فرق المحلة، كما تقدم العلف لخيولهم،[4] ويقوم الأهالي بتوفير كل أسباب الراحة لرجال المحلة، وكانت فرق المحلة تختار أحسن الخيام لتشارك الأهالي في الأكل والشرب والسكن.[5] هذا وتُعد الضيافة تبعا للأوامر المتلقاة من الأتراك،[6] فضلا عن الأوامر التي لا تنتهي في حين لم يكن أمام الريفي غير الخضوع لها، إذ لم يتركوا له فرصة الاحتجاج، بل كان يتحمل منهم أبشع الإهانات والإذلال يصل إلى حد الضرب، ولم يكن أمامه غير الصبر وانتظار ساعة رحيلهم عن القرية متمنيا أن لا يعودوا أبدا[7].

---

[1] A.M.G: H227, Notice sur la Province de Constantine.

[2] ناصر الدين سعيدوني: دراسات تاريخية...، المرجع السابق، ص307.

[3] المرجع نفسه، ص 304.

[4] ESTERHAZY : OP.CIT, p 276.

[5] PEYSSONNEL: OP.CIT, T2, p 364.

[6] شارل فيرو: تاريخ جيجلي، المصدر السابق، ص 66.

[7] جميلة معاشي: الانكشارية...، المرجع السابق، ص 91.

ولعل أبرز مصدر ذكر ضريبة الضيفة هو الرحالة الفرنسي"*Peyssonnel*"[1] الذي حَضَرَ مسيرة المحلة وعايش أحداثها سنة 1725م، وترك لنا وصفا دقيقا لسيرها والمناطق التي كانت تمر بها وتفرض عليها ما يسمى بالضيفة، فمن خلال تتبعنا لسير المحلة اتضح لنا أنها كانت تمر بالمناطق الصعبة في معظم اتجاهاتها بالرغم من وجود طريق كبير ومباشر، وكان هدف أفراد المحلة من ذلك هو الوصول إلى معظم الدواوير والقرى الصغيرة والقبائل الممتنعة.

هذا ويذكر الرحالة نفسه هروب بعض الدواوير بمجرد وصول المحلة، كدوار زمورة الذي رفع سكانه خيامهم واختبأوا، لكن أفراد المحلة اكتشفوا أمرهم وأجبروهم على منحهم خيامهم وكل ما يلزم للتخييم، وأكرهوهم على تقديم هذه الضريبة لجميع أفراد المحلة، في حين فضل البعض الآخر من السكان اللجوء إلى الجبال التي لا يعرف طريقها غيرهم، تجنبا لإهانات الأتراك من وراء هذه الضريبة، وضرب لنا مثالا "بالسلطان بوزيد"[2] الذي يُسيطر على الجبال الواقعة بأبواب الحديد، هذا الرجل الذي يُفضل السفر إلى الجزائر سالكا طريق الصحراء على أن يتحمل إهانات الأتراك واستبدادهم.

وتُفصل التشريفات أكثر فيما يُحضره الريفيون لضيافة المحلة، فمثلا كان سكان عنابة يحضرون في الثلاثة أيام الأولى، خروف لكل مائدة و60 خبزة، ويقدر ثمن كل صفرة 17 ريال بوجو[3]، أما عن تقسيم الضيافة فإن للآغا جرة من الزبدة وجرة من العسل و130 كيلوا من الصابون وجرتين من الزيت و12 صاع من القمح، أما أفراد المحلة فكان لكل صفرة جرة من العسل وأخرى من الزيت و6 صاع من القمح، ويُشترط أن تكون الجرة من النوعية القديمة لأنها تحمل ضعف الجرة الجديدة، أما بقية الأيام فلكل سفرة نصف خروف كل اثنين وخميس، أما يوم الأربعاء فيأخذون خروفا كاملا[4].

وعند انتهاء مهمة المحلة فإن السكان كانوا مطالبين بتوفير الجمال والبغال الضرورية لنقل ما جمعت المحلة من ضرائب،[5] إضافة إلى مبالغ مالية قدرت ما بين 800 إلى 2000 ريال وذلك حسب خيرات كل منطقة.[6] وتجدر الإشارة إلى أن الباي كان يشتري

---

[1] PEYSSONNEL: OP.CIT, T2, p 362_369.

[2] أطلق الرحالة لقب السلطان لهذا الشيخ باعتباره يتميز باستقلالية خاصة على الأتراك .

[3] ALBERT DEVOULX : Tachrifat, OP.CIT, p60.

[4] Ibid, 60_61.

[5] ESTERHAZY: OP.CIT, p 277.

[6] Ibid, 279.

بفضل ضريبة الضيفة جل الهدايا المخصصة لداي الجزائر.[1] ومن هنا يمكن القول بأن هذه الضريبة تعدت في تأثيرها الجانب المادي لتبلغ الجانب النفسي، وهو ما يتجلى بوضوح في مشاركة أفراد المحلة لخيام الريفيين وما يترتب عن ذلك من ضغط واستغلال، خاصة إذا علمنا أن الجباة لم تكن لهم قواعد أساسية في جمع الضرائب، بل أينما كانت تحل المحلة يحل معها الخراب والدمار، ويبدو ذلك واضحا أكثر في المرحلة الأخيرة من الفترة العثمانية، حين اضطر البايات إلى فرض مغارم، وابتكار أسماء لأخرى جديدة تُفرض على الريف لتدبير توازنهم بين موارد الصراع ونفقاتهم الخاصة.

وعموما، فإن اليد الطويلة في فرض الضرائب على الفلاح لم تقتصر على صالح باي الذي قام بتطوير الجهاز الضريبي وتنظيمه فقط، بل كان لجل البايات الأواخر باع طويل في هذا الميدان أيضا، حيث استندوا إلى جموع الفلاحين في تمويلهم بالأموال لدفع رواتب جنودهم وتغطية نفقات صراعاتهم، ومن ذلك ما تذكره المصادر عن وضع الريف الذي أخذه البايات بالمغارم الكثيرة، حتى لم يفلت من النظام الضريبي أي فرع من فروع الإنتاج الفلاحي والصناعي والتجاري، ولا أي مادة قابلة للدفع[2]، ويبدو أن السلطة المركزية قد استعملت أنجع الطرق لجمع كل هذه الضرائب، ونقصد بذلك نظام المحلّة والذي سيأتي تفصيله في المبحث الموالي.

---

[1] ناصر الدين سعيدوني: النظام المالي...، المرجع السابق، ص 98.

[2] GRAMMONT : Relations entre la France et la régence d'Alger au XVII siècle, Alger, 1880, p 410.

رابعا_ نشاط المحلة وتجاوزاتها في الريف القسنطيني.

لا شك أن الحضور المكثف لظاهرة الصراع في بنية السلطة المركزية والدور الحيوي الذي اضطلعت به في استمرارها، قد طبع السلطة بالطابع العسكري، وخلّف مجموعة من المظاهر العسكرية، كان أبرز معالمها ذلك التنقل الدائم للباي خارج عاصمته تجاه الريف القسنطيني. ويبدو أن هذا التحرك العسكري المستمر الذي جعل من السلطة المركزية خلال هذه المرحلة جهازا عسكريا متحركا على الدوام،[1] كان يهدف علاوة عن كونه يُخضع القبائل المتمردة ويُرغمها على أداء الضرائب وتوسيع مناطق النفوذ، إلى إظهار السلطة في الريف بواسطة المحلة، وتأكيد عظمة الباي في مجال يتميز بالمقاومة المستمرة للسلطة لفرض نوع من الضغط الرمزي على الريف، خاصة إذا علمنا أن من عادة المحلة الغدر في هجومها على الريف حتى لا تترك لهم وقتا للدفاع.[2]

ويقترن اسم المحلة، عادة، بما كانت تتركه وراءها من الخراب والدمار، وتعود في الغالب بغنائم هائلة تبلغ عشرات الآلاف من الأغنام والأبقار والعجول، حتى أن النظام الاجتماعي لبعض القبائل كاد أن ينهار نتيجة تعرضه لهذه الحملات التي افقدت القبائل ثروتها[3]. وقد عَرف نظام المحلة تطورا هاما في المرحلة الأخيرة من الوجود العثماني، ومما يؤكد ذلك ما نسجته مصادر المرحلة من أوصاف حول محلة الباي وطريقة تنقله وحجم جيوشه وطبيعة مرافقيه، إلى درجة تبدو من خلالها وكأنها مدينة أو مجتمع متنقل بإدارته وجيشه وخيامه ومؤونته وحتى قوانينه[4].

وفيما يلي ندرج جدولا مقارنا يبين مدى تطور المحلة في ثلاث مراحل، تميزت الأولى بنوع من الاستقرار والثانية بتفاقم الصراع، أما الثالثة فقد تميزت بتأزم الأوضاع. حيث كان وصف المحلة في المرحلة الأولى بعين الرحالة الفرنسي ***Peyssonnel***،[5] أما المرحلة الثانية فلم نجد فيها رحالة بعينه يصف محلّة الفترة لذا ارتأينا الاعتماد في وصفها على مخطوط لأحمد النقّاد،[6] والذي يذكر لنا فيه بعض الجوانب المهمة من فترة صالح

---

[1] VAYSSETTES: "Histoire de Constantine", OP.CIT, p 480.
[2] PEYSSONNEL,T2, OP.CIT, p293.
[3] صلاح العقاد: الأحوال الاجتماعية والنظم الادارية في الجزائر قبيل الغزو الفرنسي، المجلة التاريخية المصرية، المجلد: 12، 1965، ص 157.
[4] شلوصر فندلين: المصدر السابق، ص ص 48_49.
[5] PEYSSONNEL,T2, OP.CIT.
[6] جميلة معاشي: مخطوط عن صالح باي، المرجع السابق.

باي، واستأنسنا ببعض المراجع الأجنبية مثل *Féraud et*[1] *Mercier*،[2] وذلك لسد الفراغ وترميم المبتور فيما لم يذكره النقّاد، أما المرحلة الثالثة فقد كان وصف المحلة فيها بعين الأسير الألماني شلوصر في كتابه قسنطينة أيام الحاج أحمد باي.

المراحل والمصادر / تطور المحلة من حيث	المرحلة الأولى (قبل تفاقم الصراع)		المرحلة الثانية (عند تفاقم الصراع)		المرحلة الثالثة (عند تأزم الأوضاع)	
	وصف الرحالة *Peyssonnel*	ص	وصف محمد الطاهر بن أحمد النقاد، واستأنست بـ *Féraud et Mercier*	ص	وصف الأسير شلوصر	ص
الباي قائد المحلة	حسن بوكمية حكم 23 سنة،(1713_1736)، تركي،لا تظهر عليه مظاهر الأبهة،محترم، يبلغ من العمر أكثر من سبعين سنة وهو حاكم للبايلك منذ أكثر من 13 أو 14 سنة.	289	صالح باي حكم 22 سنة، (1771_1792م)،تركي، لا يلبس الذهب، له خبرة عسكرية فريدة، حكم البايلك بشدة وهو في أوج قوته، سريع الانتقام، كثير العنف، لا يهاب شيئا.	محمد النقاد، ص37_43. *Mercier*, pp 282_283	هو الحاج أحمد باي، (1826_1837م)، كرغلي، يسير في أبهة، لباسه يلتمع بالذهب، ذو صرامة حادة تخلع عليه مظهر الطاغية، رفقاؤه دائما مسدسان وسيف ذو غمد ذهبي.	29_30
وجهة المحلة	قبيلة السقنية جنوب شرق قسنطينة.	289	توقرت أقصى جنوب بايلك قسنطينة .	النقاد، ص 46.	المدية جنوب غرب قسنطينة.	48
سبب الحملة	جمع الضرائب المعتادة.	289	عزوف السلطان فرحات بن عمر الجلابي عن دفع الضرائب منذ أعوام عديدة.	النقاد، ص 46. *Féraud* p109	عزوف فلاحو المدية عن دفع ضريبة العشور للباي.	48
تعداد جيش المحلة	المحلة مكونة من 12 صفرة تركية، كل صفرة مكونة من 25 رجل اذن هناك حوالي 300 رجل والأغلبية هم من الأعلاج.	289	المحلة مكونة من60 خباء في العادة لكن في هذه الحملة خرج معه كافة جنوده، بالإضافة إلى أربعة مدافع.	النقاد، ص 46. و *Féraud* p111	المحلة مكونة من 120 خيمة، كل خيمة تحتوي على 50 جندي من المشاة إذن حوالي 6000 جندي بالإضافة إلى المدافع.	48
حراس الباي	الباي ليس له حراس خاصون رغم أن سلطته عالية وحدود بايلكه ممتدة من أبواب الجزائر الى الحدود التونسية.	290	/	/	يحرس الباي أربعون جنديا وثلاثون أو أربعون كلبا من الكلاب الكبيرة والمربوطة بسلاسل، وأمام كل خيمة حارس ويغير كل ساعتين.	49
قوانين المحلة	ليس لمحلة الباي قوانين غير إرادته.	290	/	/	كان الباي يحرس على تطبيق قوانين المحلة خاصة قانون الحراسة الليلية، وكان يتفقد الحراس بنفسه، والسيف في يده، فإذا وجد أحدهم نائما قطع رأسه في الحال.	49

المصدر: من إعداد الباحثة.

[1] ERNEST MERCIER: Histoire de Constantine.
[2] CH. FERAUD: BEN DJELLAB Sultans de Tougourt Notes historiques la province de Constantine, R.A, N° 24, 1880.

من خلال مقارنة الفترات الثلاث المدرجة في الجدول السابق يتضح لنا مدى تطور المحلة وأعمالها العسكرية في كل جوانبها المدروسة، خاصة إذا تعلق الأمر بتعداد جيش المحلة وهدفها. لدرجة أن تفاقم الصراع أدى إلى استخدام المدافع في تطويع الرعية والتزامها بدفع الضرائب المفروضة عليها في الفترتين الثانية والثالثة، وهذا ما يدل على الصعوبة التي كانت تعترض طريق البايات الأواخر في جمع الضرائب خاصة بعد تنظيمها، ما يدل على الإجحاف الضريبي الذي أضحى يعانيه الريف القسنطيني وصعوبة تقبله لذلك.

أما عند مقارنة الوضع الأمني بالنسبة لكل الفترات يتبين لنا أن الباي حسن بوكمّية لم يكن يحتاط لشيء رغم كبر سنه وطول فترة حكمه، وهذا راجع إلى الاستقرار الذي كان يعيشه البايلك في تلك الفترة نتيجة لعقلانية الضرائب التي كان يجمعها هذا الباي. أما فترة صالح باي فرغم قسوة محلّته التي استخدم فيها المدافع لتطويع الرعية، فإننا لم نرصد له حراسا ولا احتياطات في مصادر الفترة، ولا نظن السبب يعود إلى الاستقرار بالريف كما هو الحال بالنسبة للفترة الأولى؛ لأن جل المصادر اتفقت على المشقة العظيمة التي لقيها صالح باي خلال تطويعه لتوقرت وأريافها. لكن، الراجح أن انصراف المصادر عن ذكر حراس للباي راجع لكونه لا يحتاجهم في الأصل؛ لأن الجميع يهابه خاصة وأنه في أوج قوته، والمعروف أن الحاكم القوي عادة ما يكون مطاعا ومهابا من قبل رعيته كما سبقت الإشارة لذلك[1].

في حين يختلف الأمر تمامًا مع الحاج أحمد باي، لدرجة أن الباي نفسه كان أكثر حيطة من المجتمع الريفي، وهذا ما يتضح لنا من خلال الحراس الذين يرافقونه ويتناوبون على حراسته في المحلة، بل وأكثر من ذلك فقد ظل هذا الباي في علاقته بالمجتمع حبيس قصره. وبهذا الخصوص يذكر لنا "شلوصر"[2] الاحتياطات التي كان يتخذها الباي حتى عند التجول في غرف قصره قائلا: "وكان من المستحيل القيام بهجوم مفاجئ على الباي، فقد كان هناك بالإضافة إلى المماليك والحرس العسكري حرس سرّي يحيط بالقصر، ولا يمكن الدخول إليه رغم ما به من أبواب كثيرة، وكانت الأبواب نفسها تحتوي على كوات لإطلاق النار تتوسطها بنادق تشبه نوع رامبارت عندنا بعيدة المدى، ولم يكن الباي نفسه

[1] عبد الرحمن الجبرتي: المصدر السابق، ص15.

[2] شلوصر فندلين: المصدر السابق، ص ص. 80-81.

يخرج دون سلاح، فكان يتسلح حتى حين ينتقل من جناح من أجنحة القصر إلى آخر بسيف ومسدسين معبأين"، وهو ما يقيم الدليل على الأوضاع المتأزمة والانفلات الأمني الذي أصبح عليه البايلك في نهاية الفترة العثمانية.

هذا عن المحلة وتطورها، أما عن كيفية تنقلها ووظيفتها فقد ترك لنا أحد التقارير الفرنسية وصفا دقيقا لذلك؛ حيث أن خليفة باي قسنطينة يعود من مدينة الجزائر بعد تقديم دنوش الستة أشهر مصحوبا بالمحلة من أجل استخلاص الضرائب من البايلك. وتتكون من 60 خيمة تتألف الخيمة من 25 رجل، وفي الطريق يلتقي الخليفة بقوته العسكرية مع الباي في قصر الطير نواحي سطيف، حيث تلتحق 40 صفرة بالباي وتبقى 20 صفرة مع الخليفة ليجوب بها ساحل البابور، فرجيوة، زواغة، الموية، بني ولبان، بني مهنة، ايدوغ، ساحل عنابة، مرداس وبني صالح، أما الباي فيتوجه بقواته لأولاد بوطالب، أولاد سلطان، الحراكتة والحنانشة ويلتقي بالخليفة بفج العرب ليعودوا بقوات المحلة إلى قسنطينة، ثم يتوجه الخليفة إلى الجزائر بعد شهرين أو ثلاث لتقديم الدنوش الأصغر ومعه محلة مكونة من عشرة خيام يأخذها من الحامية التركية المعسكرة بالقصبة، ثم لا يلبث أن يعود بعد ذلك من الجزائر مصحوبا بستين خيمة لاستخلاص الضرائب مرة أخرى.[1]

ومن خلال مقارنة ما جاء به كل من *Peyssonnel* وشلوصر والتقرير الفرنسي حول تعداد فرق المحلة ووظائفها يثبت لدينا أن هذه الفرق كانت تختلف من فترة إلى أخرى ومن ظروف إلى أخرى، فمتى كانت الأوضاع يميزها نوع من الاستقرار نجد أن تعداد الجيش المكلف بجمع الضرائب قليل بالمقارنة بالأوضاع التي يميزها الاضطراب، خاصة في الفترة التي حكم فيها الحاج أحمد باي، والمستجدات الرهيبة التي عاشها المجتمع الريفي جراء الاحتلال الفرنسي. وعموما، فقد قدرت التشريفات التي تعد المصدر الرسمي للإدارة العثمانية عدد فرق المحلة بـــ 80 صفرة[2]. هذا وقد كانت تلك الفرق تُعزز بعدد من الفرسان المرافقين وعددهم يختلف حسب أهمية المنطقة فمثلا، فيلق الباي قد يصل عدد القوات المصاحبة له 1000 رجل، أما الفيلق الآخر بقيادة الخليفة فيعزز في بعض المرات بـــ 500 جندي تركي.[3]

---

[1] A.M.G: H227, Notice sur la Province de Constantine.

[2] ALBERT DEVOULX : Tachrifat, OP.CIT, p35.

[3] ناصر الدين سعيدوني، المهدي بوعبدلي: المرجع السابق، ص 37.

هذا، ونتيجة للتطورات السابقة أصبحت المحلة تقوم بتجاوزات خطيرة تجاه الريفيين، ولا نظن أن كتب السياسة قد أدرجت عرضا عيوب الحكام في عدم ضبط الجنود بقواعد أساسية في عملية الجباية، فيصبح "لكل طبقة من الأعوان فئة فاسدة وبلية قادحة".[1] فقد نجم عن حاجة السلطة للأموال توفيرا لما تحتاج إليه الانكشارية[2] من العطاء، والباي من النفقة، خاصة مع تزايد النفقات والحاجات والتدرج في عوائد الترف،[3] إطلاق العنان للجباة ليصبحوا بمثابة سوط عذاب سُلط على ظهر الرعية. وقد ازداد الأمر سوءا مع ظهور ما يسمى بنظام الالتزام، الذي يُعتبر بمثابة رخصة للجباة حيث يأخذون مرتباتهم من الضريبة التي كانوا يقومون بجمعها، وهذا ما أدى إلى انعكاسات خطيرة على السكان لأن الجباة كانوا يعملون على تعويض الأموال التي اشتروا بها مناصبهم، وفي الوقت نفسه كانوا يجهدون أنفسهم للحصول على المبالغ المالية اللازمة للاحتفاظ بوظائفهم وتأمين مستقبلهم خشية التعرض للعزل والتغريم.[4]

لذلك أثبتت بعض المتون المصدرية تجاوزات عديدة للمحلة في الريف القسنطيني، من تخريبٍ للقرى،[5] ونهبٍ للمحاصيل الزراعية،[6] وقتلٍ للأرواح وانتهاكٍ لحرمات النساء،[7] حتى أنّ الأطفال لم يسلموا من وحشية وهمجية رجال المحلة. ومن ذلك ما يرويه *Féraud* في إحدى الروايات الشعبية التي تُنسب إلى بني عافر بجيجل، حيث أنه وفي إطار ضريبة الضيفة، عندما توقفت المحلة المتنقلة بخيمة أحد أفراد القبيلة ويدعى "يخلف"، هذا الأخير الذي اشتغل فورا بإعداد الضيافة لهم تبعا للأوامر المتلقاة، غير أن

[1] علي بن حبيب الماوردي: درر السلوك في سياسة الملوك، تحقيق: فؤاد عبد المنعم أحمد، دار الوطن للنشر، الرياض، 1997، ص 104.

[2] تجدر الإشارة إلى أن الاصطدام المباشر بالمجتمع الريفي كان بفعل الجيش الإنكشاري (المحلة)، وقد اهتمت الباحثة جميلة معاشي بدراسة موقع الانكشارية ضمن هذه المنظومة، وبيان تغلغل هذه المؤسسة العسكرية في المجتمع الريفي، والأسباب التي تُفضي أحيانا إلى استحواذ عقيدة عسكرية الاتجاه على المجتمع، بحيث يصبح أفراده جندا وتضحى طاقاته في مجملها موجهة لخدمة سلطة البايلك. وإن ركزت الباحثة على المجتمع الحضري أكثر، لكنها في الوقت نفسه لم تهمل المجتمع الريفي، حيث خصصت له فصلين كاملين من القسم الأول في رسالة الدكتوراه. أنظر، جميلة معاشي: الإنكشارية والمجتمع، المرجع السابق، ص 80_125.

[3] أبو القاسم الزياني: المصدر السابق، ص 156.

[4] ناصر الدين سعيدوني: النظام المالي...، المرجع السابق، ص 245.

[5] مؤلف مجهول: تاريخ بايات قسنطينة المرحلة الاخيرة، تحقيق: حساني مختار، منشورات دحلب، الجزائر، ص58.

[6] محمد بن يوسف الزياني: المصدر السابق، ص 207.

[7] ERNEST MERCIER: Histoire de Constantine, OP.CIT, p 285.

ابنه طلب من أمه شيئا من الطعام لأنه كان جائعا، فقطعت الأم فخذ احدى الدجاجات المخصصة للأتراك، لإشباع شهية ابنها، ولما قدمت الضيفة للجنود لاحظ هؤلاء نقص الفخذ، فتساءلوا عن سبب اختفائه وأرادوا معرفة من أكله، فأجابت الأم "إنه الأكثر قوة"، فاحتجز الأتراك، الذين غضبوا من هذه الإجابة وأرادوا أن يبرهنوا أنهم وحدهم الأقوياء في البلد، الطفل وقطعوا فخذه**!**[1]

ومن المستغرب أن نجد نصا آخرا مشابها لهذه الحادثة تماما رواه الجنرال "*Vallet*"، مع اختلاف طفيف في النتيجة، حيث أن أحد الجند الأتراك، حسب ما روي له من السكان، قام بقطع ذراع أحد الأطفال من فرجيوة، بسبب أكله جناحا من دجاجة حُضرت له في إطار ضريبة الضيفة المفروضة على سكان القرية، وعندما سُئل عن سبب فعلته قال إنه لم يفعل له إلا ما فعله بدجاجته.[2] غير أن رائحة التلفيق والتهويل تبدو واضحة في هذه الروايات خاصة وأنها من كتابات أجنبية، والتي تهدف عادة إلى تشويه صورة العثمانيين بالجزائر لكي تُعطي تبريرا لتواجد فرنسا بالجزائر. لكن، من جهة أخرى لا يمكن تجاهل تلك الأضرار الخطيرة التي خلفتها المحلة، والتي وفرت الأرضية المناسبة للإنتاج الأدبي الشعبي للتعبير عن النفسية الجماعية المتمزقة، ومنها هذه الأبيات التي تصف المحلة وما خلفته من آثار وخيمة في الريف:

نغني على الحناشي كيف التركي في المحلة ماشي
كيف يوصـــــل يا أخواتي ثم تبرد الطيـــــــاح[3]
هذيك اليوم على مــرجــاجة والبارود العجاجــة
البـــارود العجـــاجة والطيـــاح كـــيف الريــــش
هذيـــك النهار على بو العقد رأيت النـــار ثم توقد[4].

---

[1] شارل فيرو: تاريخ جيجلي، المصدر السابق، ص 66.

[2] جميلة معاشي: الانكشارية...، المرجع السابق، ص 91. نقلا عن
E. VALLET: "Page d'histoire, le dernier siège de Constantine vu par les assiégés", R.S.A.C, 1935_1936, p 285.

[3] عندما يسقط قبائلي ميتا او جريحا في معركة، يعمل اخوانه كل مجهوداتهم حتى لا يتركوا جثة بين ايدي العدو، والمقصود بالميت البارد هو الذي يبقى في مكانه من غير تشويه. انظر، شرل فيرو: المصدر السابق، حاشية، ص 57.

[4] GUIN: "Notes historiques sur Les Nezluoia", R.A, N° 6, 1862, pp 434_435.

وقد صدق من قال: "أن القساوة والغلظة إذا أغلبت أفضت إلى مجاوزة الحدود في الجناة وعقوبة الأتقياء البراة، فيدعو ذلك إلى إيحاش المستأنسين وتفرق المتآلفين، ويصير لكل ولي خصيما"[1]. فقد أثارت هذه التجاوزات خلال جمع الضرائب ردودا مستنكرة لها، وبدأت تظهر بوادر الرفض والإكراه لأداء هذه الضرائب خاصة من قبل بعض الفقهاء المتصوفة الذين تعاطفوا مع الريفيين المتضررين في البايلك. ويُخيّل لنا أن ثورة ابن الأحرش التي كادت أن تعصف بالعثمانيين قبل الأوان، كانت بداية لمرحلة جديدة من الإجحاف الضريبي على الفلاحين والمنتجين، خاصة في المرحلة التي أعقبت إعدام صالح باي.

وإجمالا فان الارتباط بين الصراع والمال يُظهر انسجاما واضحا بين قوة وضعف السلطة المركزية، وهذا ما جعل من الفلاح عنصرا أساسيا في موازنة هذه المعادلة، إلا أن التعسف في تحقيق ذلك والإجحاف الضريبي الذي تعرضت له جموع الفلاحين عجل بتفاقم ظاهرة الصراع التي أدت إلى اصطدام عنيف يضر بكل من المجتمع الريفي وسلطة البايلك، وهذا ما سنتطرق له في الفصل الموالي بحول الله.

[1] علي بن حبيب الماوردي: المصدر السابق، ص77.

إن أي متخصص في الفترة الأخيرة من التاريخ العثماني، لا يمكن أن يتجاهل ذلك الحضور المكثف لظاهرة الصراع في ثنايا المصادر المؤرخة للفترة، وهو ما أكدته تلك السلسلة الطويلة من الصراعات التي جمعت المحلة بالمجتمع الريفي القسنطيني. فقد اشتهر البايات، وخاصة منذ تولي صالح باي الذي دخل بقوة تفوق العادة إلى الريف القسنطيني، بحملات عديدة ومتنوعة، منها حملات استخلاص الضرائب ومعاقبة العصاة، والهجمات التي استهدفت مد سلطة البايلك على الأقاليم البعيدة والمناطق النائية. فضلا عن الصراع الذي اشتد بين أفراد الأسر النفوذية، والحملات التي سببتها القبائل الحدودية الجزائرية والتونسية على حد سواء.

وإذا كان لكل دولة مصدر للسلطة التي تمارسها على المجتمع، فمن أين استمد الأتراك سلطتهم على المجتمع الريفي في الفترة الأخيرة من الوجود العثماني؟ وبعبارة أدق هل كان الصراع رمزا لوجود السلطة وضمانا لاستمرارها؟ كما تفطن لذلك ابن خلدون حينما اعتبر أن الصراع هو الوظيفة المثلى لمن يريد أن يحكم،[1] فأي وظيفة كانت للسلطة المركزية خلال هذه الفترة؟

[1] عبد الرحمن ابن خلدون: المصدر السابق، ص 211.

أولا_ صالح باي وتفاقم الصراع داخل أرياف البايلك.

تُعتبر فترة صالح باي فترة حاسمة جدا، أحدثت تغيرات جذرية مست البايلك برمته، فقد تزايدت الحملات العسكرية العنيفة بينه وبين القبائل، بسبب محاولته إخضاع جميع أرياف البايلك لسلطته، بما فيهم الأقاليم البعيدة وإجبارها على دفع الإتاوات، بعدما كانت شبه مستقلة في فترات سابقة لحكمه. وهذا ما يمكن استنباطه من خلال المصادر المحلية، وإن لم تذكر ذلك الصراع صراحة، لكنها في الوقت ذاته أوردت ما يوحي بكثرة الحملات التي نظمها الباي في الريف القسنطيني، مثلما ذكره العنتري بقوله أن صالح باي "تمهدت كل الأوطان في عصره، ونال من الخيرات ما لم يناله (كذا) واحد من البايات قبله ولا بعده، وداس كل الأوطان العامرة والفقراء"[1].

في حين يذهب ابن العطار لوصف ثروة الباي قائلا أنه: "بلغ ما لم يبلغه من هو أكبر منه من ولاة الجزائر وتونس، وجمع ما لم يجمعه غيره"،[2] وهذا ما أكده الزّهار قائلا: "أن أموال صالح باي تقارب ما في خزانة الجزائر"،[3] وأيضا صاحب مخطوط بايات قسنطينة بقوله: "أنه كسب من الأموال والخيول، والبغال والإبل والقمح والشعير ما لا يحصى بمراد (كذا) إلا له سبحانه وتعالى".[4] والواقع أنه لا يهمنا في هذا الموضع مقدار أموال الرجل بقدر ما يثيرنا مصدرها، وقد أجابنا الباحث *"Mercier"* على ذلك مؤكدا أن مصدر هذه الثروة العظيمة هو الضرائب التي كان يجمعها من مختلف مناطق البايلك[5].

ومن خلال جمع شتات هذه النصوص المحلية ومحاولة قراءة ما بين سطورها، يثبت لدينا أن صالح باي قد جاب أرياف البايلك بمحلته طولا وعرضا حتى تحصل على ما أوردته المصادر السابقة من ثروة، ولمحاولة تفصيل ذلك فلا مناص من الاعتماد على الكتابات الأجنبية التي وضحت لنا الصورة أكثر. فهذا "كاثكارت" الذي عاصر صالح باي والتقى به في الجزائر إثر قدومه لتقديم الدنوش الأكبر للداي، يصف لنا ما شاهده من الباي حينما اعترض طريقه خادم عربي ينتمي إلى قسنطينة يسأله صدقةً، فرمي له بقطعة

[1] صالح العنتري: فريدة مؤنسة...، المصدر السابق، ص83.

[2] أحمد ابن العطار: المصدر السابق، ص69.

[3] الشريف الزهار: المصدر السابق، ص 65.

[4] مؤلف مجهول: المصدر السابق، ص43.

[5] ERNEST MERCIER: Histoire de Constantine, OP.CIT, p 285.

نقود قائلا: "خذ! سوف أبتز مثلها من مواطنيك كما تبتزها أنت مني! فأنا إنما حضرت إلى الجزائر لأرد على شكاوى شيوخ قسنطينة الذين يزعمون أمام الداي أنني أرهقهم بالضرائب التي هي من واجبي جبايتها لكي أدفع المبالغ المستحقة علي إلى الداي"[1].

هذا ويذكر كاثكارت في مقام آخر أن صالح باي "بمجرد وصوله إلى عاصمته يشرع في القيام بحملة لإغتصاب ممتلكات العرب البؤساء،[2] بحيث لا يكاد يمضي وقت يُذكر حتى يسترجع الثروة الطائلة التي جاء بها إلى الداي في الجزائر، فالذين يدفعون ثمن ترفه وهداياه هم العرب المساكين الذين وضعتهم العناية الإلهية تحت سيطرته وحكمه".[3] وفيما يلي نحاول تفصيل أهم الحملات التي قام بها صالح باي على الريف.

1_ الصراع بين صالح باي وشيوخ القبائل.

لقد نظم صالح باي عددا كبيرا من الحملات العسكرية ضد المجتمع الريفي، وكانت أولى حملاته على بني عباس بنواحي البيبان سنة 1772م،[4] علما أن هذه القبيلة كانت تجمعها تحالفات مع السلطة المركزية في بداية الأمر، إلا أنها لم تكن مستقرة، فكانت تتوتر من حين لآخر بسبب تضارب المصالح.[5] كما تُعد هذه القبيلة من أخطر وأحصن القبائل بالبايلك ولا يتم الوصول إليها إلا بشق الأنفس،[6] ومن هنا يمكن رصد أول ملاحظة في هذا الصدد، وهي دخول صالح باي بقوة إلى الريف القسنطيني بمجرد وصوله للبايلك. هذا وقد هاجم صالح باي أيضا كل من جهات القرقور ووادي الحمام.[7] وصُنفت حملته ضد قبيلة أولاد نايل في أكتوبر 1773م[8] كأول حملة أظهرت بأس الرجل وعنفه ضد المجتمع الريفي. وتجدر الاشارة إلى أن قبيلة أولاد نايل كانت تابعة الى بايلك التيطري، لكنها تدفع الضرائب لبايلك الشرق لأنها تتردد على سهول قسنطينة وأسواقها[9].

---

[1] كاثكارت: المصدر السابق، ص 52.

[2] ويقصد بهم المؤلف سكان الأرياف القسنطينية.

[3] كاثكارث: المصدر نفسه، ص 118.

[4] MOULOUD GAID: OP.CIT, p 40.

[5] أرزقي شويتام: المجتمع الجزائري...، المرجع السابق، ص172.

[6] حمدان بن عثمان خوجة: المرآة، المصدر السابق، ص 67.

[7] فلة القشاعي: النظام الضريبي...، المرجع السابق، ص144.

[8] ERNEST MERCIER: Histoire de Constantine, OP.CIT, p 272.

[9] أرزقي شويتام: المجتمع الجزائري...، المرجع السابق، ص19.

هذا وقد كان سبب الحملة أن هذه القبيلة شقت عصا الطاعة في وجه الداي بالعاصمة، فقاد صالح باي حملة عسكرية ضدها، ودخل الجلفة وبوسعادة وفتك بالكثير منهم وعاقبهم بشدة، كما حصل على مغانم ضخمة إثر انتصاره على المتمردين في معركة "مالح" أو مسيف" منها الإبل والأغنام والخيام المنهوبة[1].

والواقع أن هذه الحملة العسكرية لم تكن وحدها سببا في توتر العلاقة بين البايلك والمجتمع الريفي، بل مثلت بدايةً لسلسلة طويلة من الصراع والفتن. ففي طريق رجوع الباي ومحلته من هذه الحملة توقف في جنوب قسنطينة وعاقب العصاة من أولاد زايد من قبيلة البرّانية.[2] ونظم حملات أخرى ضد أولاد بوعون،[3] أولاد عمور بالأوراس، و"دشرة النميلة"[4] التي عاقب أهلها بعنف حيث قتل 100 رجل وأرسل رؤوسهم لتعلق على أبواب قسنطينة لتكون عبرة لمن يتجرأ على العصيان.[5] هذا واقتحم في نفس السنة قرى زنينة، أفلو، تاجمونت[6] والأغواط.[7] وبالمثل تعرضت مجموعة أخرى من القبائل لعقابه وغاراته مما أسفر عن عداءات كثيرة بينه وبين تلك القبائل، خاصة إذا تعلق الأمر بأفراد قبيلتي الزمول والسقنية، الذين رفضوا دفع الضرائب باعتبار أنهم قبائل مخزنية لها امتيازاتها الخاصة، لكن الباي رغم ذلك فرض عليهم مغارم كثيرة وقتل منهم الكثير[8].

أمام هذا العدد الهائل من الحملات العسكرية والذي يعادل الأربع عشرة حملة في وقت لا يتجاوز السنة!، تأتي مشروعية التساؤل عن الوضع الاجتماعي للريف القسنطيني في ظل هذه الحملات المتتالية والمنتشرة كالفطريات في البايلك، كما يثيرنا سؤال آخر وهو كيف استطاع هذا الباي بمحلته أن يجوب كل هذه الأرياف في هذه المدة القصيرة

---

[1] VAYSSETTE:"Histoire de Constantine sous la domination turque, de 1517 à 1837", R.S.A.C, 1868, p 333.

[2] Ibid, pp333_334.

[3] CH. FERAUD: "Notes historiques sur le turcs de la province de Constantine (les zmoul)", in R.S.A.C .1869., p56.

[4] لم أجد موقع هذه الدشرة بالضبط في أي مصدر من مصادر التاريخ التي اطلعت عليها، غير أنني سألت بعض الأساتذة المختصين، وقد أكد لي الأستاذ "البوص جمال" بجامعة المسيلة، أن هذه الدشرة أصبحت تعرف بدشرة النماملة وتقع في نواحي بسكرة جنوب البايلك.

[5] ERNEST MERCIER: Histoire de Constantine, OP.CIT, p 273.

[6] تاجمونت: تقع في ولاية الأغواط وتبعد عنها بحوالي 70 كلم.

[7] ناصر الدين سعيدوني: دراسات وأبحاث...، المرجع السابق، ص61.

[8] VAYSSETTES: Histoire de Constantine…, OP.CIT, p336.

وهو في بداية عهده؟ لكن، إذا علمنا أنه خبير بأمور البايلك وأحوال الرعية وأنه كان متوغلا في المخزن لأنه شغل منصب قائد العواسي ثم خليفة للباي،[1] يزول هذا الغموض، ونستطيع في هذا الموضع أن نستحضر هذه العينة لنوضح مدى تفاقم ظاهرة الصراع داخل الأرياف القسنطينية بمجرد تعيين صالح باي على رأس البايلك.

هذا وقد هدأت الأوضاع قليلا في الريف ثم عاود صالح باي مهاجمته، وهذه المرة مع أولاد عاشور بفرجيوة، الذين هاجمهم في كل من سنتي (1776/1781م)، وقد قسم الباي محلته في المرة الأخيرة إلى ثلاث جهات، لأنه كان عازما على الانتقام من شيخهم "الشلغوم" الذي جاهر بالعصيان وامتنع عن الاعتراف بسلطة البايلك ودفع الضرائب.[2] أما بالنسبة لجنوب البايلك فقد تعددت حملاته أربع مرات على الزيبان.[3] وقد حاول استدراج شيخ الذواودة محمد الذباح للدخول تحت طاعته، فاضطر هذا الشيخ بفعل تخوفه من بطش صالح باي وشروطه الثقيلة إلى التسليم بمطالبه.[4]

ومباشرة بعد هذه الحملات قاد صالح باي بنفسه حملة ضد توقرت سنة 1788م،[5] كان سببها هو تخلي فرحات بن عمر سلطان توقرت عن السلطة المركزية وامتناعه عن دفع الضرائب لزمن طويل،[6] وتعتبر هذه الحملة الوحيدة التي ذكرتها المصادر المحلية، فالعنتري يقول أن صالح باي "وصل إلى توقرت أقصاء (كذا) وطن الصحراء لم يصلوا اليها البايات السابقين (كذا) ولا أدركوها المتأخرين (كذا) إلا صالح باي وصلها وأقام عليها سبعين يوما حتى طوعها، وتحصل بيده الفوائد الكثيرة منها ورجع إلى قسنطينة من بعد اغتنامه بذلك الغنيمة".[7] ويُفهم هنا أن صالح باي قد انفرد بتطويع توقرت وأريافها،

---

[1] جميلة معاشي: "مخطوط عن صالح باي ..."، المرجع السابق، ص 36.

[2] CH. FERAUD: "Ferdjioua et zouar'a Notes historiques sur la province de Constantine", R.A, N° 22, 1878., p 9.

[3] VAYSSETTES: Histoire de Constantine…, OP.CIT, p353.

[4] ناصرالدين سعيدوني: دراسات وأبحاث...، المرجع السابق، ص62.

[5] يذكر الباحث عبد القادر موهوبي أن صالح باي قاد حملة عسكرية على إمارة بني جلاب بوادي ريغ سنة 1783م، لكنه إنهزم فيها وعاود الكرة سنة 1788م. أنظر: عبد القادر موهوبي السائحي الادريسي الحسني: ومضات تاريخية واجتماعية لمدن وادي ريغ وميزاب وورقلة والطيبات والعلية والحجيرة، دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011، ص55.

[6] CH. FERAUD: "BEN DJELLAB Sultans de Tougourt Notes historiques la province de Constantine", R.A, N° 24, 1880., p109.

[7] صالح العنتري: فريدة مؤنسة...، المصدر السابق، ص83.

حيث استطاع الوصول إلى أقصى حدود البايلك الجنوبية. وبالرغم من وصول الباي أحمد المملوك 1818م بعده، إلا أن العنتري ينفرد بذكر هنا صالح باي فقط، ويبدو أن ذلك راجع إلى أن الباي المملوك لم يحقق مراده بالمقارنة مع صالح باي الذي نجح بالفعل في اخضاعها والحصول على غنائم كثيرة، وبالتالي إعادة إدماجها مرة أخرى ضمن رعايا البايلك.

والظاهر أن تحالف القبائل المتوطنة بوادي سوف ووادي ريغ وورقلة لنجدة توقرت، وقساوة الجو البارد بنزول الثلج،[1] وموقع توقرت وبعدها عن عاصمة البايلك، وصمود أهلها الذي عبر عنه صاحب مخطوط صالح باي[2] بقوله "عزم (الباي) على الدخول إليها فلم يستطع لأنهم حفروا خنادق خارج البلد دائرة به وأطلقوا الماء بتلك الخنادق فصارت بحيرة حصينة منعتهم من الدخول". هذه كلها عوامل أدت الى صعوبة مهمة صالح باي، الذي لم يستطع إنهاء الأمر إلا بعد سبعين يوما باستعمال أربعة مدافع.[3]

وقد أكد الجنرال *Daumas* أن صالح باي استعمل المدافع لقصف توقرت، وقطع جميع أشجار النخيل المحيطة بها، ونكل بجميع قرى وادي ريغ، فألحق بها خسائر كبيرة، وقام الشيخ أحمد الجلابي بتعويض خسائر الحرب ودفع الضرائب المتفق عليها، وهي مليون فرنك وألف بوجو عن كل مرحلة قطعها صالح باي من قسنطينة إلى توفرت[4]. وبالتالي فقد نجح الباي في قمع واضطهاد السكان وألزمهم دفع الضرائب وتقديم الولاء للسلطة المركزية بعدما كانوا شبه مستقلين عنها.

وبالرغم من هذا النجاح الذي حققه الباي فقد عبرت بعض المتون المصدرية عن هذه الحملة بأنها كانت "مشقة عظيمة وصارت مثلا يقال عام تقرت"[5]. أما الباحث ***Mercier*** فيرى أن نفوذ صالح باي بدأ ينحصر بسبب نكسات هذه الحملة واعتبرها نهاية لنجاحات الرجل، وابتداء منها أصبح الباي يعرف الفشل بعدما كان دائما سعيدا بحملاته، وحشد من رجال البلاط الذين لاحظوا أُفول نجمه بدأوا يفقدون ثقتهم فيه لذا نظموا معارضة حوله.

---

[1] CH. FERAUD: "BEN DJELLAB…", OP.CIT, p 112.

[2] جميلة معاشي: "مخطوط عن صالح باي..."، المرجع السابق، ص 46.

[3] ERNEST MERCIER: Histoire de Constantine, OP.CIT, p 280.

[4] معاذ عمراني: أسرة بني جلاب في منطقة وادي ريغ من بداية القرن 19 الى سنة 1962م _ دراسة سياسية واجتماعية_، مذكرة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة الامير عبد القادر، قسنطينة، 2003، ص 44.

[5] جميلة معاشي: "مخطوط عن صالح باي..."، المرجع السابق، ص 47.

ولكن، رجل من طينة صالح باي متعود على السلطة المطلقة لم يكن يسمح بالتقليل من قيمته؛ فعقليته في أوج قوتها وفقدت مرونة وصبر الشباب الذين يحاولون الاستيلاء على منصبه، لذلك حاول البقاء في الحكم مع كل ما حدث مستعملا العنف ولم يؤد ذلك إلا لتسريع سقوطه[1].

وفي نهاية عهده قاد مجموعة من الحملات استهدفت الحضنة وبريكة وعاقب السكان لعصيانهم، وأمر بقطع أشجار زيتونهم أمام أعينهم، وكان للحدائق الجميلة الموجودة بمنطقة مقرة وسيدي لكحل نفس المصير.[2] وهاجم ورقلة سنة 1791م واستطاع الاستحواذ على غنائم معتبرة.[3] ثم قاد حملة أخرى ضد قبيلة الحنانشة بين سنتي 1791_1792م،[4] سببها أن الباي طلب ابنة إبراهيم بن بوعزيز شيخ الحنانشة للزواج. ولكن، في الوقت الذي استعدت فيه العروس للذهاب إلى قسنطينة في محفل كبير غيرت رأيها ورفضت الذهاب، ولم يستطع أبوها إلا موافقتها على الرفض فغضب الباي بسبب هذه الإهانة وقاد حملة عسكرية ضد الشيخ ابراهيم مستعينا بابنه بوحفص الذي عينه مكان أبيه المعزول، فلجأ الشيخ الى "قلعة سنان" ثم استسلم وسُجن في قسنطينة إلى أن توفي[5].

وعلى صعيد آخر، حاول الباي ضم وادي ميزاب إلى ولايته سنة 1792م، وسبب ذلك أنه طلب من بني ميزاب بقسنطينة غرائم باهضة دون غيرهم، مما أدى إلى عداوة بين الطرفين، فتجرأ عليهم وصادر أملاكهم وأجلاهم من قسنطينة. ويرى الباحث إبراهيم بحاز "أن صالح باي الذي همّ على إذلال الميزابيين بأسرهم وسبي نسائهم وأطفالهم وبالتالي إبادتهم، ربما لا لشيء، إلا لأنهم من المذهب الإباضي، إضافة إلى هدفه في أموالهم وممتلكاتهم"،[6] ولما كان "الحقد والانتقام السريع من صفات صالح باي"،[7] فقد وجه

[1] ERNEST MERCIER: Histoire de Constantine, OP.CIT, p 282.
[2] Ibid, p 285.

[3] فلة القشاعي: النظام الضريبي...، المرجع السابق، ص 144.

[4] يقول مارسيه أنه لا يملك تاريخ هذه الحملة بالضبط، لكنه يرجحها بين السنتين المذكورتين مستندا عن الحملة الأخرى التي سبقتها على النمامشة سنة 1791م، حيث يقول أنه لو كان الحنانشة على خلاف مع صالح باي لما تحالفوا معه ضد قبيلة النمامشة لسرقة قافلة الجمال التي سنذكرها في المطلب الموالي.

[5] ERNEST MERCIER: Histoire de Constantine, OP.CIT, p 285.

[6] إبراهيم بحاز: "ثلاث رسائل مخطوطة حول الإباضية الميزابيين بالجزائر في العهد العثماني"، المجلة التاريخية المغاربية، العددان 89_90، منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، زغوان، 1998، ص 239.

[7] رشيد بورويبة : قسنطينة، سلسلة الفن والثقافات، وزارة الاعلام والثقافة، الجزائر، 1978، ص 117.

طلبا إلى حسن باشا أن يهب له وادي ميزاب ليكون تحت سلطته وولايته، مضمرا نيته في الانتقام لنفسه بتشريده أهل ميزاب والإيقاع بهم. وهذا ما تبينه الرسالة التي بعثها علماء بني ميزاب إلى بابا حسن والتي جاء فيها:" ولما وقع في سنة ستة ومائتين وألف من أمور عظام وأهوال جسام، ومن جملتها أن عدو الله والمسلمين الباي صالح صاحب الولاية الشرقية عليه اللعنة المتصلة إلى يوم الدين والتصلية بنار الجحيم والتعذيب بأنواع العذاب الأليم، قد دخل بلد الجزائر واشترى من المولى حسن الدولاتلي بلاد بني ميزاب، أن يكون أميرا عليهم بعدة من ألوف لا تحصى وأن يجعل أمورهم بيده وجهز له ما جهز مما لا يعد ومما يستقصى وقد تمنى ذلك اللعين وترجى أسرهم وسبي النساء والصغار..."[1].

ولما قرأ الداي حسن هذه الرسالة أجاب عنها، وأبطل ما عهد به إلى صالح باي من ضم وادي ميزاب إلى ولايته، وهذا ما أكدته الرسالة:"... فكتب إليه أن يرجع عما عزمه ويخلي سبيل بني ميزاب، وحذره وأكّد عليه أن لا يذكرهم ولو باللسان مادام مرور الزمان، فلما وصله خبر المولى أنف وأبى واستكبر وعلا وغضب غضب الخيل على اللجام وغاظه الحال (كذا) حين رد عليه وأبطل أمره بين الأنام..."[2].

إذن هذه هي أهم الحملات العسكرية التي قادها صالح باي عل شيوخ القبائل، والتي يبدو أنها شملت مختلف أنحاء البايلك، واستهدفت حتى الأقاليم البعيدة التي لم يجرأ أحد من البايات قبله دخولها كتوقرت ومحاولته لضم وادي ميزاب. وهذا ما أدى إلى ردود فعل واضحة خلقت له عداءات كثيرة جلبت معها سخط المجتمع الريفي، ومن ورائه شيوخ الزوايا باعتبارهم حلقة وصل جمعت بين ما كان ينشده المجتمع الريفي من أمان، وما تنشده السلطة المركزية من استقرار سياسي واجتماعي، فما هي مظاهر هذا العداء؟

2_ الصراع بين صالح باي وشيوخ الزوايا.

لقد كانت الزاوية في الأصل تُعرّف على أنها مدرسة ومقر استرشاد ومستودعا مؤمّنا، ومحلا لإطعام الطعام، وملجأ أمان.[3] بيدا أن هذه الوظائف وبقدر ما كانت تعبر عن أدوار محددة كانت تُخفي في طياتها أسرار تفاعل الزاوية مع المجتمع والسلطة على

[1] إبراهيم بحاز: المرجع السابق، ص 241.

[2] المرجع نفسه، ص 242.

[3] محمد المازوني: "وظائف لزاوية المغربية، الجزء الأول"، مقال منشور في موقع ارنتروبوس ، الموقع العربي الأول للانتربولوجيا والسوسيوانترولوجيا، ص1.

حد سواء، فأصبحت مكونا ضروريا وقاعدة أساسية في توازن المجتمع الريفي القسنطيني، فقد تعوّد شيوخ الزوايا على التبجيل والامتيازات الخاصة كالإعفاء من الضرائب والمغارم السلطانية تكريما لهم وتبركا بهم وبذريتهم الصالحة، غير أن الوضع تغير في عهد صالح باي لأنه استحدث عدة أمور أولها توحيد نظام الضرائب وإلغاء الامتيازات.

ويبدو أن هذا ما أزعج شيوخ الزوايا الذين كانوا يستفيدون من الإعفاءات على عهد البايات السابقين؛ إذ تسبب ذلك في نقص الموارد التي كانوا يحصلون عليها من عوائد أهالي الريف، كما تعرضت أملاكهم للتغريم والمصادرة. فضلا عن أن صالح باي كونه "جنديا، مُنظِما ومشيّدا"،[1] دائما "على أُهبة الإستعداد للحرب"،[2] قد استحكم في البايلك، ولم يعد بحاجة إلى من يعينه على تطويع الرعية عامة، والمجتمع الريفي بالخصوص، الذي بالغ في استغلاله استغلالا ماديا مجحفا مكنه من إبراز عظمة عاصمته وتحديثها.

وهذا ما أدى إلى تذمر رجال الدين وشيوخ الزوايا الذين باتوا يزدرون تصرفاته، ويقومون بتوجيه الخطب المعادية له، ويحرضون العامة ضده. ومن أهم المتذمرين من الباي نجد المرابط سيدي محمد الغراب الذي تميز بانتقاداته الحادة وملاحظاته الشديدة تجاه الباي؛ حيث كان أول من تجرأ علناً الوقوف في وجه الباي دون الخوف من العقاب، لأنه كان يعتقد أن سمعته الكبيرة في أوساط المجتمع القسنطيني وشعبيته الهائلة التي تصل لدرجة القداسة ستحميه، لكن الباي حكم عليه بالإعدام بالرغم من توسل رجال الدين له وتم تنفيذ الحكم على مرأى الناس[3].

وقد اقترنت هذه الحادثة بأسطورة غريبة تقول أنه عند ضرب عنق المرابط وسقوط رأسه على الأرض، تحولت جثته المشوهة بالدم إلى غراب، وحلق نحو حديقة الباي وألقى عليه اللعنة.[4] فتأثر صالح باي بهذا الحدث وندم على فعلته وقام ببناء ضريح للشيخ في الحامة. ومن حينها ظل المكان يحمل اسم سيدي محمد الغراب،[5] ومن الغريب أن هذه الأسطورة الخرافية ظلت متداولة إلى يومنا هذا بالرغم من أن بعض الباحثين[6] قد فصلوا

[1] رشيد بورويبة : المرجع السابق، ص 117.

[2] VAYSSETTES, E. Histoire de Constantine ..., OP.CIT, p 333.

[3] Ibid, p369.

[4] ERNEST MERCIER: Histoire de Constantine, OP.CIT, p 283.

[5] VAYSSETTES: Histoire de Constantine…OP.CIT, p370.

[6] جميلة معاشي: الإنكشارية والمجتمع...، المرجع السابق، ص ص 105_106.

فيها اعتمادا على ابن الفكون في منشوره الذي يرجع إلى سنة 1638م، حيث ذكر فيه:" محمد الغراب المدفون بعين الحامة خارج قسنطينة".[1] وهذا يعني أن قصة سيدي محمد الغراب ترجع ربما إلى القرن 17م وليس إلى عهد صالح باي.

من جهة أخرى، وبالرغم من مآزرة شيوخ الزوايا لصالح باي في صد هجوم المسيحيين الاسبان، لم يتوانوا عن اظهار معارضتهم الشديدة لسياستة التعسفية تجاه الأرياف. ويعتبر الشيخ أحمد الزواوي مثالا حيا على ذلك؛ فقد عبر عن استنكاره ورفضه لهذه السياسة بالرغم من أنه كان صديقا وناصحا لصالح باي، ولكن ما لبثت هذه العلاقة حتى توترت بسبب تعنت الباي وعدم سماعه للشيخ الذي طلب منه التخفيف من قسوته مع المجتمع الريفي[2].

ويبدو أن موقف هذا الشيخ كان نابعا من إحساسه كونه ناطقا باسم المستضعفين من سكان الريف، الذين هدتهم الضرائب وسببت لهم الكثير من المتاعب الاقتصادية والاجتماعية وحتى النفسية. كما ساهمت من جانب آخر في رسم معالم الشروط لتعاظم مكانة شيوخ الزوايا ومن جملتهم الشيخ أحمد الزواوي الذي اتسعت قاعدة اللاجئين إليه، عندما استقر في جبل أوزغار وقام بتوجيه الخطب المعادية للباي والتحريض ضده.[3] لذلك قام صالح باي بإرسال محلة تتألف من الأتراك فقط[4] لمحاربة المرابط وأتباعه الذين فروا، وقامت المحلة باجتياح وتخريب المنطقة كلها، لكنها فشلت في إلقاء القبض على الشيخ، لأن أتباعه تمكنوا من تهريبه وإنقاذه. وبمجرد أن علم الشيخ أن أراضيه تتعرض للتخريب أوقد النار في كل القرى الصغيرة التي مر بها، وقد تبعه عدد كبير من المؤيدين سواء من المدينة أو الريف والذين كان عددهم لا يقل عن 300 رجل.[5]

---

[1] عبد الكريم الفكون: منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية، تقديم وتحقيق وتعليق: أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الاسلامي، بيروت، 1987، ص 117.

[2] VAYSSETTES: Histoire de Constantine ..., OP.CIT, p 370.

[3] Ibid, p 370.

[4] نعتقد أن سبب إرسال الباي لمحلة تركية فقط دون مشاركة العناصر المحلية فيها دليل واضح على فقدان الباي للثقة في العناصر المحلية من جهة، وأن لهذا الشيخ كرامات كثيرة منحته رصيدا معنويا لا يستهان به في الأوساط الريفية القسنطينية، ومن جملتها العناصر المحلية للجيش من جهة أخرى.

[5] VAYSSETTES: Histoire de Constantine ...OP.CIT, p 371.

وتذكر الأسطورة أنهم عندما وصلوا إلى قرية مشتى النهار فاجأهم ثعبان كبير جدا فأمرهم الشيخ بقتله لكنهم فشلوا في ذلك، فنزل الشيخ من حصانه ووضع رجله على الثعبان ولواه حتى مات، ثم استدار نحو الحشود المتعجبة وقال بأعلى صوته "الغلبة لله وحده، ونحن عبيده ولا نخشى مخلوق من دون الله"، وأمر كل أتباعه بالعودة إلى منازلهم وتوجه هو أيضا إلى منزله.[1] ومباشرة بعث صالح باي فرقة من الإنكشارية لإلقاء القبض على الشيخ، فسارت الفرقة في الليل لمدة 8 ساعات، وبشروق الشمس وجدوا أنفسهم مازالوا في كدية عاتي فأصيبوا بخيبة أمل، لأنهم لم يفعلوا شيئا سوى الدوران حول الكدية طوال الليل.

وبعد مدة قصيرة تراجع الباي عن محاولته لقتل الشيخ وبعث له بعدة هدايا، لكن المرابط قد دعا عليه وعلى أبنائه وعلى أولاد بن زكري باللعنة الالهية.[2] ومع ذلك استمر الباي في عدائه لشيوخ الزوايا فاستولى على جمال زاوية سيدي عبيد، هذا الأخير الذي دعا عليه أيضا وشكاه إلى الداي بالجزائر.[3] وبالتالي فقد كان سخط المرابطين وشيوخ الزوايا عاملا حاسما في زوال سطوة صالح باي، ومن ورائه تضعضع الوجود العثماني بالبايلك من خلال اشتعال الثورات الريفية بقيادة المرابطين، وهذا ما سيأتي توضيحه لاحقا.

بعد دراسة أهم الحملات التي نظمها صالح باي ضد المجتمع الريفي، حاولنا إدراج جدول إحصائي متبوع بمخططين بيانيين لتوضيح أطوار الصراع وتفاقمه بين صالح باي والمجتمع الريفي القسنطيني. وقبل ذلك نود أن نشير منذ البداية إلى إشكال معرفي يعترض كل من يريد الخوض في موضوع إحصاء هذه الحملات وانتشارها بالبايلك خلال الفترة الأخيرة من الوجود العثماني، ويتعلق الأمر بانعدام المعطيات المرقمة التي واجهتنا أثناء الإحصاء. فالموروث الأرشيفي ومن بعده المصادر المحلية تبدو فقيرة جدا وتكاد تخلو من أي مستند إحصائي نرتكز عليه في هذه الدراسة، لكننا خضنا في الأمر ولو

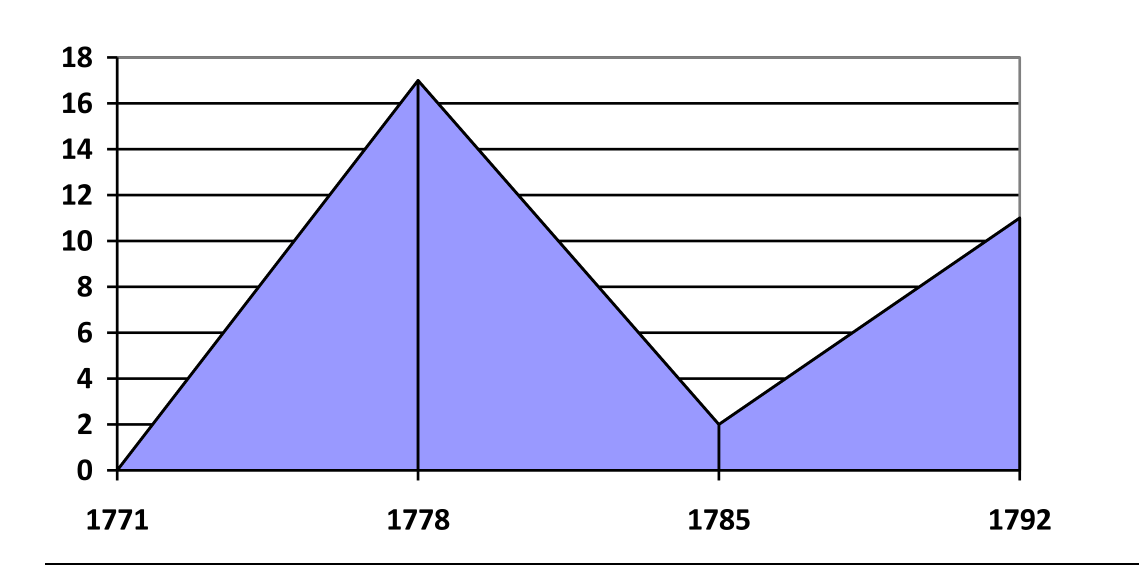
[1] VAYSSETTES: Histoire de Constantine ...OP.CIT, p 372.
[2] ERNEST MERCIER: Histoire de Constantine, OP.CIT, p 281.
[3] Ibid, p 284.

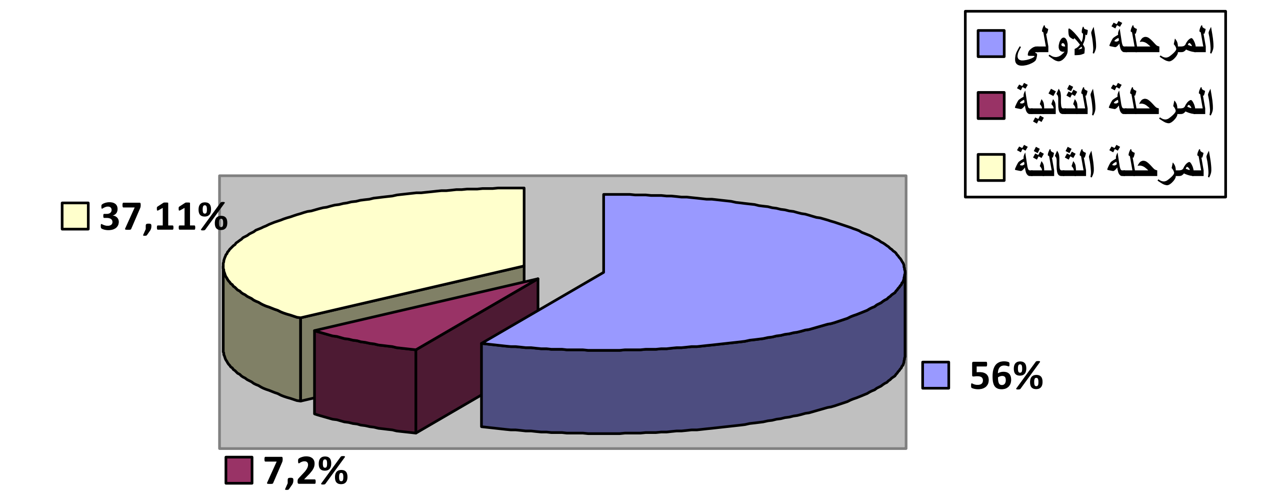
بصورة تقريبية غير متكاملة اعتماداً على ما توفرنا عليه من نصوص لفهم آليات تطور نفوذ الباي في الأرياف القسنطينية والجدول كالتالي

الحملة	القبيلة	مجالها	السنة	المـصـدر	الصفحة
1	بني عباس	البيبان	1772	MOULOUD GAID: OP.CIT	40
2	جهات القرقور	سطيف	1772	فلة القشاعي: النظام الضريبي في الريف القسنطيني	144
3	وادي الحمام	فرجيوة	1772	فلة القشاعي: النظام الضريبي في الريف القسنطيني	144
4	أولاد نايل	بوسعادة	1773	VAYSSETTE,Histoire de Constantine	272
5	أولاد زايد	جنوب قسنطينة	1773	VAYSSETTE. Histoire de Constantine	333
6	الزيبان	بسكرة	1773	ERNEST MERCIER: Histoire de Constantine	272
7	أولاد بوعون	الاوراس	1773	FERAUD ; les zmoul (R.S.A.C) 1871	56
8	أولاد عمور	الأوراس	1773	ERNEST MERCIER: Histoire de Constantine	273
9	دشرة النميلة	بسكرة	1773	ERNEST MERCIER: Histoire de Constantine	273
10	قرى زنينة	الاغواط	1773	ناصر الدين سعيدوني: دراسات وأبحاث	61
11	قرى أفلو	أفلو	1773	ناصر الدين سعيدوني: دراسات وأبحاث	61
12	قرى تاجمونت	الاغواط	1773	ناصر الدين سعيدوني: دراسات وأبحاث	61
13	قرى الاغواط	الأغواط	1773	ناصر الدين سعيدوني: دراسات وأبحاث	61
14	قبيلة الزمول	جنوب قسنطينة	1773	VAYSSETTE. Histoire de Constantine	336
15	قبيلة السقنية	عين مليلة	1773	VAYSSETTE, Histoire de Constantine	336
16	قبيلة أولاد عاشور	فرجيوة	1776	ERNEST MERCIER: Histoire de Constantine	279
17	الزيبان	بسكرة	1776حوالي	ERNEST MERCIER: Histoire de Constantine	272
18	قبيلة أولاد عاشور	فرجيوة	1781	ERNEST MERCIER: Histoire de Constantine	279
19	وادي ريغ	توقرت	1783	عبد القادر موهوبي الحسني: ومضات تاريخية اجتماعية	54
20	الزيبان	بسكرة	قبل 1788	VAYSSETTE. Histoire de Constantine	353
21	الزيبان	بسكرة	قبل 1788	VAYSSETTE, Histoire de Constantine	353
22	توقرت	توقرت	1788	صالح العنتري: فريدة مؤنسة	83
23	قبيلة الحنانشة	سوق اهراس	1792_1791	ERNEST MERCIER: Histoire de Constantine	285
24	قرى ورقلة	ورقلة	1791	فلة القشاعي: النظام الضريبي في الريف القسنطيني	144
25	قرى الحضنة	المسيلة	1792	ERNEST MERCIER: Histoire de Constantine	285
26	قرى بريكة	الاوراس	1792	ERNEST MERCIER: Histoire de Constantine	285
27	قرية مقرة	المسيلة	1792	ERNEST MERCIER: Histoire de Constantine	285
28	وادي ميزاب	غرداية	1792	إبراهيم بحاز: ثلاث رسائل مخطوطة حول الاباضية	89
29	جبل أوزغار	قسنطينة	1792	VAYSSETTE, Histoire de Constantine	370
30	قبيلة النمامشة	تبسة	1792	ERNEST MERCIER: Histoire de Constantine	284

المصدر: الجدول من وضع الباحثة.

منحنى بياني ودائرة نسبية يوضحان مراحل نفوذ صالح باي في الريف القسنطيني.





المصدر: المخططين من وضع الباحثة.

من خلال المخططين السابقين نلاحظ أن عدد الحملات التي نظمها صالح باي ضد الأرياف القسنطينية هو 30 حملة، وذلك حسب المصادر والمراجع التي استطعنا الحصول عليها. هذا ما يدل على اتساع آفاق الباي وميله لبسط نفوذه على مختلف أرياف البايلك. الأمر الذي أكده العنتري في وصفه للباي حسين بن حسن بوحنّك الذي حكم البايلك بعد صالح باي قائلا:" لم يصنع شيئا قط من كون الوطن متهنيء والرعية طائعة من قبله".[1] وهو ما يقيم الدليل على أن فترة صالح باي هي فترة القبضة الحديدية على سكان الأرياف، وقد ارتأينا تقسيم هذه الفترة إلى ثلاث مراحل لتوضيح الرؤيا أكثر:

المرحلة الأولى(1771_1778م): وفيها أكبر نسبة من الحملات التي نظمها صالح باي ضد الأرياف القسنطينية والتي تعادل **56%**، ويمكن تفسير هذه النسبة المرتفعة إلى كون الباي قد تميز في بداية عهده بالشدة في الحكم، وهذا ما عبر عنه أحمد النقّاد، صاحب مخطوط صالح باي، قائلا:" كان في أول ولايته شديد الحكم حتى قيل أن من يقابله في جريمة ارتكبها يأمر بقتله إلا من حفظه الله منه".[2] فضلا على أن هذه المرحلة خاصة بترسيخ سيطرة الأتراك على الريف القسنطيني جراء تناقص المدخول البحري، فقد كان طبيعيا أن تتكثف حملات الباي لتطويع الرعية وانقيادها، وإظهار سيادة الباي في بعض المجالات التي طالما تميزت بالاستقلال أو المماطلة في دفع الضرائب، خاصة بعد تطور النظام الضريبي بالبايلك.

المرحلة الثانية (1778_1785م): وفيها نسبة قليلة جدا من الحملات ما يعادل **7,2%**، ويبدو هنا أن صالح باي قد نجح فعلا في تطويع الرعية بشكل جيد، مما جعله يتوقف نسبيا عن مهاجمة الريف، بالإضافة إلى انشغاله بتطوير عاصمته قسنطينة، وهو ما أكده أحمد النقّاد بقوله :" ولما استقام له الأمر، وصفَا (كذا) له المشرب، التفت إلى تعمير البلد وشد سوراته (أسواره) ليعظم بذلك ويذكر اسمه في الأمصار ويعلو ذكره في الأقطار"[3].

المرحلة الثالثة (1785_ 1792م): وفيها تتصاعد الحملات العسكرية بشكل متزايد حيث بلغت نسبتها **37,11%**، وهنا يبدو واضحا أن الباي بدأ يفقد هيبته خاصة منذ حملته على توقرت، والتي اعتبرها *"Mercier "* أنها نهاية نجاحات الرجل وانحسار عظمته؛ إذ

[1] صالح العنتري: فريدة مؤنسة...، المصدر السابق، ص 83.

[2] جميلة معاشي: "مخطوط عن صالح باي..."، المرجع السابق، ص37.

[3] المرجع نفسه، ص 38.

أثار هذا الهجوم حفيظة حلفاء الباي من شيوخ القبائل فضلا عن تذمر شيوخ الزوايا، وضغط الداي بالجزائر الذي كان يربط بقاءه بمنصبه بما كان يقدمه من ضرائب. لذا نجده يلجأ مرة أخرى للقوة، لكن هذه المرة أدت إلى هلاكه، وهو ما أكده العنتري بقوله: "ولما قرب أجله وحانت وفاته تبدلت سيرته وانعكست حقيقته، وصار يظلم ناس الزاوية حتى أفضى به ذلك الى الهلاك والهاوية"[1].

ونعتقد أن فترة صالح باي قد جمعت المتناقضات، ففي الوقت الذي تفاقمت فيه صراعاته مع المجتمع الريفي وكثرت عداءاته مع شيوخ القبائل والزوايا، كان ولازال إلى يومنا هذا يحظى بسمعة طيبة جدا في أوساط المدينة. كما اقترن اسمه ببناء مدينة قسنطينة الحديثة، ونظن أن هذا التناقض راجع لحقيقتين لا بد من ذكرهما في هذا الموضع، فالحقيقة الأولى هي أن شعبية صالح باي كانت عامة نتيجة لمواقفه البطولية والناجحة في صد الهجوم الاسباني على الجزائر، والتي أبدى فيها الرجل شجاعة فائقة وتكتيك مميز افتقر له الأتراك آنذاك، وهذا ما أكده صاحب مخطوط الزهرة النيرة بقوله أن: "الباي صالح بذل جهده وطاقته في الذب عن المسلمين ببدنه وماله"[2] .

أما الحقيقة الثانية فتتمثل في سياسة صالح باي الهادفة إلى تحديث مدينة قسنطينة على حساب أرياف البايلك، ففي الوقت الذي كانت فيه العاصمة في أوج الرخاء الاقتصادي والاجتماعي، تحولت فيه المناطق الريفية الى مسرح للعمليات العسكرية. وهو ما عبر عنه المؤرخ أبو القاسم سعد الله[3] عند مقارنته للحياة الحضرية والريفية مؤكدا على أن المدينة تعيش في نوع من الرخاء على عكس الريف الذي كان يعيش حياة الفقر والإهمال، متروكا للحياة القبلية وظلم الحكام والخرافة والجهل، لذلك كثرت الحروب الداخلية. فكانت الأرياف تعاني من ويلات الصراع القبلي على مواطن العيش والكلأ من جهة، وتخريب المحلة من جهة ثانية، وزيادة الصراع على السلطة بين أفراد الأسر النفوذية من جهة أخرى، وهذا ما سنتطرق إليه في المبحث الموالي.

---

[1] صالح العنتري: فريدة مؤنسة...، المصدر السابق، ص 83.

[2] الزهرة النائرة فيما جرى في الجزائر حين أغارت عليها جنود الكفرة، مخطوط في المكتبة الوطنية الجزائرية، رقم المخطوط:2603، رقم الوثيقة: 45، د.ت.

[3] محمد ابن عمر العدواني: المصدر السابق، المحقق، ص 25.

ثانيا_ تزايد صراع الأسر المتنفذة في الريف القسنطيني:

الواقع أن الصراع الأسري كان من أساسيات الحياة القبلية في الأرياف القسنطينية منذ أمد بعيد. لكن يبدو أن هذه الظاهرة قد ازدادت تجذّرا في المجتمع الريفي خلال القرن الثامن عشر، لدرجة أن الباحث الفرنسي *Féraud* استطاع القول أنه لو يُسأل أي قبائلي عن أسرته أو قبيلته فلا بد أن تتوقع هذه الإجابة: هناك دم بيني وبين فلان، إن الثأر كان واجبا.[1] وإذا سلّمنا بأن المحرك الاقتصادي هو التفسير الوجيه لفهم كثير من الصراعات القبلية التي عرفتها المرحلة، فما هو إذن تفسير استمرارها وحدتها بين هذه الأسر بعدما كونت لنفسها ثروة تكفيها وتكفي أفراد قبيلتها؟ لذلك نعتقد أن الاقتصار على هذه العوامل فقط لن يعطي للظاهرة حقها في التحليل؛ إذ سيكون من الصعب علينا فهم لِمَ تتحارب هذه الأسر بالرغم من أن لها من الامكانيات المادية ما يغنيها عن ذلك، اللّهم إلا في حالة رد أي تعدٍ أو هجومٍ عليها؟

الحقيقة أنه فضلا عن كل الدوافع الاقتصادية التي تدفع هذه الأسر إلى الصراع والاستمرار فيه لمراكمة ثروات قد تكون معرضة للنهب في أي لحظة، يبدو الصراع في جانبه الآخر وسيلة هامة لغاية سياسية محكّمة، كان الدافع الرئيسي فيها هو سياسة فرق تسد التي استطاع من خلالها بايات قسنطينة تفتيت التجمعات القبلية الكبرى التي رأوا فيها قُوةً تُهدد نُفوذهم. فضلا عن تشجيع التسابق على المناصب وكسب الأموال بإيعاز من البايات أنفسهم خاصة بعد تولي أحمد القلي 1756م أمور بايلك قسنطينة، هذا الأخير الذي استطاع أن يُقحم أصهاره من أسرة بن قانة في مشيخة عرب الصحراء، وذلك بالموازاة مع أسرة بوعكاز الحاكم الشرعي لها، مما أدى إلى بروز صراع قوي بين الأسرتين أسفر عن احتفاظ الشيخ بوعكاز بالمشيخة، وحصول أسرة بن قانة على المشيخة الشكلية[2].

وبوفاة الباي أحمد القلي ومجيء صالح باي، تمكن الأخير من بث الشقاق حتى في الأسرة الواحدة كما حصل مع ابراهيم بن بوعزيز وابنه بوحفص من أسرة أحرار الحنانشة بالشرق الجزائري، والتي كانت من أقوى الأسر المتنفذة بالبايلك، غير أنه ومنذ نجاح صالح باي في بث الشقاق بين أفرادها أصبح وضعها متقلبا، ويتجه بسرعة إلى

[1] شارل فيرو: تاريخ جيجلي، المصدر السابق، ص 51.

[2] جميلة معاشي: الأسر الحاكمة...، المرجع السابق، ص ص 272_ 274.

الانهيار، فكان شيوخهم يتغيرون بسرعة تغير البايات في نهاية عهدهم، إلى أن انتهى حكم الأسرة بنهاية الحكم العثماني.[1] أما في الجنوب فقد حاول صالح باي بدايةً تثبيت محمد بن قانة في مشيخة الزيبان، ما أدى إلى زيادة تضارب هاتين الأسرتين، فاجتمع الباي بكل من الشيخ الذباح والشيخ محمد بن قانة قرب بسكرة واتفق معهما على أن تكون إقامة ابن قانة ببسكرة وإقامة بوعكاز بمنطقة سيدي خالد ويتسع نفوذه حتى وادي سوف[2].

من جهة أخرى نشب صراع آخر بين قبائل سوف التي تدخلت في الصراع القائم بين أسرة بني جلاب، وأسرتي بن قانة وبوعكاز مما أدى إلى تقسيمهم إلى صفين:

- **الصف الأول:** ويجمع الطرود، الواد، قمار، بهيمة، دبيلة، قبائل سعيد، أولاد نمر، أولاد سايح، الشعابنة، مخادمة وورقلة، وهي القبائل التي تحالفت مع أسرة بوعكاز.
- **الصف الثاني:** ويضم سكان زقوم، ترزوت، أولاد سعود، وهي المجموعة التي انحازت الى أسرة بن قانة و إلى أهالي توقرت وواد ريغ.[3]

وهذا ما أدى إلى تدخل حاكم توقرت لمهاجمة سوف، فخاض معارك طويلة مع السكان، لكن صالح باي الذي كان يراقب الوضع عن طريق خليفته بن قانة قام باستدراجه وقتله بالسم، وعين ابراهيم بن جلاب الذي سرعان ما زُج في السجن مع بقية اخوته ثم نصب ابراهيم بن قانة ثم القيدوم بن قانة، غير أن سكان المنطقة رفضوا حكم هذه الأسرة، فلم يجد صالح باي بدا إلا إطلاق سراح ابراهيم بن جلاب وإعادته للحكم، وقام في نفس الوقت بإطلاق سراح إخوته لمنافسته على الحكم وبالتالي يضمن ضعف الأسرة وتبعيتها[4].

ولما تولى السلطان فرحات بن جلاب الحكم تمكن بقوته من تهدئة المنطقة، لكن سرعان ما توفي تاركا وراءه صراعا أمّر من السابق، حيث أن ابنه الخازن لم يكن قد بلغ سن الرشد بعد، فتولى مكانه إبن عمه ابراهيم بن أحمد مؤقتا لحين كبره، غير أنه رفض التخلي عن المنصب المؤقت، وهنا يدخل الصراع طرف آخر وهو "فرحات بن سعيد بن

[1] جميلة معاشي: "أسرة أحرار الحنانشة بين بايات قسنطينة وبايات تونس"، المجلة التاريخية المغاربية، العدد 128، تونس،2007، ص 161.

[2] جميلة معاشي: الأسر الحاكمة...، المرجع السابق، ص 276.

[3] فلة القشاعي: الريف القسنطيني...، المرجع السابق، ص 263.

[4] جميلة معاشي: الأسر الحاكمة، المرجع السابق، ص 309_310.

بوعكاز" إلى جانب صهره الخازن وحليفهم محمد بن أحمد واستطاعوا الإطاحة بإبراهيم، وتولي الخازن الحكم، إلا أن الحليف محمد غدر به أيضا وأخذ منصبه سنة 1805م[1].

ومنذ ذلك الحين أصبحت الأسرة في صراع دامي حول السلطة، ولعل أبرز دليل على ذلك هو تلك الرسالة التي بعثها آخر سلاطين بني جلاب "سليمان بن علي الجلابي" إلى الحاكم الفرنسي قصد الدخول في طاعته، والتي تبين بوضوح وصراحة تفوق العادة ذلك التطاحن المستمر بين أفراد أسرة بني جلاب حول السلطة، حيث يقول السلطان سليمان في رسالته[2] :"...وهذه سيرة قديمة من عهد أوايلنا، ما يتولى سلطان في بلادنا إلا بالقتل، سنقص عليكم سيرة أوايلنا، لما شاخ الشيخ محمد بن أحمد بن جلاب قتل أخويه الشيخ ابراهيم وعبد الرحمن وابن عمه الخازن، ثم تولى بعده ابنه الشيخ عمر بن محمد، قتل أخاه الشيخ أحمد وابن عمه محمود، ثم تولى بعده الشيخ ابراهيم بن محمد قتله أخوه علي، ... هذا الذي شهدناه وكذلك أسلافنا الأولون..."[3].

وفي السياق نفسه يكشف لنا المترجم *Féraud* عن مدى استفحال هذه الظاهرة التي أصبحت تدخل في نطاق المألوف، وما جرت به العادة في الأسر المتنفذة بالبايلك آنذاك. حيث يذكر الصراع الحاد الذي كانت تعيشه أسرة المقراني بمجانة خاصة بعد وفاة "الحاج ابن بوزيد المقراني" ورجح ذلك بين سنتي(1780_1790)، حيث كان هذا الأخير يُهدئ من صراع أخويه "عبد السلام" حاكم الحضنة، و"بورنان" حاكم مجانة، ومنذ "وفاة الحاج بن بوزيد" لم يعرف أولاد مقران سوى شّن سلسلة لا تنتهي من الصراعات، والتي زادت حدتها مع سياسة البايات التي كانت تثير التنافس بين أفراد الأسرة بدلا من تخفيفها. وذلك بطريقة سهلة بتعبير "*Féraud*" وهي دعم طرف ضد طرف آخر إلى أن قُضي على جميع حكام الأسرة ولم يبق منهم إلا "عبد ربه" الذي كان خارج هذا الصراع[4].

هذا وقد بقيت هذه الأسرة تعاني من الصراع والتقسيم والتجزئة، مثلها في ذلك مثل بقية الأسر النفوذية بالريف القسنطيني إلى غاية الحملة الفرنسية على الجزائر، حيث تناسى أفراد أسرة المقراني خلافاتهم وانطووا تحت لواء الحاج أحمد باي لمحاربة

---

[1] جميلة معاشي: المرجع نفسه، ص 311.

[2] للإطلاع على الرسالة كاملة، أنظر الملحق رقم: 10.

[3] CH. FERAUD: "BEN DJELLAB Sultans de Tougourt Notes historiques sur la province de Constantine", R.A, N° 23, 1879., pp50_51.

[4] CH. FERAUD: 3Bordj-bou-Arreridj", in R.S.A.C , Algeria, 1871_1872, pp265_266.

فرنسا.[1] وبعد الهزيمة التي لحقت بهم في الجزائر عادوا إلى مواطنهم وانقسموا مرة أخرى، ووجدوا فرصة للتخلص من الحاج أحمد باي الذي عانوا من استبداده ونظامه الفاسد بالرغم من المصاهرة التي تجمع بينه وبينهم.[2] وقد كان "ابن القندوز المقراني" يتصدر التمرد الذي نُظم ضد الباي، ومعه قبائل كثيرة منها قبيلة أولاد عبد النور، ورغم أن عدد الفرسان المتمردين كان حوالي 3 آلاف فارس إلا أن الباي هزمهم، وأعطى مثالا ساطعا على مهارته، وهنا يصفه *Féraud* قائلا أن أحمد باي يمتلك قدرة عظيمة وهي أنه يستطيع السيطرة على السكان ويحركهم وفقا لآرائه[3].

إذن، إذا كان الصراع في جوهره تأكيدا على استقلال كل حاكم ينتمى إلى هذه الأسر على حدا، فإنه يصبح في ضوء هذا التحليل ضروريا على كل فرد منها الاسهام في حالة الصراع، وفي معادلة القوة والغلبة لتأكيد وجوده، وحفظ كيانه. ومنه يثبت لدينا أن المقدرة الحربية التي يمتلكها كل فرد من هذه الأسر هي شرط استقلاله وتميزه وبقائه في منصبه. ما أدى إلى حدوث غليان سياسي في الريف القسنطيني، حيث تطور الصراع من اقتصادي عصبي إلى سياسي يشبه إلى حد كبير الصراع الحضري، لدرجة أن بعض شيوخ هاته الأسر أصبحوا يتشبهون بالبايات في المدينة. فهذا أحمد بن عاشور بن بوعكاز الفرجيوي أصبح يتشبه بالحاج أحمد باي ويقلده في خيره وشره، فكان يعاقب الفلاحين برميهم من أحد كهوف حمام أولاد عاشور بفرجيوة والذي يدعى "كهف الزوابق"، كما يفعل ذلك الحاج أحمد باي الذي كان يرمي بالسكان من كهف وادي الرمال بقسنطينة.[4]

وبغض النظر عن كل هذا، فالأخطر من ذلك هو نجاح البايات في سياستهم لتشتيت هذه الأسر بالفعل، لدرجة أن بعض أفرادها أصبحوا لا يهتمون إلا باعتلاء المناصب ولو كان ذلك على حساب أرضهم واستقلالها، وهذا ما برز بوضوح من خلال اتصال بعض حكام هذه الأسر بالفرنسيين والانطواء تحت حكمهم مادام هؤلاء يضمنون لهم مناصبهم!.

---

[1] CH. FERAUD: "Bordj-bou-Arreridj", OP.CIT, p 303.

[2] الحاج أحمد باي كان متزوجا من عيشوش بنت الشيخ ابن عبد السلام المقراني. نفس المرجع، ص 299.

[3] Ibid, p 304.

[4] محمد الصادق مقراني: "فج مزالة عبر التاريخ، الملتقى الأول والثاني لكتامة _ فج مزالة عبر العصور_" دار الفجر للطباعة، قسنطينة، 2005، ص 16. هذا وقد زار بعض الأساتذة المتخصصين لموقع هذا الكهف بفرجيوة ولاحظوا أنه يشبه إلى حد ما كهف وادي الرمال بقسنطينة.

• ثالثا_ قيام الثورات المحلية ضد سلطة البايلك في الريف القسنطيني:

_ ثورة ابن الاحرش أنموذجا_

لقد كان الريف الجزائري منذ القدم أكثر المناطق التي دفعت ضريبة حب الاستقلال، فالمجتمع الريفي إلى جانب اتصاله بالسلطة المركزية كان له جوانبه الخاصة، فيها ما يرضيه وما يسخط عليه. ونتيجة لإجحاف الضرائب وعنجهية الأتراك في جمعها، والتنكيل المستمر الذي تعرض له المجتمع جراء المحلة، لم يجد الريفيون بعد تعبيرهم المحتشم من تمرد وعصيان إلا الإلتفاف حول أول متزعم لهم كائناً من كان، وتفجير ثورتهم آملين في التخلص من إذلال الأتراك ودفع الإتاوات التي باتت خطرا دائما يهدد اقتصادهم ويزيد من شقائهم.

هذا، وقد أجمعت جل المصادر على أصول إبن الأحرش المغربية واتباعه للطريقة الدرقاوية، واستعماله للحيل بقصد إنجاح ثورته، ويلخص الزياني ذلك قائلا:" ابن الأحرش فتى مغربي، مالكي مذهبا، درقاوي طريقة، درعي نسبا، جاء لتلك القبائل وادعى أنه الإمام المهدي المنتظر، وكان صاحب شعوذة وحيل وخبر، فرأت منه الناس العجائب، وأظهر لهم الأمور الغرائب".[1] ذلك لأنه طلب من أحد أتباعه المخلصين بأن يمكث في قبر خاص، ويخاطب القبائل مؤكدا لهم بأن الوقت قد حان للقضاء على الأتراك الذين ظلموهم، وأنه المهدي المنتظر الذي سينقذهم ويمنحهم عنابة وقسنطينة وحتى الجزائر.[2]

وبالفعل نجح ابن الأحرش بهذه الحيلة في أن يجمع حوله آلاف المتذمرين من السياسة الجبائية للأتراك، وعبر عن كثرتهم الزياني بقوله:" فنصروه وعقدوا له البيعة حزبا حزبا".[3] ومهما يكن من أمر ابن الأحرش، فقد أوردت بعض المصادر علاقة الثورة بتونس تارة وإنجلترا وفرنسا تارة أخرى، فمنها من يؤكد علاقة ابن الأحرش بباي تونس وهو ما يذكره الزّهار بقوله أن:"حمودة باشا استدعى ابن الأحرش ووسوس له قائلا: إن رجلا مثلك شجاع يجب أن يذهب إلى ملك الترك بالجزائر وينزعه من أيديهم، ونحن

---

[1] محمد بن يوسف الزياني: دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران، تقديم وتعليق: المهدي بوعبدلي، الشركة الوطنية لنشر والتوزيع، الجزائر، 1978، ص 207.

[2] BERBRUGGER:" Un chérif …",OP.CIT, p 210.

[3] محمد بن يوسف الزياني: المصدر السابق، ص207.

نمدّك بما يخصّك، والعرب يتبعونك لكثرة ما ظلمهم الأتراك"[1]، وهو ما أكده صاحب تحفة الزائر بقوله أن ابن الأحرش لما نزل بتونس:" لقيه صاحبها حمودة باشا وأكرم نزله وفاوضه في القيام على حكومة الجزائر ووعده بالمال فاستكان له إبن الأحرش"[2].

وعلى صعيد آخر يذهب *Grammont* إلى القول أن أعداء الفرنسيين ينشرون إشاعة تقول بأن الثورة كانت بقيادة الأمير "جيروم نابليون" وهذا ما صدقه بعض السُذّج في حين أن الأمير خرج لتوه من المدينة، وكان قد حضر لها للمطالبة بالأسرى الفرنسيين.[3] أما *Louis Piesse* فيؤكد أن الثورة بتحريض من انجلترا مستدلا في ذلك بأن ابن الأحرش لما عاد من مصر رجع على ظهر سفينة إنجليزية أمدته بهدايا وحثته على خلق مشاكل بالجزائر لذلك أمر سفنه بعدم التعرض للبواخر الأنجليزية[4].

وبغض النظر عن كل هذه العوامل الخارجية ومن ورائها إبن الأحرش، نعتقد أن هذه الثورة ليست ذات صدى خارجي بقدر ما هي تعبير صريح عن الوضع المزري الذي آل إليه المجتمع الريفي بالبايلك. فقد كانت القاعدة الاجتماعية لثورة ابن الاحرش هي التحالف القبلي الكبير الذي تجند في صف واحد ضم معظم القبائل الشمالية من البايلك.[5] إضافة إلى وجود عوامل مساعدة لابن الأحرش لبسط نفوذه في المنطقة، وهي ضعف نفوذ خلفاء المرابط سيدي أمقران بجيجل.[6] فقد توفي المرابط سنة 1800م وخلفه ابناه محمد والطاهر وهما شابان في حداثة العمر،[7] لذلك أصبحت كلمة الدرقاوي مطاعة عند سكان الوادي الكبير وجبال زواغة وناحية واد الزهور وأولاد عيدون وبني مسلم وبني خطاب[8].

إذن، تمكن ابن الأحرش من أن يصبح الزعيم الأول لهذه القبائل، وبدأ نشاطه بالاستيلاء على سفينة المرجان الفرنسية بعد أن قتل بعضا من بحارتها وأسر الباقي،

---

[1] الشريف الزهار: المصدر السابق، ص 85.

[2] محمد بن عبد القادر: تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر، شرح وتعليق: ممدوح حقي، ج1، منشورات ثالة، الجزائر، 2007، ص 150.

[3] GRAMMONT: OP.CIT, p 364.

[4] LOUIS PIESSE: Itinéraire de l'Algérie, de Tunis et de Tanger , Hachette, Paris,1882, p377.

[5] GRAMMONT: OP.CIT p 364.

[6] BOYER: "Contribution à l'étude de la politique…", OP.CIT, p41.

[7] فيرو شارل: تاريخ جيجلي، المصدر السابق، ص 145.

[8] ناصر الدين سعيدوني: ورقات جزائرية، المرجع السابق، ص325.

والذين قدرهم العنتري بـــ 34 أسير،[1] في حين قدر *"Louis Piesse"* عدد السفن بـــ6 سفن وعدد الأسرى بـــ45 أسيرا.[2] ولما بلغ الخبر إلى الداي بالجزائر غضب وأرسل أربع سفن مسلحة إلى مرسى الزيتون لتهدئة القبائل، والقبض على ابن الأحرش لكنها فشلت في مهمتها لأن القبائل كانت حريصة على سلامته. كما أنها ازدادت ثقة به بعد انسحاب الحامية التركية من مدينة عنابة عند إحساسها بخطر إبن الأحرش وأتباعه[3].

وبهذا عظم شأنه واستغل فرصة غياب الباي عثمان الذي كان بنواحي سطيف يقوم بإخضاع بعض القبائل.[4] وبادر بالزحف مع حلفائه الذين يقدرون "بنحو العشرة آلاف رجل"[5] باتجاه قسنطينة. فلما وصلوا يقول العنتري :" تكلموا مع ناسها، قائلين: يا أهل البلد هذا الشريف قدم إليكم ونحن قدمنا معه في جنود كبيرة، وجيوش عريضة لا تقدروا على مقاتلتنا ولا تنجوا إن فررتم منا، فان أسلمتهم لنا البلاد فلا حرج عليكم، وإن امتنعتم نقاتلكم وندخلوا (كذا) بلادكم بقوة، فأجابهم ناس البلاد قائلين: يا معشر القبائل المغترين نحن لا نسلموا في بلادنا ونقاتلوكم (كذا) حتى نهزموكم أو نموتوا بأجمعنا، فعند ذلك هجموا القبائل هجمة شديدة وانتشروا من كل جانب وهم يصيحون الجهاد الجهاد..."[6].

وكاد إبن الأحرش أن ينجح في الاستيلاء على المدينة لولا الفوضى التي أحدثتها القبائل بانشغالهم في نهب الغنائم من المدينة، فاستغل قائد الدار والشيخ محمد الفكون الأمر وقاموا بإطلاق المدافع التي شتت صفوف الثائرين، وأسفرت عن إصابات كبيرة في صفوف المحاصرين فقُتل حوالي ألف مجند.[7] لكن، إبن الأحرش لم يستسلم بل أمر أنصاره بإعادة الهجوم ليلا على المدينة، وحاول التسلل داخلها، غير أن تنبه أحد الحراس أدى إلى إطلاق النيران مرة أخرى فأصيب الشريف هذه المرة واضطر للانسحاب.[8]

---

[1] صالح العنتري: مجاعات قسنطينة، المصدر السابق، ص 29.

[2] LOUIS PIESSE: OP.CIT, p377.

[3] BERBRUGGER: "Un chérif …",OP.CIT, p 211.

[4] حمدان بن عثمان خوجة الجزائري ومذكراته، تأليف وتعريب: محمد بن عبد الكريم، ط1، دار الثقافة للطبع والنشر والتوزيع، بيروت، 1982، ص 27.

[5] صالح العنتري: مجاعات قسنطينة، المصدر السابق، ص 30، مؤلف مجهول: المصدر السابق، ص 60. أما أحمد ابن العطار فيقدرهم بمائة ألف رجل، أنظر: أحمد ابن العطار: المصدر السابق، ص 46.

[6] صالح العنتري: فريدة مؤنسة...، المصدر السابق، ص 89.

[7] GRAMMONT: OP.CIT, p 365.

[8] ناصر الدين سعيدوني: ورقات جزائرية...، المرجع السابق، ص 315.

ونتيجة لذلك زُرِع الشك في نفوس بعض القبائل فانفضوا من حوله،[1] لكنه استطاع إعادة حشد قواته المنحلة في الحضنة[2].

وفي هذه الأثناء أرسل الداي رسالة إلى عصمان باي يأمره فيها بالقضاء على ابن الأحرش، حيث جاء فيها:"...أنت باي ذلك الأوطان (كذا) وهذا الشريف ظهر في حكم عمالتك، فواجب عليك تمشي إليه بنفسك وتأخذ منه ثارك، وأقصده أينما كان وأقتله..."،[3] وفي رواية أخرى أن هذه الرسالة كانت شديدة اللهجة حيث جاء فيها رأسك أو رأس ابن الأحرش.[4] لذلك قام الباي مذعورا لملاحقته، ويسترسل ابن عبد القادر في رواية خروج الباي للقاء ابن الأحرش قائلا: "وأخذ يتهيّأ للحرب، واستجاش (كذا) بمن بقي من القبائل متمسكا بطاعتهم وارتحل نحو ابن الأحرش وعسكر في سهل وادي الزهور، فأطلق ابن الأحرش السد على المعسكر أول الليل فما طلع الفجر إلا والماء قد عم السهل كله، وهجم عليهم بجموعه وقُتل الباي، وكان الأخير لما خرج من قسنطينة أخذ معه جميع ما في الخزائن من الأموال، فاستولى عليها ابن الاحرش وامتلأت أيدي جيوشه بالغنائم"[5].

ومَثل هذا النصر قمة نجاح ابن الأحرش، لدرجة أن الداي لما سمع بموت الباي وفناء العساكر وتشتيت الخزائن والأمحال أراد أن يأتي بنفسه إلى قسنطينة للقضاء على الشريف، "فأشار عليه بعض وزرائه ببطلان ذلك، فتتبع رأيهم وأصغى لكلامهم".[6] ونعتقد هنا أن ثورة ابن الأحرش قد توفرت لها كل شروط النجاح في إقليم استعرت فيه الفتن والقلاقل، فضلا عن ذلك التحالف القبلي القوي الذي حظي به في الداخل، والظروف الخارجية المساعدة. ولكن، من سوء حظ ابن الأحرش أنه يتعامل مع دولة ذات سياسة رشيدة تتدارسها أقوى دول العالم حاليا. فقد عمل الداي على تعيين عبد الله قائد وطن الخشنة بايا على قسنطينة وكلفه بملاحقة ابن الأحرش،[7] كما أُختير هذا الباي قصدا لأنه مربوط بعلاقة مصاهرة مع شيخ العرب ابن قانة.[8]

---

[1] ERNEST MERCIER: Histoire de l'Afrique…, p 459.
[2] GRAMMONT: OP.CIT, p 365.
[3] صالح العنتري: فريدة مؤنسة...، المصدر نفسه، ص90.
[4] ESTERHAZY : OP.CIT, p 201.
[5] محمد بن عبد القادر: المصدر السابق، ص 150_151.
[6] صالح العنتري: فريدة مؤنسة...، المصدر السابق، ص91.
[7] BERBRUGGER: "Un chérif …",OP.CIT, p 213.
[8] الشريف الزهار:المصدر السابق، ص 86.

فضلا عن إرسال الداي لرسالتين مع عبد الله باي أحدهما لشيخ الإسلام إبن الفكون يشكره فيها، والأخرى إلى عامة قسنطينة جاء فيها :"... إلى أكابر قسنطينة الأخيار من الخاصة والعامة أما بعد...إن كان مات الباي فرانا رجعنا باي آخر أحسن منه، وإن كان ضاع العسكر فإن البحر ما زال يولد عساكر، وإن تشتتوا الخزائن فإنه عندنا من تعميرهم نظائر، ولا تخمموا من رجوع الشريف إليكم فرانا ببال منكم وكونوا هانيين مطمئنين"[1].

وبذلك لقي الباي الجديد تفاعلا كبيرا من طرف السكان من جهة وأصهاره من جهة أخرى، الأمر الذي جعله يُكون قاعدة شعبية كبيرة استطاع من خلالها أن يهزم الشريف في ميلة ويفرق عصاباته في الوقت الذي كان فيه الريس حميدو يعاقب سكان جيجل. وانتهى الأمر بفرار ابن الأحرش إلى الجبال، ليظهر في السنة الموالية في بجاية بدعم من المرابط ابن بركات حيث أثار القبائل المجاورة لها وحاصرها دون نجاح فثار ضده أولاد مقران وهزموه في نواحي سطيف.[2]

وبعد اختفاء ابن الأحرش[3] بدأ الخوف من انتقام باي قسنطينة يعم القبائل، فتوجه وفد منهم إليه وعلى رأسهم شيخ قبيلة بني عمران وحصلوا على العفو منه ووعدهم بعدم تتبعهم أو ايقاع العقاب بهم.[4] ولم تلبث الأوضاع أن تهدأ قليلا حتى ظهر شخص آخر يُدعى محمد بن عبد الله، كان يزعم أنه حفيد الشريف السابق حاول إحياء العصيان. لكن، لاحقه مصطفى باي بكل صرامة وانتهى به الأمر إلى أن حرمه من كل موارده، وبعد أربع سنوات من المقاومة قتل في كمين أعده له سي مقران.[5] وبالفعل فشل ابن الأحرش ومن بعده حفيده المزعوم، غير أن الشيء الذي بقي محفوظا له _ مهما كانت نواياه الحقيقية من وراء هذه الثورة_ هو أنه خلص المجتمع الريفي القسنطيني من عقدة الخوف من الأتراك التي حاصرته قرابة الثلاثة قرون.

---

[1] الشريف الزّهار: المصدر نفسه، ص 93 .

[2] GRAMMONT: OP.CIT, p 365.

[3] يقول *Grammont* ان ابن الاحرش قد توفي في الربطة بسطيف على يد اولاد مقران وذلك سنة 1807م، لكن محمد بن عبد القادر يقول انه لحق بابن الشريف في الجهة الغربية وبقي في معه إلى أن دس له من قتله من أصحابه. غير أن فيرو يخالف الروايتين بقوله :" انه في مارس 1843 وصل منطقة القبائل الشريف بودالي، وهو عجوز جد مشهور بمهاجمته لقسنطينة وهزيمة الباي عثمان على واد الزهور والذي لم يظهر في هذه المناطق منذ قرابة 40 سنة". أنظر: CH. FERAUD: "Zebouchi et Osman bey" , R A, N°6, Alegria, 1862, p120.

[4] ناصرالدين سعيدوني: ورقات، المرجع السابق، ص 332.

[5] GRAMMONT: OP.CIT, p 365.

رابعا_ إستمرار الإضطرابات وتأزم الأوضاع بالريف بعد ثورة إبن الأحرش.

إذا كانت مرحلة صالح باي قد تفاقم معها الصراع في الريف، وانتهت الأمور بعد وفاته إلى تأزم الأوضاع وانفلاتها وتفجير ثورة إبن الأحرش، فإنه وبعد ذلك دخل البايلك في مرحلة من الضعف الشامل، حيث استعرت فيها الصراعات والفتن بطول البايلك وعرضه، وانقطع معها حبل الأمن وكثرت الغارات على القبائل حتى وصلت في عهد شاكر باي إلى 100 غارة خلال 4 سنوات!.

وإذا استثنينا بعض البايات الذين لم يكن لهم نفوذ كبير في الريف القسنطيني، كالبايات الذين كانوا منشغلين بحروبهم مع تونس، أمثال حسين باي وأحمد طبال، والبايات الذين لم يطل حكمهم أكثر من سنة كأحمد شاوش القبائلي الذي حكم 15 يوم، والباي قارة مصطفى الذي حكم شهرا واحدا، فإن هناك الكثير من البايات اشتهروا بالظلم والاستبداد. نأخذ منهم عينة نهدف من خلالها تبيين مدى تعاظم نفوذهم في الريف القسنطيني، وذلك بالكشف عن أهم الحملات العسكرية التي نظموها على سكان الأرياف ومن بينها:

1°_ حملات شاكر باي (1814_1818م):

يُعتبر شاكر باي من البايات الذين أضرّوا كثيرا بالمجتمع الريفي القسنطيني، وقد كان أول باي استقبله الفلاحون بإطلاق النار، وبالضبط في منطقة قصر الطير بسطيف عندما كان راجعا من أولاد ماضي بالحضنة. ذلك لأن لديه سوابق مريبة في علاقته بالمجتمع الريفي، حيث كان يقول، حسب *Vayssettes*، عندما كان يشغل منصب قيادة عامر الشراقة في عهد نعمان باي الذي سبقه أنه:" إذا كنت يوما بايا فسأعرف كيف أنتقم من العرب، وسأقتل كل يوم ما شاء الله منهم"[1].

هذا وقد خرق شاكر باي كل الأعراف والحقوق، وشنّ عددا هائلا من الحملات العسكرية على الريف القسنطيني. ورغم أنه تولى أمور البايلك وعمره ستين سنة، إلا أنه نظم حوالي 100 غارة في ظرف 4 سنوات شملت أغلب جهات البايلك.[2] وهذا ما جعل العنتري يصفه في فريدته قائلا:" أنه رجل صاحب بطش غالب عليه صلابة العجم، فيسفك

[1] "Si jamais je suis bey , disait-il à cette époque, je saurai bien me venger des arabes; chaque jour j'en ferai périr ce qu'il plaira à Dieu". VAYSSETTES: "Suite et fin de l'Histoire de Constantine, sous la domination turque, troisième et dernière période, de 1792 à 1837", in R.S.A.C , Alegria, 1869, p520.

[2] فلة القشاعي: النظام الضريبي ...، المرجع السابق، ص 146.

الدماء في الحق والباطل، يأخذ أرزاق الناس بالغزو ولا يبالي بمن هو طائع أو عاصي".[1]
ويرى حمدان خوجة أن مساوئ هذا الباي قد بلغت أشدها، ما أدى إلى انتشار الثورات الداخلية بعمالة قسنطينة انتشارا لم يسبق له نظير، وكان الباي لا يعرف من السياسة إلا السلاح لإطفائها، غير أن الخيبة كانت حليفته في جميع المعارك التي خاضها ضد القبائل المتمردة.[2] وفيما يلي سنتطرق إلى أهم حملات الباي على الريف القسنطيني.

لقد كانت أول خرجاته في جانفي 1815م ضد أولاد مقران وأولاد بورنان، وقد مرّ بطريقه في اليوم الأول بعين البقيرات، الثاني بذراع طوبال، الثالث بـــ كارب، الرابع بالمجاز، الخامس بسطيف وبعد يومين وصل إلى عين تاغروت، وفي الطريق على هذه المناطق أعدم من كل منطقة عددا من الرجال.[3] كما غدر بأولاد مقران وذلك بمراسلتهم وهو في عين تاغروت بأنه في عمل تفتيشي عادي، فصدقوه وغرتهم المراسلة وجاءه 12 رجلا، فقبض عليهم وأعدمهم مباشرة، وبعدها أرسل الباي تلك الرؤوس لتعلق على أبواب قسنطينة لإفزاع الناس[4].

وهذه صورة من صور قسوة هذا الباي لا بد أنها تركت أثرا عميقا على المجتمع الريفي، والواقع أن هناك مشاهد كثيرة من قساوة هذا الباي غير أن المجال لا يتسع إلا لذكر بعضها منها حملته على النمامشة، وهجومه على منطقة فج طراد. لكنه لم يحصل على شيء فانقلب على أولاد سيدي عبيد، واستولى على مواشيهم وساقها أمامه لكن الرياح والثلوج ضيعتها منه، فتتبعه أصحابها واضطروه إلى إرجاع ما تبقى منها.[5] كما غزا أولاد دراج بالمسيلة، وعسكر بقواته في ذراع القبور بين تافة والزانة، وبلغه الخبر بأن أولاد دراج نقلوا خيامهم وقطعانهم إلى المتكوك فلاحقهم ليلا وفاجأهم، لكنهم كانوا أكثر استعدادا منه، فهاجموه هجمة قوية، وقتلوا الكثير من قواته، وأسروا الباقي، ولم يكتفوا بذلك واتجهوا إلى معسكره وأخذوا يقذفونه بالحجارة والبارود، حتى اضطر إلى التفاهم معهم على أساس مغادرته للمنطقة دون شرط أو قيد[6].

---

[1] صالح العنتري: فريدة مؤنسة ...، المصدر السابق، ص 105.

[2] حمدان بن عثمان خوجة الجزائري ومذكراته: المصدر السابق، ص 44.

[3] MOULOUD GAID: OP.CIT, p 70.

[4] VAYSSETTES: "Suite et fin de l'Histoire de Constantine... ", OP.CIT, p 526.

[5] MOULOUD GAID: OP.CIT, p 73.

[6] صالح العنتري: فريدة مؤنسة ...، المصدر السابق، المحقق، ص 105.

من خلال رصد هذه المشاهد نخلص إلى أن الباي شاكر لم يكن يستفيد من غزواته ما عدا كره المجتمع الريفي له. كما أن هذا الأخير أظهر كفاءة عالية في التصدي للباي مما يلزمنا القول بأن كثرة الحملات التي شنتها السلطة المركزية على الأرياف خلقت مجتمعا ريفيا مستعدا دائما للدفاع عن أرضه وممتلكاته.

2°_ **حملات أحمد باي المملوك[1] 1818م /(1822_1824م):**

كانت أول حملة قادها لغزو بني عامر لكنه لم يكملها لأن الباشا أرسل رسالة إلى الأغا قائد الحملة يأمره باعتقال الباي وبعثه إلى العاصمة.[2] وبعد رجوعه على رأس البايلك مرة أخرى تعددت غزواته فقاد حملة على النمامشة والحنانشة وقتل جميع القادة ما عدا الشيخ الحسناوي الذي تمكن من الفرار.[3] ثم حملة على جبال الأوراس، وحملات أخرى ضد سكان ريغة، سهل البابور، أولاد تبان، أولاد سي أحمد ، وأولاد سلام[4].

كما قام بحملة على أولاد جلاب بتوقرت التي سارع فيها إلى قطع 200 نخلة، ولم يتوقف عن تخريب الجهات القريبة من المدينة إلا بعد استرضائه بـــ 10000 ريال بوجو[5]. وقد أورد حمدان خوجة في مذكراته أن الباي قد غزا أولاد جلاب غزوتين، وطاف على قسم كبير من سوف ودخل توقرت والواد منتصرا، ورجع إلى قسنطينة محملا بغنائم كثيرة[6]. وفي نهاية عهده قام بحملة ضد العمامرة بجبال الأوراس، لكن هذه المرة ألحقت القبيلة خسائر كبيرة بالباي ومحلته،[7] ثم ما لبث الى أن عُزل مرة أخرى.

---

[1] تقلد أحمد المملوك منصب الباي في قسنطينة مرتين، الأولى عندما ولاه حسن باشا سنة 1818م ، وقصد بولايته نقمة في الأتراك باعتباره مملوكا، ولما توفي الباشا عزله حسين باشا الباشا الجديد، ثم أعاد تنصيبه سنة 1822م، والسبب في ذلك هو أن صديقه باش آغا المتولي أمور العرب بالجزائر سعى له عند الباشا حتى أرجعه مرة ثانية. أنظر، صالح العنتري: فريدة مؤنسة ...، المصدر السابق، ص 109_112.

[2] VAYSSETTES: "Suite et fin de l'Histoire de Constantine... ", OP.CIT, p 552.

[3] MOULOUD GAID: OP.CIT, p 80.

[4] VAYSSETTES : IBID, pp 559_560.

[5] ناصر الدين سعيدوني، المهدي بوعبدلي: المرجع السابق، ص 37_38.

[6] حمدان بن عثمان خوجة الجزائري ومذكراته: المصدر السابق، ص 50.

[7] VAYSSETTES: "Suite et fin de l'Histoire de Constantine …", OP.CIT, p567.

3°_ حملات الحاج أحمد باي آخر بايات قسنطينة (1826_1837م):

يذكر حمدان خوجة " أن الأتراك كانوا قد قرروا ألا يرفعوا واحدا من الكراغلة إلى رتبة الباي، غير أن الضرورة جعلت الداي يعين الحاج أحمد باي على قسنطينة"،[1] نتيجة إلى الحالة المزرية التي كان عليها البايلك.[2] وعلى خلاف البايات الأواخر لقسنطينة أراد هذا الباي أن يُدخل سياسة جديدة في الحكم، وهي محاولة التقرب من المجتمع الريفي، وهذا ما لمسناه في طريقة خروجه إلى الأوطان. حيث يذكر لنا العنتري:"أن الباش أغا والحاج أحمد باي مهمي (كذا) ينزلون في وطن يسالون عن شأنه فيجدون سبب فساده من جور البايات، وظلم الترك فتراهم يجعلون لناسه تأويل وهكذا كل وطن ينزلون فيه إلى آخره... ومن بعد ذلك تبقى حاج أحمد باي في البلاد هذا الوقت أحكامه بالعدل والسداد وعلى نمط الشريعة والرشاد وقد زال الظلم والجور وذهبوا أصحاب البغي والفجور"[3].

وعلى عكس العنتري ووصفه للباي قبل الدخول الفرنسي للجزائر وحمدان خوجة، يرى بوضربة في مذكراته :"أن سلوك الحاج أحمد باي في المقاطعة (بايلك قسنطينة) كان مخزيا طوال المدة التي سبقت دخول الفرنسيين".[4] وبعيدا عن هذا الجدل التاريخي الذي لا يزال يثير كثيرا من النقاش، والتزاما منا بالإشكالية الهادفة التي نسعى من خلالها إلى كشف الغطاء عن العلاقة الحقيقية التي كانت تربط بايات قسنطينة الأواخر بالمجتمع الريفي وقتئذ، فقد ارتأينا تسليط الضوء على حملات الرجل التي نظمها ضد المجتمع، خاصة قبل دخول فرنسا إلى الجزائر، ذلك لأن الأمر سيختلف فيما بعد كون أن الباي سيضطر إلى شن حملات إضافية، يهدف من خلالها إلى جمع أكبر عدد من الفرسان المجندين لضمان رد الهجوم الفرنسي على البايلك من جهة، وإثبات شرعية منصبه كباشا ومن ورائه الدولة العثمانية من جهة أخرى.

---

[1] حمدان بن عثمان خوجة: المرآة، المصدر السابق، ص 173.

[2] يروي لنا بوضربة في مذكراته كيفية تعيين الحاج أحمد باي حيث "أن شؤون قسنطينة كانت على أسوء حال، وأن البايات الذين عينوا لم يتمكنوا من جمع الضرائب كاملة، واقترح يحي أغا على الداي أن يعين الحاج أحمد بايا على قسنطينة، وضمن أنه سيكون وفيا وبما أن تأثير يحي آغا كان كبيرا، في ذلك الحين، فانه حصل على التعيين، وحصل في نفس الوقت على إذن يمكنه من أن يصحبه بنفسه على رأس جيش ينصبه ويؤدب القبائل المتمردة". أنظر: مذكرات أحمد باي وحمدان خوجة وبوضربة: المصدر السابق، ص 118.

[3] صالح العنتري: فريدة مؤنسة ...، المصدر السابق، ص 116.

[4] مذكرات أحمد باي وحمدان خوجة وبوضربة: المصدر السابق، ص 118.

لقد تعددت حملات الحاج أحمد باي على أرياف البايلك حيث تلقى أول معارضة حينما كان يجوبه مع يحي آغا من أولاد سلطان، وقد عبر العنتري عن ذلك بقوله:" أولاد سلطان يتوطنون جبل بين وطن قسنطينة ووطن الصحراء، وهو جبل كثير الشعاب وناسه صعاب، فنزلوا عليه بالفتن (الحاج أحمد باي ويحي آغا) وأخذوا من عند ناسه شيء قليل على وجه الصلح".[1] وفي سنة 1827م جهز الحاج أحمد باي جيشا ضد قبيلة الزين بن يونس، وهي التي تقود التمرد في الدير[2] وضواحيه، فأسر رئيسهم أحمد بن يونس وأرسله مكبلا إلى الجزائر حيث قُتل شنقا. ثم توجه بجميع جيشه صوب قبائل الحنانشة، بيدا أنها صمدت طيلة سنة 1827م، وفي أواخر سنة 1828م خضعت هذه القبائل ولقنهم الباي درسا قاسيا"[3].

لذلك نجد أن شيوخ العرب ناصبوا العداء لهذا الباي وأصبحوا يردون عليه بطريقتهم الخاصة. فمثلا نجد أن أحد شيوخ العرب يتجرأ على محلة الباي ويعترض طريقها إلى قسنطينة ويستولي على مائة وعشرة من البعير التي جلبتها المحلة معها من الصحراء.[4] كما قام بحملات أخرى ضد قبائل العمامرة، أولاد مسعود، أولاد يحي بن طالب سنة 1827م،[5] وهاجم قبيلة الحراكتة، ولما جاءه زعماء القبيلة والذين يتراوح عددهم 75 رجلا للسلام رحب بمجيئهم دون استثناء وفورا قطع رؤوسهم[6].

هذا ويعترف الحاج أحمد باي بنفسه في رسالة موجهة لخديمه وصديقه الإنجليزي[7] "شكافين" حيث ذكر له فيها:"...أن أهل وطننا كله تحت السمع والطاعة ونصرنا الله على أهل الفساد، وذهبنا إليهم بجنودنا وعساكرنا وقهرناهم ومزقناهم وقطعنا رؤوسهم، ومضينا

---

[1] صالح العنتري: فريدة مؤنسة ...، المصدر السابق، ص 115.

[2] **الدير:** ناحية جبلية في شرق مدينة تبسة، وتقع في الحدود الجزائرية التونسية وقد رفضت الاعتراف بكلتا الدولتين.

[3] حمدان بن عثمان خوجة الجزائري ومذكراته: المصدر السابق، ص 53_55.

[4] رسالة من الحاج أحمد باي حسين باشا، أرشيف المكتبة الوطنية الجزائرية، مجموعة رقم : 1642 ، وثيقة رقم : 5، 26 ذي القعدة 1241هـ، 1826م.

[5] فلة القشاعي: النظام الضريبي...، المرجع السابق، ص 149.

[6] CH. FERAUD:" AIN ELBAIDA", OP.CIT, p 413.

[7] يتضح لنا أصل هذا الخادم "الأنجليزي" من خلال رسالة أخرى للحاج أحمد باي يقول في مطلعها:" ...إلى لنبيس أما بعد السؤال على أحوالكم فقد بلغنا كتابك وذكرت لنا فيه أن ننصر الأنقليز بالجزاير أمركم بالخروج إلى عنابة...". أنظر: رسالة من الحاج أحمد باشا الى خديمه وصديقه بعنابة لنبيس، أرشيف دولة تونس بمركز الأرشيف لولاية قسنطينة، رقم الوثيقة: 119، تصنيف الوثيقة: D384_ C223، أوائل ذي الحجة 1246هـ/ 1830م.

إلى الصحرا (كذا) فانقادت كلها إلينا وصارت تحت سمعنا وطاعتنا، حتى من الجبال التي كانوا أهلها منافقين على الترك أتوا إلينا سامعين طائعين، وكذلك أعراش تونس جاؤوا إلينا على طاعتنا والناس كما تعرف لا يحبون إلا السيف المسلول والمال المبذول والخيل والسلاح وكل ذلك موجود..."[1].

ويبدو هذا كتقرير مفصل بيد الحاج أحمد باي نفسه، يغنينا عن كثير من التساؤلات حول علاقته بالمجتمع الريفي آنذاك؛ إذ أن له نفوذا كبيرا داخل مقاطعته استطاع فرضه بقسوة السلاح حتى بدا له أن كل الرعية منقادة وطائعة لأوامره، لذلك كثرت حملاته ونذكر منها مهاجمتة لقبائل سطيف، زمورة، المسيلة، أولاد عبد النور، أولاد سعيد.[2] كما يروي لنا أيضا صراعه مع شيخ العرب فرحات بن سعيد قائلا:" أن الباي إبراهيم السابق قد تحالف مع فرحات بن سعيد شيخ العرب السابق فانتقلت للقائهما شخصيا وهزمتهما هزيمة شنعاء وأرغمتهما على الفرار".[3]

وهنا يمكن القول أن الحاج أحمد باي قد تلقى الكثير من المعارضات من قِبل شخصيات بارزة وذات قاعدة اجتماعية كبيرة لا يُستهان بها، إلا أنه استطاع اخضاع أغلبهم. وهذا دليل واضح على أنه من أكثر البايات استفادة من سياسة الأتراك المعروفة بضرب الأعراش ببعضها، كيف لا وهو من ثمنها وأبرز نجاعتها في هذا الإقليم. وإضافة إلى كل هذه الحملات الصعبة قاد الحاج أحمد باي حملات عديدة أخرى على كل من قبائل زواغة، أولاد خطاب، بني مروان، وقبيلة بني عمار بالقالة،[4] كما شنّ حملتين قاسيتين جدا على سكان المدية وعنابة سنة 1836 م[5].

وفي ختام هذا العنصر حاولنا إدراج مخطط بياني تقريبي نهدف من خلاله إلى تبيين مدى تطور نفوذ البايات في الريف القسنطيني بين (1771_1837م)، وقد أدرجنا الباي أحمد

---

[1] رسالة من الحاج أحمد باشا إلى خديمه وصديقه شكافين الأنجليزي، أرشيف دولة تونس بمركز الأرشيف لولاية قسنطينة، رقم الوثيقة: 120، تصنيف الوثيقة: C223 _D384، أوائل ذي الحجة 1246هـ/ 1830م.

[2] MOULOUD GAID: OP.CIT, p 97 et suit.

[3] مذكرات أحمد باي وحمدان خوجة وبوضربة: المصدر السابق، ص 26.

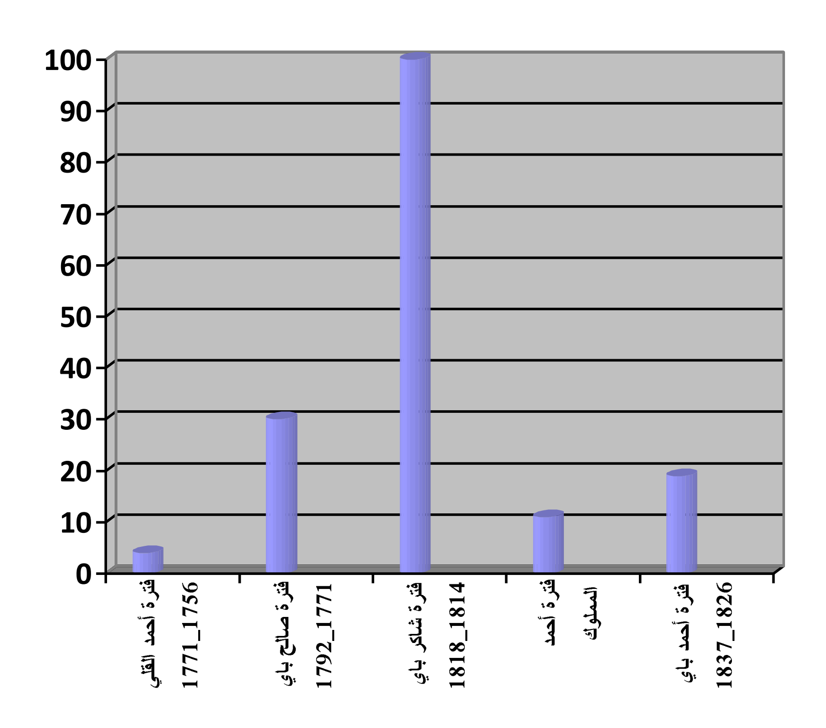
[4] صالح فركوس: الحاج أحمد باي قسنطينة ، المرجع السابق، ص46.

[5] فندلين شلوصر: المصدر السابق، ص 48 وما بعدها.

القلي (1756_1771م)[1] كنموذج للبايات السابقين للمقارنة وإثبات مدى تعاظم الصراع وانتشاره بالبايلك ابتداءً من فترة صالح باي إلى نهاية الفترة العثمانية، وذلك حسب الجدول التالي:

فترات البايات	أحمد القلي (1756_1771م)	صالح باي (1771_1792م)	شاكر باي (1814_1818م)	أحمد المملوك باي (1818/1822_1824م)	الحاج أحمد باي (1826_1837م)
عدد الحملات	04	30	100	11	19

<u>مخطط توضيحي لتطور نفوذ البايات في الريف القسنطيني حسب عدد الحملات.</u>



المصدر:المخطط من وضع الباحثة.

[1] يذكر العنتري في فريدته :" أنه كان متولعا بالخروج إلى الأوطان ولا يبالي بمقابلة الشجعان، وكان يغزي على الجبال البعيدة وينزل عليهم بالحروب الثقيلة حتى يكونوا لديه طوعا ولأمره امتثالا وسمعا"، ويزيد المحقق للفريدة أنه حارب عدة قبائل عاصية حتى خارج حدود البايلك الى فليسة بجبال جرجرة، وغزا أهل الشافية، وأولاد سلطان بالأوراس وتمكن من قهر العصاة، انظر: صالح العنتري: فريدة مؤنسة...، المصدر السابق، ص ص 77_78.

من خلال المخطط السابق يتضح أن خروج السلطة المركزية للأرياف القسنطينية كان محتشما في المرحلة التي يمثلها الباي أحمد القلي. ذلك أن الحملات العسكرية المنظمة في تلك الفترة لم تكن بدافع جمع الضرائب بقدر ما كانت تأديبا للمناطق العاصية للسلطة، كحملة أحمد القلي على جبل فليسة وبني عباس الذين قطعوا طريق الجزائر وسلبوا كل من مر بهم من الأتراك وقتلوه.[1] أو خوفا من الانفصال عن السلطة المركزية والتحالف مع بايات تونس، كحملته على خنقة سيدي ناجي بسبب سياسة شيخها أحمد بناصر الهادفة إلى توطيد علاقة أسرته ببايات تونس[2].

في حين نلاحظ خروجا غير مألوفٍ للسلطة المركزية ابتداءً من فترة صالح باي، وإن كانت هذه الفترة قد تفاقم معها الصراع لأن الأمر يتعلق بمرحلة تغيير كبير لسياسة البايلك، وترسيخ السلطة المركزية في الريف القسنطيني، فإننا لا نعدم اشارات عن كثرة الحملات العسكرية بعد وفاته بل وبشكل أكبر وتعسف أخطر. ولعل أشهرها تلك الحملات المستشرية التي قام بها شاكر باي، والتي كان عددها حوالي 100 حملة في مدة لا تتجاوز الأربع سنوات.

على أننا نعتقد أن هذا الباي لم يكن له نفوذ كبير في الأرياف القسنطينية قدر ما كان لصالح باي ومن بعده الحاج أحمد باي، ذلك أن حملات شاكر باي الكثيرة، معظمها باء بالفشل ولم يطل الباي من ورائها سوى عداء الريفيين وكرههم له. في حين أن معظم حملات صالح باي والحاج أحمد باي كانت ناجحة جدا؛ فقد نجح الأول بسياسته المحنكة في اخضاع معظم أرياف البايلك، واستطاع الحاج أحمد باي أن يُرجع بعضا من الاستقرار والذي سبقه تأزم كبير في البايلك. ولكن يبقى للصراع كلمته الأخيرة، فرغم أنه شكل ابتداء من سنة1771م إلى غاية 1837م رمزا لوجود السلطة المركزية واستمرارها في البايلك، إلا أنه أدى في نفس الوقت إلى انهيارها ونهايتها. لدرجة تفضيل بعض شيوخ القبائل القسنطينية دخول فرنسا للبايلك على بقاء العثمانيين فيه، ظنا منهم أن دخولها سيضمن لهم مناصبهم وممتلكاتهم التي أصبحت مهددة من قبل الحاج أحمد باي آخر بايات قسنطينة بالجزائر.

---

[1] أحمد إبن العطار: المصدر السابق، ص 69.

[2] كريمة بن حسين: المرجع السابق، ص 60.

خامسا_ النزعات القبلية الحدودية.

في نهاية هذا الفصل الجدير بالذكر أننا نشير إلى صنف آخر من الصراع عانى منه المجتمع الريفي القسنطيني عامة، والقبائل الحدودية على وجه خاص. كان سببه ذلك النزاع الذي دار بين القبائل بفرعيها الجزائري والتونسي حول مواطن الحدود، بل وما أكثر تلك الحروب التي نشبت بين الإيالتين جراء ما سماه المؤرخون[1] بالحدود البشرية بدلا من الحدود السياسية. وهذا ما أكده الحاج أحمد باي في رسالته للباشا حسين بالجزائر يخبره فيها بهروب بعض الأعراش الجزائرية إلى تونس، وهروب الأعراش التونسية بالمثل إلى الجزائر والخلافات الناجمة عن ذلك بين الإيالتين.[2]

وتجدر الإشارة إلى أن سبب قبول البايات من الجهتين تلك القبائل الغريبة على مواطنهم، هو استخلاص الضرائب منها، فضلا عن توظيفها في نفس الوقت أثناء قيام الحروب ضد دولتها الأصلية. فالنظام الضريبي الذي أقره حكام البلدين يعتبر من أهم العوامل التي أدت بالقبائل الحدودية إلى الهجرة في الإتجاهين المتعاكسين، والدليل على ذلك هو أن هذه الظاهرة كانت أكثر انتشارا في مواسم جمع الضرائب.[3] وبالرغم من أن بعض بايات قسنطينة كانت لهم الكلمة العليا على بايات تونس مثل صالح باي الذي قال عنه ابن العطار "أن له اليد العليا على صاحب تونس"،[4] إلا أن هذا لم يمنع بعض القبائل القسنطينية القاطنة على الحدود الجزائرية التونسية، أن تفر من المطالب المالية التي فرضها عليها صالح باي، فهاجم الباي تونس بالاتفاق مع الداي ما أجبر حمودة باشا[5] على الرضوخ لمطالب صالح باي.[6]

---

[1] أحميدة عميراوي: علاقات بايلك الشرق الجزائري بتونس...، المرجع السابق، ص 19.

[2] رسالة من أحمد باي إلى حسين باشا، أرشيف المكتبة الوطنية الجزائرية، مجموعة رقم: 1642، وثيقة رقم: 23، 1243هـ/ 1827م.

[3] أرزقي شويتام: المجتمع الجزائري وفعالياته، المرجع السابق، ص 11.

[4] أحمد إبن العطار: المصدر السابق، ص 69.

[5] **حمودة باشا (1782_1814م):** رجل شجاع مهاب، عالي الهمة أنشأ محلا لإنشاء المدافع العظيمة، وحصن حلق الوادي بالأبراج والأبنية، بنى قلعة الكاف، وفي عهده خرجت تونس من حكم الاتراك بالجزائر. انظر، عبد الحميد بيك: أعيان من المشارقة والمغاربة، تقديم وتعليق: أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الاسلامي، بيروت 2000، ص 115.

[6] رشاد الامام: سياسة حمودة باشا في تونس 1782_1814، منشورات الجمعية التونسية، تونس، 1980، ص 387.

هذا وقد جاء في أحد التقارير التي رفعها باي تونس إلى محمد خوجة مأمور الوجق بأزمير، يخبره بهجوم عبد الله باي قسنطينة (1804_1806م) على عرش أولاد بوغانم بغتة مما كبدهم خسائر جعلت باي تونس يخرج بمحلتين على قسنطينة، حيث دام الصراع بين الجانبين شهرا كاملا. ويبدو أن هذا الصراع كان حادا جدا لدرجة أن الداي بالجزائر بعث بمحلتين لتعزيز قوات البايلك إحداهما برا والأخرى بحرا عبر عنابة، ولهذا تشتت محلة تونس وتوفي فيها الكثير وأُسر الباقي.

وقد جاء في التقرير نفسه "أن باي قسنطينة مع أغا العرب قد جمعا محالا فيها ما يزيد عن الخمسة آلاف رجل ومائتي خيمة لضمهم مع العساكر والمحال الواردين من الجزائر، ما عدا طوائف العسكر المجتمعين من عنابة ووادي الزيتون وبلاد زمورة وبخلاف (كذا) سائر العربان المجتمعة معهم للغزو،... وبناء على هذا جهزنا (التونسيين) خمسين خيمة من العسكر وخمسين خيمة من الزواوة... وتقابلنا في رأس الحدود... وقتلنا منهم الكثير واستأسرنا ثمانمائة نفر وهلك من رفقائهم ما يقرب الألفين شخصا،[1] والباقي فروا هاربين ثم استولينا على جميع جمال المحال المذكورة مع مدافعهم وسائر الأدوات الحربية، وقدر أربعمائة خيمة مع جميع قياطينهم[2] وأن جميع أولادنا العسكر أصبحوا مستغرقين في الأموال والغنائم"[3].

من خلال هذا التقرير نستطيع تسجيل الملاحظة الأولية الآتية: أن القبائل الحدودية كانت في أحيان كثيرة سببا في الحروب بين الإيالتين، والأهم من ذلك أن معظم هذه الحروب كانت فوق الأراضي الحدودية وما يتبع ذلك من أثر عميق على تلك المناطق. كما تجدر الإشارة إلى أن هاته القبائل غالبا ما كانت في صراع دائم إما ضد بايات قسنطينة أو ضد بايات تونس،[4] فضلا عن ذلك الصراع القبلي الحاد بين أعراش البلدين أنفسهم على المناطق الحدودية فقد كانت تلك القبائل دائمة التحرش ببعضها[5].

[1] نعتقد هنا أن باي تونس قد بالغ قليلا في النتائج المذكورة تبريرا لهزيمته اللاحقة بعد وصول المحلتين الجزائريتين.

[2] **قياطينهم**: كلمة عامية تعني خيامهم.

[3] تقرير رفعه والي تونس الى مأمور الوجق بأزمير، أرشيف دولة تونس بمركز الأرشيف لولاية قسنطينة، وثيقة رقم: 161، تصنيف الوثيقة : D384_ C223، د.ت.

[4] PEYSSONNEL,T2, OP.CIT, p293.

[5] رشاد الإمام: المرجع السابق، ص 401.

ولا تنقصنا الدلائل في هذا الصدد، فهذه رسالة من حاكم تبسة إلى ابراهيم باي قسنطينة تثبت ذلك الصراع العنيف الذي حدث إثر اعتداء قبيلة الزغالمة التونسية على أعراش تبسة. ومن بين ما جاء في الرسالة نذكر "... فترانا في أشد الحصار والأبواب مغلقة وأحاط بنا الهول من كل جانب، فإن الزغالمة من رعية تونس نازلة علينا وجميع عروشنا الذين بقربنا كلهم رجعوا إلى تونس، وبقينا في وسطهم العطش والغرة (كذا) والعسة ليلا ونهارا فإن من خرج من البلد نهب المال وقتل الرقاب فإن عزمتم إلينا ... فتنجدونا وإن لم تجعلوا فخلفكم على الله في البلد وأهلها...[1].

ونجد الوضع نفسه عند قبيلة الهمامة التونسية التي تعدت على ما يبدو على دوارين من تبسة في رسالة أخرى لمحمد باي إلى حسين باشا تونس جاء فيها:"...أن خدامكم الهمامة كانوا تعدوا على دوارين من التباسة وقتلوا منهم عشرون رجلا، وأخذ (كذا) معهم رجلا آخر تبسيا يقال له عبد الواحد كان خرج من بيته ... فأتوا على جميع ماله وما احتوى عليه..."[2] ربيع الثاني (1241هـ/1825م). هذا وقد تأزمت الأوضاع كثيرا بين القبائل الحدودية، ما دفع بالحاج أحمد باي إلى مطالبة حسين باشا باي تونس أن يأمر رعاياه بالرحيل من البايلك وإلا نكل بهم، وهذا بعض ما جاء في رسالته:"... ونخبرك محبنا أن الجوامع[3] أتوك هاربين ولكن أنت جعلت عليهم قائدا وينزلون في إفريقية، فإذا بهم أتوا بقائدهم ونزلوا في تبسة ويفعلون بالأمور الفاسدة التي لا ترضيك ويأتونا بالخيانة ويسرقوا من إبلنا وهويرنا[4] وهوير تابعنا ... تأمر قايدهم يرحلوا وينزلوا بهم في نواحي صراط وإن بقوا هنا لا تلوم علينا..."[5].

والواقع أن ما سبق ذكره عبارة عن نماذج من الصراع القائم بين القبائل الحدودية فقط، فما أكثر تلك المطاحنات التي جمعتهم، وهذا ما أدى بالبايات إلى اتخاذ بعض

---

[1] رسالة من حاكم تبسة إلى ابراهيم باي، ارشيف دولة تونس بمركز الارشيف لولاية قسنطينة، وثيقة رقم: 33، تصنيف الوثيقة: D384_ C223، د.ت.

[2] رسالة من محمد باي الى السيد حسين باشا تونس، أرشيف دولة تونس بمركز الأرشيف لولاية قسنطينة، وثيقة رقم: 113، تصنيف الوثيقة:D384_ C223، 1241هـ/1825م.

[3] عرش موجود على الحدود الجزائرية التونسية.

[4] **الهوير** كلمة عامية قديمة تعني مجموعة من البغال والحمير.

[5] رسالة من الحاج أحمد باي قسنطينة الى أحمد باي تونس، أرشيف دولة تونس بمركز الأرشيف لولاية قسنطينة، وثيقة رقم: 129 ، تصنيف الوثيقة: D384_ C223، د، ت.

الإجراءات، تمثلت في محاولة ابعاد هذه القبائل المتنقلة، فباي تونس مثلا قام بمنع القبائل الفارة من بايلك قسنطينة من الدخول إلى أراضي ولايته.[1] أما الحاج أحمد باي فقد اكتفى أحيانا بوضع شروط لقبول دخول القبائل التونسية، وهذا ما نلمسه في رسالته للداي حسين يخبره فيها عن قبيلة الشراقة التونسية الذي ألزمها بشروط حتى يقبل دخولها لبايلكه[2].

ومن خلال كل ما سبق يمكن تثمين الملاحظة الأولية السالفة الذكر، ذلك أن الحرب بين الإيالتين بالفعل كانت كثيرا ما تقوم بسبب تعدي أحد الطرفين على العروش الحدودية. والأهم من ذلك هو تكبد تلك الأعراش خسائر مادية فادحة لأن المعارك عادة ما تكون على ترابها، فضلا عن مشاركتهم في هذه الحروب وتكبدهم خسائر بشرية كبيرة ستؤدي بهم حتما للتفكير في مغادرة تلك المواطن والالتجاء إلى أخرى أكثر استقرارا وأمنا.

وخلاصة القول أن الصراع ظل على امتداد الفترة الأخيرة من الوجود العثماني في بايلك الشرق يشكل ظاهرة دائمة وبنيوية، للوصول إلى خيرات المجتمع الريفي، وأداة للحفاظ عليها واستمرارها. وقد تبين أن طبيعة ظاهرة الصراع فرضت نوعا من التعدد والتنوع جعلها تمس كل أرياف البايلك القريبة من مركز السلطة والبعيدة عنها، مما أثر بشكل مباشر في بلورة مسار الدولة السياسي؛ إذ أنه بقدر ما أسهم في بنائها والحفاظ عليها، كان سببا في هلاكها وانهيارها. غير أن اعتبار الصراع ظاهرة مستمرة يقتضي منا الكشف عن الأثر الذي يمكن أن تخلفه، فهل أثر هذا الصراع على المجتمع الريفي ببايلك الشرق؟ وهل كان لحضوره المكثف ملامح لتغييرات الحياة الاجتماعية في الريف القسنطيني؟ وأين يكمن هذا التغير والتحول؟

---

[1] رسالة من الحاج أحمد باي إلى حسين باشا، أرشيف المكتبة الوطنية الجزائرية، مجموعة رقم: 1642، وثيقة رقم: 15،29 جمادى الثانية 1242هـ/ 1826م

[2] رسالة من الحاج أحمد باي إلى حسين باشا، أرشيف المكتبة الوطنية الجزائرية، مجموعة رقم: 1642، وثيقة رقم: 18، أوائل ذي الحجة 1243هـ / 1827م.

لقد توصلنا من خلال الفصول السابقة إلى خلاصة أساسية، مفادها أن ظاهرة الصراع داخل المجتمع الريفي القسنطيني شكلت، على امتداد فترة البحث، ظاهرة دورية بنيوية كرّست استمرارها طبيعة السياسة العثمانية تجاه الأرياف، حيث أسهمت في خلق مجتمع قبلي يعتمد الصراع أسلوبا للعيش والبقاء. وإذا كنا قد وصلنا إلى هذه النتيجة فيما سبق، وجب علينا الآن التركيز على مجمل الآثار التي يمكن أن تخلِفها ظاهرة الصراع المستشرية داخل المجتمعات الريفية.

لكن، علينا أولا أن نوضح بعض الملاحظات فيما يخص النصوص والشواهد التي يمكن أن نعتمدها لتأكيد عمق الأثر الذي مس المجتمع الريفي جراء الصراع؛ إذ أنها أمثلة فقط مما استطعنا جمعه، لكننا في الوقت ذاته لا نُخفي بعضا من التردد في تأكيد هذه النتائج. فإذا استثنينا الموروث الأرشيفي وبعض المتون المصدرية والنوازل، فإن معظمها نصوص أزمة، ولا تبتعد كثيرا عن عنصر المبالغة والتهويل، خاصة منها الكتابات الأجنبية. كما أن النصوص التي تكشف عن هذا الأثر تظل قليلة جدا بالمقارنة مع تلك التي تثبت حضور الصراع واستفحاله، فضلا عن صعوبة الاستئناس بمختلف الروايات والتتبع الدقيق لآثار كل صراع أو حملة أو غارة.

ومع ذلك فهناك نصوص أخرى ودلائل كثيرة تجعلنا نميل إلى تأكيد هذه الخلاصة ودعمها، لأنها تكشف عن مجمل التحولات الهيكلية التي أصابت المجتمع الريفي بسبب الصراع الذي عانى منه في ظل نهاية سلطة بايلك قسنطينة. فما هي أبرز هذه التحولات؟ ثم ما هي أهم الآثار التي خلفتها ظاهرة الصراع في الديموغرافيا والصحة والاقتصاد والمجتمع؟ وهل أخلَّ الصراع بعملية الحراك الاجتماعي، وأثر في بناء أو تفكك الأسرة الريفية؟ ثم ما هي أبرز الآثار النفسية التي خلفتها الظاهرة داخل المجتمع الريفي القسنطيني؟ وهل من ترسبات في البنى الذهنية للأفراد والجماعات لهذه الظاهرة أم أنها انتهت بانتهاء الصراع؟

أولا_ الفقر والجوائح في الريف القسنطيني.

1_ الفقر في المجتمع الريفي القسنطيني.

تكاد تُجمع الكثير من الدراسات الاقتصادية في الجزائر خلال الفترة العثمانية أن المجتمع الجزائري مجتمع فلاحي بنسبة 90 %.[1] وانطلاقا من أن الفلاحة هي أساس معاش المجتمع الريفي خاصة في مجال تتسع فيه السهول اتساعا كافيا، وتمتد فيه أراضي الفلاحة الكبيرة والخصبة،[2] فضلا عن الذين تتمثل ثروتهم في قطعان الجمال والأغنام وغابات النخيل.[3] فلا حاجة إذن لكثير من العناء لإثبات أهمية رصد العلاقة بين فقر الفلاحين وتأثير الصراع ما دام هذا الأخير يحيل في أكثر دلالاته الاجتماعية إلى النهب والخراب واختلال أمر الناس وفقرهم وفساد أحوالهم.

لقد أكد بعض الذين كتبوا في تدبير الصراع ومكائده، أن الحاكم إذا أراد أخذ موطن ما، ينبغي عليه أن يبدأ بما حوله من القرى والضياع وتخريب محاصيلها، ونهب مواشيها حتى إذا ضعف الموطن أخذه.[4] هذا بالضبط ما حدث مع معظم بايات قسنطينة، في تطويع الرعية وأخذها بالمغارم، ولا تنقصنا الدلائل في ذلك، فهذا صالح باي مثلا لما حاصر توقرت، بادر بقطع أشجار النخيل المحيطة بها،[5] ونجد الأمر نفسه عندما أمر رجال محلته بحرق أشجار زيتون أرياف منطقة "بريكة" بالأوراس، وكل الحدائق الجميلة الموجودة بأرياف منطقة "مقرة" و"سيدي لكحل" بالحضنة.[6] كما أن الباي محمد الميلي الذي غزا قرية أُوغلال إحدى قرى الزاب، قام بمصادرة أمول القرية ثم اتجه بعدها إلى طولقة وقطع الكثير من أشجار النخيل عقابا للسكان.[7]

من جهة أخرى عمل الباي مصطفى الوزناجي بعد غزوه لقرية أولاد بوعون بالأوراس على إفقار معظم سكان القرية، وهذا ما جاء به صاحب مخطوط بايات

---

[1] السعيد قاصري: المرجع السابق، ص 8، أنظر أيضا: محمد العربي الزبيري: المرجع السابق، ص 57.

[2] شارل فيرو: تاريخ جيجلي، المصدر السابق، ص 15،

[3] شلوصر فندلين: المصدر السابق، ص 102.

[4] أبي القاسم ابن رضوان المالقي: الشهب اللامعة في السياسة النافعة، تحقيق: علي سامي النشار، منشورات دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، 1984، ص 399.

[5] CH. FERAUD : "BEN DJELLAB...", OP.CIT, p 110.

[6] ERNEST MERCIER: Histoire de Constantine, OP.CIT, p 285.

[7] VAYSSETTES: "Suite et fin de l'Histoire de Constantine", OP.CIT, p552 .

قسنطينة[1] قائلا أنه: " أخذ منها مالا غزيرا لأنها كانت معدة لخزائن الكثير من الناس من نقود وحلي وذهب وفضة وقمح وشعير وصوف". أما الباي عصمان فإنه لم يتوان بعد مهاجمته للنمامشة على مصادرة أكبر قدر من الحيوانات، منها الجمال والأغنام والأحصنة والأبقار، والتي، حسب *Vayssettes*، لم يسبق لأي باي أن صادر مثلها.[2] وبالمثل قام الباي محمد نماماني بالاستيلاء على أربعين ألف رأس غنم من قبيلة أولاد نايل.[3] هذه كلها شواهد تقيم الدليل على ما كانت تتركه المحلة من تخريب للمحاصيل الزراعية ونهب للثروات الحيوانية، مخلفة وراءها مجتمعا فقيرا بائسا لا محالة.

على أن إفقار الفلاحين وإلزامهم بالمغارم والإتاوات وإرغامهم على دفعها تحت وطأة التهديدات بالإغارة عليهم، لم يقتصر على السلطة المركزية وجُباتها من المحلة فقط. بل شمل أيضا شيوخ القبائل وقطاع الطرق والأعراب التي استقلت بمجالاتها وفرضت على الريفيين أداء إتاوات لتجنب غاراتها. ولنا فيما ذكره العدواني خير دليل على تسلط شيوخ القبائل على الفلاحين قائلا: "أنه في قبيلة الأرباع فرقة تسمى الجوخارنة[4] وكان شيخهم "عسماج بن جوخران" يُغضب السكان بظلمه، ففي كل موسم حصاد كان يفرض على كل واحد من رعاياه أن يقدم من محصوله أكداسا من سنابل القمح والشعير، وحالما يحين موعد الغرامة يذهب عسماج إلى أعلى الجبل...وكان على كل واحد أن يحمل المطلوب الى المكان المسمى بساحة عسماج"[5].

وكذا تجدر الإشارة إلى أن قبائل توقرت كانت أكثر القبائل المتضررة في بايلك قسنطينة، وأشدهم بؤسا لأن الضرائب كانت تُفرض عليهم من ثلاث جهات مختلفة، الحكام المحليين، سلطات البايلك، وشيوخ العشائر البدوية التي تمثلها قبيلة أولاد سعيد القوية[6]. وفي ناحية أخرى زرع عرب تاسقيفت التابعة لجيجل الرعب في الأرياف لما كانوا

---

[1] مؤلف مجهول: المصدر السابق، ص 58.

[2] VAYSSETTES: "Suite et fin de l'Histoire de Constantine…" , OP.CIT, p 471.

[3] يذكر صالح العنتري أن محمد نماماني لما صار بايا أصبح لا يفهم ولا يعقل كالجماد، وفي زمانه اشتهر ظلم الترك وصاروا يقتلون الناس داخل البلاد، وانحلت الاحكام وتصعب الوطن وضعفت الرعية. أنظر، محمد صالح العنتري: فريدة مؤنسة...، المصدر السابق، ص114.

[4] **الجوخارنة:** فرقة من فرق قبيلة الارباع بالأوراس، وسميت كذلك نسبة الى شيخهم جوخران.

[5] محمد العدواني: المصدر السابق، ص 334.

[6] ناصر الدين سعيدوني: ورقات جزائرية...، المرجع السابق، ص 538.

يقومون به من قتل ونهب.[1] وكان الأعراب يستغلون الشتاء ليقوم بعضهم بالهجوم على البعض الآخر في الطرق المنعزلة ويسلبونهم وقد يقتلونهم أيضا، كما أنهم ماهرون في السرقة بصورة خاصة، ولديهم كذلك مهارة في العثور على مطامير جيرانهم،[2] وقد نعت الفقهاء هؤلاء الأعراب بـــ "أنهم من مستغرقين الذمم الذين لا شغل لهم إلا شن الغارات وقطع السبل وانتهاك أموال المسلمين..."[3].

على أن أبرز نموذج لصراع هذه المرحلة وما خلفه من نتائج كارثية في إفقار الفلاح هو ثورة إبن الأحرش التي توقفت بسببها الدورة الزراعية في كثير من الأرياف.[4] وحسبنا ما تذكر النصوص عن خراب وفقر الريف القسنطيني جراء هذه الثورة؛ إذ عم "الشر والقحط"[5] وبلغ القمح مبلغا لا عهد مثله حتى "أصبح الصاع الواحد من البرّ وقتئذ بخمسة عشر[6] ريال، والصاع من الشعير بسبعة ريالات، ودام القحط والغلاء في الحبوب كذلك سنة كاملة".[7] وفي هذه المرحلة نظم الشيخ "بلقاسم الرحموني" قصيدة شعرية بعنوان "قسنطينة الدهما"، عكست لنا وبصدق النتائج الجسيمة لهذه الثورة، فنطق الشاعر باسم السكان بكلمات بليغة لا تبعد قيد أنمله عن دور الشعر الشعبي في الكشف عن شقاء مجتمع الفترة وحجم القلق المخيف في وجدانه، وقد ترجم صاحبها عنف هذا الواقع بطريقة خاصة وبلغة تلمسانية لا نجد حرجا في إدراج بعض منها على طولها وذلك لأهميتها[8]:

---

[1] شارل فيرو: تاريخ جيجلي...، المصدر السابق، ص 51.

[2] شلوصر فندلين: المصدر السابق، ص ص 90_91.

[3] محمد بن عبد الكريم الفقون: المصدر السابق، ص 221.

[4] صالح العنتري: مجاعات قسنطينة، المصدر السابق، ص28.

[5] المصدر نفسه، ص 39.

[6] يقول العنتري أن الناس صاروا يسمون تلك المجاعة بعام الخمسطاش، أي (15) كون الزرع يباع بتلك القيمة.

[7] صالح العنتري: المصدر نفسه، ص 34.

[8] A. COUR: "Constantine en 1802 d'après une chanson populaire du cheikh BELQASEM Er _ RAHMOUNI EL_HADDAD", R.A, N° 60, ALGERIA, 1919, p 227_232.

عام مكبــره هــاي سيدي	بالكســاد وغلات النــعما
كيف نخبر هــاي سيــدي	بالفســاد في كمـــان حوما
ذاك حال الدهــر الخــوان	من حضر لتواخــير ازمان
يشوف جميع المنكر باعيان	ولا يطيـــــق يغيـــروا
حاط بهم الفقر والعـــــما	في بــلد قسنطينـــة الدهما
الأسعار راها غلات وحتى	أمطــار الصيــف ادفــاقوا
الحرث راه صعــب نبتــه	اليبــس والحجر يكــثــروا.

ويُخيل إلينا أن هذه المواقف الرافضة والمشمئزة من الصراع وكل ما نتج عنه، ما كانت لتتأصل في ذهنية المجتمع القسنطيني لولا الصورة القاتمة التي خلفها الصراع.

من جهة أخرى لم تسلم أرياف المناطق الحدودية خلال هذه الفترة من تبِعات الصراع القسنطيني التونسي، خاصة منذ تولي حمودة باشا على تونس، هذا الأخير الذي قال عنه أحد المؤرخين التونسيين[1] أنه عرف كيف يستغل ثورة إبن الأحرش العنيفة التي هزت أركان النظام التركي بالجزائر، وما نتج عن ذلك الصراع المحتدم بين البلدين من شقاء بالأرياف الحدودية، حيث حرص كل طرف على إلحاق أكبر ضرر بالآخر من خلال حروبه التي كان أغلبها فوق الأراضي الحدودية.

ويذكر لنا ابن أبي الضياف ذلك الصراع العنيف الذي كان في أوت 1807م على وادي صراط والخسائر المادية والبشرية التي تكبدها الجزائريون،[2] وهو ما أكده العنتري بقوله:" وتقابلوا مع بعضهم فأوقدوا نار حربهم وانتشر القتال بينهم أيام وليالي متواليين، فكانت الهزيمة على عرضي الجزائريين".[3] وقد قدرت تقارير فرنسية أن عدد القتلى كان بين الست والسبع مائة من الأرواح الجزائرية، ناهيك عن الأضرار الجسيمة التي لحقت بتلك الأراضي جراء هذه الحرب،[4] ولنا أن نقدر حجم تلك الأضرار من خلال المدة الطويلة التي دام فيها الصراع الجزائري التونسي بشكل عام.

---

[1] محمد الهادي الشريف: ما يجب أن تعرف عن تاريخ تونس من عصور ما قبل التاريخ إلى الاستقلال، تعريب: محمد الشاوش و محمد عجينة، ط3، دار سراس للنشر، تونس، 1993، ص 90.

[2] أحمد إبن أبي الضياف: ج3، المصدر السابق، ص 42.

[3] محمد صالح العنتري: فريدة مؤنسة...، المصدر السابق، ص95.

[4] رشاد الامام: المرجع السابق، ص 398.

من جهة أخرى فلا ريب أن دورية هذه الصراعات واستمرارها أفضت إلى خطر كبير في المناطق الحدودية، وأدت إلى تمرد تلك القبائل التي لا تعترف لا بداي الجزائر ولا بباي تونس،[1] الأمر الذي جعلها تهتم أكثر بالماشية والرأسمال المتنقل لسهولة الهروب به أمام النهب والغارات والحروب على حساب المساحات الزراعية.

وفضلا عن ذلك كان لضغط الطبيعة، والظروف المناخية، وضعف التقنيات ووسائل الإنتاج البدائية، عوامل أخرى أثرت بدورها في الإنتاج المعاشي للمجتمع الريفي، لذا بقيت إنتاجية العمل تبعا لذلك عند مستويات هزيلة لا تتجاوز أحيانا الحاجيات الضرورية للفرد والمجتمع. أما في الأحيان الأخرى فإن الرخاء المادي وكيفما بلغ كمه لدى القبيلة القسنطينية خلال مرحلة الدراسة التي كانت تعيش صراعا دائما مع سلطة البايلك من جهة ومع القبائل المعادية لها من جهة أخرى، يبقى رخاءً مؤقتا ومهددا بالزوال، وإذا أضفنا عنصر المجال بقحولته في الصحراء، وصعوبة تدبيره وضعفه في الجبال، أمكن القول أن الأساس الاقتصادي الذي ارتكزت عليه الأرياف القسنطينية أساس غير مستقر ومعرض للأزمات في أي لحظة.

ومما يؤكد هذه الحقيقة ضعف المستوى المعيشي للفلاحين والرعاة خلال هذه الفترة، ويختصر *Féraud* هذه الحقيقة في قوله: "وابتداء من المنحدر الشرقي لبابور حتى إيدوغ قرب عنابة، لا ترى عادة إلا أكواخا حقيرة، من ركائز أو لبنات الطين، مغطات بالديس أو قشر الفلين يسكن فيها الناس والحيوانات مختلطين، وأن مساكن الأغنياء، أو بعض الشخصيات الدينية، هي وحدها فقط التي تشكل الاستثناء من هذه الوضعية العامة".[2] وكذا يصف لنا شلوصر فقر سكان الأرياف من خلال وصف لباسهم فيقول أن الأولاد، وأولاد الأولاد يحتفظون بالثوب الذي حمله أبوهم ما يناهز مائة سنة، ويرقعونه رقعة رقعة إلى أن يتساقط على الجسم، ولا يُطرح حتى في هذه الحالة لعدم صلاحيته بل يباع في سوق من الأسواق[3].

[1] PEYSSONNEL,T2, OP.CIT, p269.

[2] شارل فيرو: تاريخ جيجلي...، المصدر السابق، ص 34.

[3] شلوصر فندلين: المصدر السابق، ص 99.

2_ المجاعات والأوبئة في الريف القسنطيني.

تجدر الإشارة إلى ظاهرة رافقت الصراع وأسهمت بدورها في تأزم الوضع المعيشي والديموغرافي للأرياف، ويتعلق الأمر بالمجاعات والأوبئة التي عرفها المجتمع الريفي خلال فترات طويلة من هذه الدراسة، والتي ترجع أسبابها بالدرجة الأولى إلى تلك الظروف المتأزمة فضلا عن العوامل الطبيعة، خاصة وأن انتشار المجاعات والأوبئة يقترن عادة بالمرحلة الأخيرة من عمر الدولة نتيجة علّة أساسية تفطن لها ابن خلدون سابقا وهي: "قبض الناس أيديهم عن الفلاحة في الأكثر بسبب ما يقع في آخر الدولة من العدوان في الأموال والجبايات والفتن الواقعة، وكثرة الخوارج لهرم الدولة".[1]

ولعل خير دليل يؤكد هذه النظرية الخلدونية هو إقرار العنتري أن أسباب الجوائح من الأوبئة والمجاعات " يتركب من أمرين، أحدهما نزول الجائحة والقحط...، والثاني وهو أعظمها، ترادف الأفتان والأهوال التي لم تطمئن نفوس الناس للحراثة معها".[2] وهذا ما يتضح جليا في فقدان الفلاح القسنطيني الرغبة في العمل حتى أنه في سنة 1786م من عهد صالح باي، لم يجد ملاك الأراضي في سهل عنابة الخصب من يقوم بحصاد حقولهم، فاضطروا إلى التنازل عن نصف الإنتاج لمن يقوم بحصاد القمح بعد أن تخوف كثير من الفلاحين من انتشار الوباء، وزهدوا في الحصول على خمس المحصول ما دامت المحلة تستحوذ على أربعة أخماس منه بدون مجهود[3].

كما تجدر الإشارة إلى القول بأن المناطق الخالية من الوباء لم تسلم أيضا منه، فقد أدى انتقال المحلة إلى انتقال عدوى مرض الطاعون، والأمثلة كثيرة في هذا الشأن لعل أهمها ذلك الطاعون الجارف الذي نشرته فرق المحلة في جنوب بايلك قسنطينة سنة 1786م.[4] وقد قدرت أحد الوثائق الأرشيفية أن عدد الضحايا في قسنطينة أيام صالح باي بلغ حوالي ألف ومائتي ضحية.[5] كما أدى إلى هجرة القبائل من مواطنها كقبائل القرفية

---

[1] عبد الرحمن ابن خلدون: المصدر السابق، ص 237.

[2] المصدر نفسه، ص 39.

[3] ناصر الدين سعيدوني، دراسات في الملكية العقارية، المرجع السابق، ص 37.

[4] فلة القشاعي: الصحة والسكان في الجزائر أثناء العهد العثماني وأوائل الاحتلال الفرنسي (1518_1871م)، أطروحة دكتوراه دولة في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة الجزائر، 2004، ص 168.

[5] رسالة في أخبار قسنطينة وحكامها، أرشيف المكتبة الوطنية الجزائرية، مجموعة رقم: 2717، ورقة رقم:3.

التي غادرت أراضيها جراء الطاعون وأمراض أخرى ولم يبق منها إلا بني وجانة، وأولاد ساسي، وأولاد أحمد.[1]

هذا وكثيرا ما وقفت السلطة المركزية عاجزة أمام مرض الطاعون،[2] كما كان السكان أنفسهم لا يعرفون الطبيب ولا التطبيب، وهذا ما عبر عنه حمدان خوجة في رحلته لقسنطينة واصفا المرأة الريفية وطريقة مداواتها لمرضها قائلا: "نرى هؤلاء النساء اللاتي لا يتوقفن عن الاشتغال، قذرات لا يعتنين بهندامهن، الأمر الذي يجعلهن عرضة للحمى ولغيرها من الأمراض الناتجة عن كثرة ما يلاقين من أتعاب، وعلاجهن عبارة عن نباتات معروفة بنجاعتها لأن السكان هنا لا يعرفون مبادئ التطبيب، وبالنسبة لهم فالطبيعة وحدها هي التي تصنع المعجزات".[3] أما الفقهاء فبصفة عامة لم يملكوا إلا الدعاء للبلد بالشفاء من هذه البلية التي تمثلت أساسا في ملازمة المرض وكثرة الشغب[4].

وبالمقابل كان البايات يستعينون بالأطباء الأجانب لمداواتهم، وفي هذا الصدد ندرج هذه الرسالة التي منها الكثير، والتي بعثها صالح باي إلى قبطان القالة من أجل الطبيب ويؤكد على حضوره حيث جاء فيها:"... إن الحاجة دعتنا إلى الطبيب الذي عندكم فلا بد أن تبعثه إلينا ويأتي معه بجميع الأدوية التي عنده خصوصا دواء المرض الكبير، ويأتي إلينا على عجل ولا بد ثم لا بد، ولا يخاف من المرض الواقع في البلاد لأنه خف"[5].

من جهة أخرى عرف بايلك الشرق الجزائري قحط ومسغبة كانت نتائجها وخيمة جدا على الديمغرافيا والإقتصاد والمجتمع على حد سواء، ذكرها العنتري معبرا عن هولها بقوله:" في سنة 1804_1805م زمان الأتراك وقعت مجاعة شديدة وقحط وهول أضر بأهل بلد قسنطينة ووطنها ودام الحال كذلك عليهم ثلاث سنوات متوالية".[6] ومثلت هذه المجاعة أصداءً وتوابع لثورة ابن الأحرش، اضطر فيها السكان إلى فتح مطاميرهم وتوزيع ما

---

[1] فلة القشاعي: الريف القسنطيني...، ص 256.

[2] حمدان خوجة: اتحاف المنصفين...، المصدر السابق، ص59.

[3] حمدان خوجة: المرآة، المصدر السابق، ص74.

[4] محمد بن عبد الكريم الفقون: المصدر السابق، ص 92.

[5] رسالة من صالح باي إلى قبطان القالة، أرشيف المكتبة الوطنية الجزائرية، مجموعة رقم: 1641، وثيقة رقم: 84. 1787م.

[6] صالح العنتري: مجاعات قسنطينة، المصدر السابق، ص 27.

كانوا قد خزنوه على إخوانهم الضعفاء الذين أشرفوا على الهلاك.[1] وبهذا الشأن يستحسن العنتري أهل الخير من المحسنين لمساعدتهم للسكان، ويعاتب عبد الله باي قائلا: "والحق أنهم (المحسننين من السكان) قاموا بإغاثة الفقراء وكل من قَدِم من الناس المسيبين،[2] وأعانوا ما قدروا عليه من قوت وغيره...وما كان من أمر الباي لم يبلغ عنه أنه فتح مخازن البايلك مثلا، وتصدق منها على الضعفاء بشيء من الحبوب...".[3] هذا وبنفاذ المئونة عم البايلك قحط شديد حتى " صار العباد يأكلون لحم بعضهم بعضا من الجوع"،[4] كما أصبحوا " يقتاتون الدم والميتة وغير ذلك مما لا يباح اقتتاته"[5].

وعموما فعلاوة عن ضغط المحلة ومطاردتها للفلاحين خلفت المجاعات بدورها نتائج كارثية على المجتمع الريفي، ولما كان هذا الأخير خلال هذه الفترة يمثل القوة الاقتصادية والمحور الأساسي للنظام المالي،[6] وقوى الإنتاج مرتبطة أشد الارتباط بالمخزون السكاني، فقد كان لعوامل الصراع وما رافقه من مجاعات أدوارا خطيرةً لتآكل قوى الإنتاج وتضعضعها. وقد أكد الزّهار على أن انتشار الأوبئة والطاعون تسبب في هلاك عدد كبير من السكان والحيوانات على حد سواء، مما أدى إلى نقص الأيدي العاملة.[7] ونتيجة لذلك اضطرت السلطة المركزية إلى إتباع سياسة تقشفية تعجب منها الأوربيين الذين شهدوها في تلك الفترة.[8] من جهة أخرى جادت قريحة أحد الشعراء تعبيرا على هذا الوضع بكلمات متشائمة جدا تدل على ما وصلت اليه الأوضاع الاقتصادية من تدهور والذهنية الشعبية من تأزم[9]:

تحزمت رجالي للفتــن   التل يخلى وتزول الذخائر
وتصير النخلة، برخلة   ولا شك تخلى الجــزائر

[1] محمد العربي الزبيري: المرجع السابق، ص55.

[2] يريد بها الأهالي الضائعين والمهملين.

[3] صالح العنتري: مجاعات قسنطينة، المصدر السابق، ص41_42.

[4] محمد المهدي بن علي شغيب: المرجع السابق، ص 392.

[5] صالح العنتري: مجاعات قسنطينة، المصدر السابق،ص 34.

[6] NOUSHI: OP.CIT, p 102.

[7] الشريف الزهار: المصدر السابق، ص 142.

[8] VENTURE DE PARADIS: OP.CIT, p88.

[9] **CH. FERAUD**: "Zebouchi et Osman bey", OP.CIT, p125.

ثانيا_ تفاقم البداوة في الريف القسنطيني.

إن دورية الصراع وضغط المحلة والثورات الريفية، فضلا عن المكانة الهامة التي اكتستها الأرض بخصوبتها في مجمل الأهداف الأساسية للأطراف المتنازعة، كلها عوامل أدت الى أهم تحول عرفه المجتمع الريفي القسنطيني، وهو عزوف الفلاحين عن سُكنى السهول والأراضي الخصبة وتركها فراغا، والامتناع بالمناطق الوعرة لتكون لهم حصنا آمنا، والتي تمثلت عادة في الجبال والمرتفعات والفيافي، حيث شكلت المجال الأكثر استقطابا للمجتمع، طالما أن السهول تتردد عنها المحلة والغارات المفاجئة والنهب لسهولتها عليهم.

وليس أدل على رسوخ مثل هذا الوضع مما تذكره المصادر عن هروب قصري للفلاحين تجاه المعتصمات الجبلية، فرارا من قبضة السلطة المركزية،[1] وقسوة الحملات العسكرية[2]. كما تثبت مصادر أخرى مدى كثرة الفلاحين الذين هاجروا السهول الخصبة ليلجأوا إلى الجبال ويسكنوا قمما لا سبيل إلى وصول الأتراك وأعوانهم إليها،[3] وأثر ذلك على تقلص المساحة المزروعة. وحسبنا في هذا الصدد ما أكده العنتري بقوله:" أنك لا تجد في هذا الزمان (زمان ثورة ابن الأحرش) ولا في الذي قبله وبعده من يهتم من أمر الزرع أبدا، ومن أجل بخس قيمته فلا تجد معتنيا بها إلا أهل البادية قدر ما يكفيهم لاقتياتهم فقط وأصحاب المخزن"[4].

وإن كان هذا النص يفيد الاختيار لا الإكراه، باعتبار أن المجتمع الريفي لا يزاول الزراعة لبخس أثمانها، فإن هناك نصوصا كثيرة تفيد الإكراه، لأن الأراضي التي كانت تزاول فيها قبائل المخزن نشاطها الزراعي، لم تكن في الواقع سوى تلك الاقطاعات التي صادرتها السلطة المركزية من القبائل،[5] أو تلك التي طُردت منها القبائل ومُنحت للمخزن خدمة لمصالح البايلك.[6]

---

[1] شالر وليام: المصدر السابق، ص 106.

[2] أحمد ابن العطار: المصدر السابق، ص 46.

[3] شالر وليام: المصدر السابق، ص 59.

[4] صالح العنتري: مجاعات قسنطينة، المصدر السابق، ص 35.

[5] NOUSHI, OP.CIT, p80.

[6] ناصر الدين سعيدوني: أبحاث وآراء...، المرجع السابق، ص 114.

ونتيجة لهذه الأوضاع المتأزمة، اضطر الكثير من الفلاحين إلى هجر أراضيهم، وأضحى الحديث متواترا عن "منازل مخربة"،[1] و"قرى أُحرقت بأهلها"،[2] و" قرى خُربت ديارها وبقيت خالية من أهلها"،[3] و" قبائل تشتتوا عن منازلهم"،[4] و"سهول خالية من سكانها كلية تقريبا"،[5] وأخرى عن "هروب أهل البادية وتحصنهم بالجبال والشعب"،[6] وعن "قرى أُكتسحت وهُدمت"،[7] و"عن أرياف كبيرة وخالية"،[8] وغيرها من القرائن التي توحي بنزوح جماعي للفلاحين تجاه المرتفعات فرارا من النهب والتعدي والغارات التي أضحى بفعلها معظم الريف غير مسكون. ويصف هذا الوضع وليام شالر بقوله: " أن السهول التي كانت تتمتع بكثرة الخيرات، أصبحت بفضل الاستبداد الصامت والضغط البربري الذي تمارسه الحكومة التركية صحراء قاحلة موحشة"[9].

وليس أدل على ذلك أكثر من تدخل السلطان العثماني نفسه في هذا الأمر، والذي أرسل فرمانا يأمر فيه حكام الجزائر بالاهتمام بالفلاحين والعمل على إعادتهم إلى أراضيهم وإلزامهم بدفع الضرائب التي عليهم،[10] مما يقيم الدليل على تقلص واضح في المساحات المزروعة بسبب فرار الفلاحين من أراضيهم وتركها بورا. وقد يتساءل المرء عن تلك الأراضي التي كانت القبائل يتخذها موطنا جديدا لها بعد هروبها وانتجاعها، إن كان من حقهم الاستقرار فيها؟ وإن كان هناك من ينازعهم في موطنهم الجديد أم لا؟ وقد نجد إجابة وافيه للفقيه محمد الفكون على هذا التساؤل في إحدى نوازله قائلا: "ما كان من الأرض لا ملك لها فهي لمن أحياها مواتا إن كانت بعيدة عن العمران، وما كان قريبا منه يبقى لبيت مال المسلمين"[11].

---

[1] PEYSSONNEL,T2, OP.CIT, p287 .

[2] الحسين الورثيلاني: المصدر السابق، ص 75.

[3] مؤلف مجهول: المصدر السابق، ص 58.

[4] محمد صالح العنتري: مجاعات، المصدر السابق، ص 31.

[5] وليام شارل: المصدر السابق، ص 109.

[6] أحمد ابن العطار: المصدر السابق، ص 46.

[7] شلوصر فندلين: المصدر السابق، ص 53.

[8] أندري نوشي وآخرون: المرجع السابق، ص 146.

[9] وليام شالر: المصدر السابق، ص 106.

[10] جميلة معاشي: الإنكشارية والمجتمع...، المرجع السابق، ص 95.

[11] محمد بن عبد الكريم الفقون: المصدر السابق، ص 93_94.

لكن، هذا لا ينفي وجود بعض المطاحنات حول تلك الأراضي، فهذا شلوصر يشير الى أنه بالرغم من أن القبائل المهاجرة تضع خيامها في المكان علامة على الملكية دون أن تُضرب، إلا أن هذا لا يمنع وجود نوع من النزاع، حيث يتولى حراسة تلك الخيام النساء والصبيان وعندما تعطى الاشارة يركب المتخاصمون فوق خيولهم، وينطلقون جماعات صغيرة ببنادق معبأة ويهاجمون خصومهم، فإذا سقط من أحد الطرفين عدد من الرجال فإنه يحمل خيامه وينسحب ببطء، ويطارده خصمه مسافة ثم يضرب خيامه على أرض المعركة بصفته منتصرا[1].

ولا تعوزنا الدلائل الكاشفة عن هذه الهجرات التي تفاقمت معها البداوة بشكل غير طبيعي في البايلك أواخر الفترة العثمانية، نذكر منها هجرة الكثير من العشائر وعلى رأسها الشابية إلى البلاد التونسية بسبب حملة صالح باي على قبيلة النمامشة ومفاجأته في آن واحد لزاوية أولاد سيدي عبيد، مجبرا القبيلة على دفع ضريبة اللزمة التي قدرت بقيمة فرنكين للخيمة الواحدة.[2] وهجرة العيشاوية بالأوراس إلى الجهات الواقعة بين ايدوغ وسطورة، وهجرة عشائر أولاد عبد النور، التلاغمة، أولاد سلام، أولاد لخضر،أولاد سلطان، وأولاد معوش نحو جهات الهضاب العليا القسنطينية القريبة من جبلي نيف النسر وقريون[3].

والأكثر من ذلك "سهول عنابة التي خلت من سكانها كلية تقريبا بنزوح القبائل العربية عنها، بسبب تعرضهم للاستبداد، كما التجأ أهاليها إلى تونس"،[4] وكذا "القبائل الصحراوية التي لا تبقى في مكان واحد أكثر من شهر".[5] هكذا إذن يبدو أن الصراع داخل الريف، قد وجه ضربات موجعة للنشاط الفلاحي، حين أرغم كثيرا من القبائل التي تشكلت لديها تقاليد هامة في تدبير الأرض وفلاحتها، على هجر أراضيها ومغادرتها، لصالح قبائل ربما لا تكون لها علاقة بالأرض والفلاحة إلا من جانب منفعتها، وهذا ما أثر سلبا على المنتوج الزراعي.

---

[1] شلوصر فندلين: المصدر السابق، ص 89.

[2] صالح فركوس: المرجع السابق، ص 46.

[3] ناصر الدين سعيدوني: ورقات جزائرية...، المرجع السابق، ص491.

[4] وليام شالر: المصدر السابق، ص 109.

[5] حمدان خوجة: المرآة، المصدر السابق، ص 76.

وعلى صعيد آخر، كان للظروف الطبيعية والنزاعات القبلية أثره على تفاقم البداوة أيضا، فقد كانت طبيعة المناخ ونوعية الانتاج بالمنطقة الجنوبية والحاجة الملحة للحصول على المواد الأولية الضرورية للعيش، سببا في هجرة قبائل توقرت، وتأتي في طليعة هذه القبائل البدوية الشعابنة والأرباع وأولاد نايل، أما سعيد عطية فقد انخرطت ضمن قبائل المخزن لكي تضمن المراعي لماشيتها[1].

كما أصبح المجال الرعوي يغطي مساحات شاسعة من الأوراس، وتحول مع مرور الزمن إلى قطاع خاص للعديد من العشائر البدوية التي تمتهن الرعي، خاصة إذا علمنا أن "الاستقلال هو الأمر الوحيد الذي يشغل أذهان قبائل الشاوية، وأنه غاية وجودهم ومتى نالوا الاستقلال يعيشون بكل فرح وسرور مع الفقر في مناخ شديد القسوة".[2] وهنا نذكر الصراع القبلي بالأوراس، بين صف الغرابة المكون من (أولاد زيان، نارة، تاغوست، بوزينة، الفضالة، وبعض الفرق من بني فرح ومشونش)، وصف أولاد عبدي المكون من (أهالي الرحا من أولاد عبدي، الأرباع، بعض الأسر من المعافة، أولاد عزوز، بني بوسليمان، أولاد ملول، أولاد جانة والأعشاش). وقد أدى هذا الصراع العشائري في كثير من الأحيان الى ارتحال القبائل المنهزمة عن مواطنها، بحثا عن أماكن جديدة خارج الأوراس يتوفر فيها الأمن والهدوء[3].

وإذا كانت هذه النصوص تكشف عن سكان الأرياف الذين تخلوا عن النشاط الزراعي ولجأوا إلى البداوة، وبروز فلاحة متقوقعة في قمم الجبال بعيدا عن التحرشات المخزنية والحملات العسكرية، فإن نصوصا أخرى تثبت اكتفاء بعض القبائل التي لا قدرة لها على تحمل مشاق الانتجاع بالاهتمام الكبير بالتحصينات المعمارية، وهو ما تعبر عنه القرى المسورة والمحصنة داخل الأرياف نفسها. وحسبنا في هذا الصدد ما يذكره شلوصر عن قرى سكان القبائل البربرية المحاطة كلها بالأسوار مؤكدا " أنها محصنة جدا لدرجة أن العدو لا يستطيع مهاجمتها دون مدفعية".[4]

[1] ناصر الدين سعيدوني: ورقات جزائرية...، المرجع السابق، ص529.

[2] وليام شالر: المصدر السابق، ص122.

[3] ناصر الدين سعيدوني: ورقات جزائرية...، المرجع نفسه، ص490

[4] شلوصر فندلين: المصدر السابق، ص 98.

ولعل أحسن نموذج لفن العمارة المحصّنة نجده بالأوراس وذلك في هندسة مداشر أولاد عبدي وأولاد داوود، حيث تتخذ المساكن شكلا مستديرا يعلو الأماكن المرتفعة ويشرف على الوديان العميقة، ورغم هذا فإنها لم تكن في مأمن من الهجومات، وهذا ما تطّلب تشييد حصون بجوارها تكون ملجأ أخيرا لسكان هذه المداشر في فترات الفتن.

وقد تميزت هذه الحصون المعروفة محليا بـــ "تاقلعيت" بكونها كانت تقام فوق المرتفعات المشرفة على المنحدرات الغربية للأودية الرئيسية باعتبار أن المناطق الشرقية حصينة بعلوها، وقد شبهها المؤرخ سعيدوني بقصور "نفوسة أو أغادير" بالمغرب الأقصى، وكان لسقوط هذه الحصون على يد المحلة أو القبائل المعادية، أهم دافع لمغادرة السكان مواطنهم بحثا عن ملجأ جديد وهو ما فعله أولاد عزيز بهجرتهم إلى نواحي الزمول وسلاوة بالهضاب العليا[1].

ويخيّل لنا أن أبرز مثال في التحصينات المعمارية هو نظام المخازن الذي عرفه المجتمع الريفي القسنطيني، والذي اتخذ شكل حصن منيع تخزن فيه الأسرة أقواتها خوفا عليها من الغارات والنهب. لذلك لم يدّخر الرجل الريفي وسعا في استخدام أساليب عمرانية تكشف تغلغل طابع الصراع في بنية المعمار الريفي خلال هذه المرحلة، وفي مقدمة هذه الأساليب نذكر المطامير المعدة لتخزين الحبوب والحفاظ عليها لسنوات متعددة دون أن يلحقها ضرر[2].

وعلى الرغم من أن الجوائح من الأوبئة والمجاعات والعوامل الطبيعية القاسية التي عصفت في أكثر من مرة بمعاش المجتمع الريفي، كانت من أهم ما أفضى الى ظهور هذا النوع من العمران منذ القدم،[3] فإننا نعتقد أن ما كانت تُسببه المحلة من غارات مفاجئة، وصراع استهدف انتزاع الحبوب ممن يمتلكها، فضلا عن القبائل المعادية وقطاع الطرق، كلها عوامل أفضت إلى مزيد من الطلب على هذا النوع المعماري. ولعل ما تذكره بعض مصادر المرحلة حول مطامير الرجل الريفي يؤكد صدق هذا التوجه، فهذا حمدان خوجة يؤكد على أن الأماكن التي "تُختار لخزن الحبوب أماكن مجهولة تُهيأ بدقة حتى أن الأعداء

---

[1] ناصر الدين سعيدوني: ورقات جزائرية...، المرجع السابق، ص ص 491_495.

[2] حمدان بن عثمان خوجة: المصدر السابق، ص 74.

[3] يذكر الشريف الادريسي في وصفه لقسنطينة أن بها مطامير توضع بها الحنطة مئة سنة ولا تفسد. أنظر، الشريف الادريسي: المصدر السابق، ص 256.

يمشون فوقها عندما يغزون المنطقة ولا يكتشفونها إلا إذا دلهم على ذلك أحد الخونة".[1] أما شلوصر فيذهب إلى أن الرجل الريفي "يدفن محاصيله في مكان سري، بحيث لا يطلع عليها أحد حتى زوجته وأطفاله، وهكذا يبقى له ماله إن أغار عليه عدوه وسلبه أدواته المنزلية وزوجته وأطفاله"[2].

وخلاصة القول، أن الصراع بقدر ما أسهم في تدهور النشاط الفلاحي وسحب ميكانيزمات تطوره، بفقدان الفلاح كل ما يحفزه على الزراعة واضطراره إلى التخلي عن السهول وهجر أراضيه ولجوئه إلى الانتجاع لما يجده من اطمئنان في حياة الرعي والترحال، فإن الصراع ساهم أيضا بدور هام في ترسيخ ثقافة التحصين والادخار وتحصيل الغلات في المطامير تحسبا لأي عدوان وللأيام التي قد تتوقف فيها الدورة الزراعية. وإجمالا فقد أفضى الصراع والقلاقل إلى إحداث تغيرات جذرية في المشهد الفلاحي في بايلك الشرق خلال فترة الدراسة، أسهمت بدور أساسي في تغيير ملامحه حين حولت كثيرا من السهول الصالحة للزراعة إلى مجالات للرعي والانتجاع، وانحصار الرقعة المزروعة في قمم الجبال والمرتفعات وداخل القرى المسورة والمحصنة.

---

[1] حمدان بن عثمان خوجة: المرآة، المصدر السابق، ص 75.

[2] شلوصر فندلين: المصدر السابق، ص 90.

ثالثا_ النزوح الريفي إلى المدينة

اعتاد الباحثون[1] على تصنيف أسباب النزوح الريفي للمدن الكبرى إلى عاملين أساسين هما: عامل الطرد في الريف، وعامل الجذب في المدينة، أما الأول فكان نتيجة للفقر المدقع الذي شهده المجتمع الريفي جراء الجوائح وما يترتب عنها من مجاعات وأوبئة بالإضافة إلى الإجحاف الضريبي[2] والتفكك القبلي الناتج عن الصراع المستشري في الريف وأصداءه،[3] أما الثاني فيكمن في الاستقرار النسبي للمدينة بالمقارنة مع الريف، وقدرتها على الاستيعاب وتوفيرها لمناصب الشغل. لذلك لجأت شريحة من المجتمع الريفي إلى الهجرة نحو المدن الكبرى بحثا عن العمل لتلبية احتياجات أسرهم[4].

وقد صُنفت هذه الشريحة ضمن سكان المدينة تحت اسم "فئة البرّانية" التي تدل على الأفراد المقيمين بالمدينة دون أن يكونوا حضريين، والتي فرض عليها الوضع الاجتماعي ونوعية النشاط الاقتصادي في المدن أن تنظم حسب أصولها الجهوية ومواطنها الأولى، مثل جماعة البساكرة ويُقصد بهم كل من أهالي مناطق الزيبان ووادي ريغ وسوف وتوقرت، وجماعة جيجل وبني ميزاب والقبائل وغيرهما من الجماعات[5].

والواقع أننا لا نملك أي وثيقة رسمية تدل على عدد الجماعات التي لجأت إلى المدينة في هذه المرحلة، لكن هناك من يشير إلى أن عدد البرّانية في مدينة قسنطينة وصل إلى 5000 فرد نهاية الفترة العثمانية.[6] كما أن بعض الباحثين المختصين بدراسة المدينة والمجتمع القسنطيني[7] قد ذُهلوا لنتائج الجرد التي توصلوا إليها، وذلك لكثافة الانتماء القبلي عند سكان المدينة والنازحين إليها، والذي يؤكد على حركية القبائل وعدم استقرارها ومدى جاذبية مدينة قسنطينة لها. ومن جهة أخرى يذكر لنا الشاعر "بلقاسم

[1] عبد العزيز بوودون: المشكلات الإجتماعية المترتبة عن الهجرة الريفية، مذكرة مقدمة لنيل دبلوم الدراسات المعمقة في علم الاجتماع الريفي والحضري، جامعة قسنطينة، 1985، ص 17.

[2] شالر وليام: المصدر السابق، ص 109.

[3] صالح العنتري: مجاعات قسنطينة، المصدر السابق، ص 43.

[4] **CH. FERAUD**: "Notes sur bougie", OP.CIT, p 299.

[5] ناصر الدين سعيدوني والمهدي بوعبدلي: الجزائر في التاريخ...، المرجع السابق، ص ص 98_99.

[6] جميلة معاشي: الإنكشارية والمجتمع...، المرجع السابق، ص 193.

[7] فاطمة الزهراء قشي: قسنطينة المدينة والمجتمع في النصف الأول من القرن الثالث عشر للهجرة (أواخر القرن 18م إلى منتصف القرن 19م)، رسالة دكتوراه دولة في التاريخ، جامعة تونس، 1998م، ص 191.

الرحموني" ما يوحي بالعدد الهائل من هذه الجماعات التي حلت بمدينة قسنطينة بعد سنة 1802م قائلا[1]:

من كثير العبد اندخلـــــت رغمــــا عمـــــــــرت

كل جنس جاها يتهدا

بالقبايـــل راها تحشــــــات والشـــوية كلتهم جـــــات

والســـوافة ذوك الازفـــات حتـــى مـــزيتـــــة زادوا

مغاربة وشــــراقة حفـــلات جايين لـــيها بالكـــــثرات

فازعين ليها الكل باثـــبات مثل هيـــس اجــــــرادوا

بني مزاب أقوات بسلعات الخومـــس عرات الأمات

وهنا نستطيع رصد الجماعات التي نزحت إلى المدينة وهي: القبائل، الشوية، السوافة، مزيتة، المغاربة، الشراقة، وبني ميزاب، وهذا دليل واضح على كثافة نسبة البرّانية في مدينة قسنطينة. فضلا عن الذين اختاروا الهجرة إلى المدن الكبرى بالجزائر أو تونس، وهو ما يقيم الدليل على ذلك النزوح القسري لسكان الأرياف جراء الصراع، حتى وإن كانوا يعيشون في فقر ويسكنون الأكواخ على أطراف المدينة، وبعضهم يقضي الليل على أبواب الأحياء أو خارج أسوار المدينة[2].

كما أن المهن التي كانوا يشغلونها مهن متواضعة جدا، بل وأعمال شاقة في الكثير من الأحيان، كالأعمال التي كان يشغلها البساكرة من إحضار المياه للمنازل وتنظيف القنوات والمجاري من الأوساخ، والقيام بالحراسة في الليل وحمل السلع والبضائع. أما جماعة القبائل فقد اشتغلوا بالمهن اليدوية والأعمال الزراعية، والحراسة الليلية وبناء السفن والمنازل كما عملوا في الرعي والحرث والخدمة والحجابة.[3] في حين كان بعض النازحين إلى مدينة الجزائر يشتغلون في خدمة القناصل الأوربيين.[4] وقد حدد نوشي أجورهم بمبلغ قرشين[5] ونصف في الشهر[6].

---

[1] A. COUR: "Constantine en 1802…", OP.CIT, p 227_228.

[2] جميلة معاشي: الإنكشارية والمجتمع...، المرجع السابق، ص 194.

[3] أندري نوشي وآخرون: المرجع السابق، ص 169.

[4] شالر وليام: المصدر السابق، ص194.

[5] **القرش**: أطلق على السكة الأجنبية، ويساوي120 أقجة (30 درهم). أنظر، سهيل صابان: المرجع السابق، ص 178.

[6] أندري نوشي وآخرون: المرجع السابق، ص 169.

ويزداد وضع الريفيين النازحين إلى المدينة سوءًا إذا كانوا من المصنفين ضمن الهاربين من المجاعات، وقد وصف لنا العنتري وضعهم البائس في أزقة المدينة جراء المجاعة التي عقبت ثورة ابن الأحرش قائلا: "إن الأهالي كلما تكلموا عن القمح حال نزول الشر[1] بهم تكلموا به كالنظم، وعند سؤالهم للناس في الديار والأزقة يغنون لديهم به، ويرقصون فيتصدق الناس إليهم:

القمح يا باهي اللـــون من شبعتك لا زيـــادة
أنت قوت كل مسكين بك الصلاة والعبـــادة"[2]

هذا ولم تقتصر الهجرة الريفية على الفلاحين الفقراء والهاربين من الصراع وأصدائه فقط، بل شملت أيضا العائلات الكبرى وقبائل المخزن ممن تكونت لديهم ثروة هائلة نتيجة الامتيازات المتوالية لاستمالتهم، فأصبحوا بذلك من كبار الملاك، وهذا ما سمح لبعضهم بتحول نمط معيشتهم ودفع بهم إلى حياة أفضل في المدينة، كشيوخ أولاد عاشور بفرجيوة وشيوخ الحنانشة الذين استقر بعضهم بمدينة قسنطينة، وهو ما تؤكده كثرة عقود الزواج المسجلة باسم أفراد الأسرتين بمحكمة قسنطينة.[3] فضلا عن القبائل التي استطاعت السلطة المركزية استمالتها وتحويلها إلى قبائل مخزنية حليفة، كقبيلة السحاري التي اشتهرت في بداية عهدها باللصوصية وقطع الطرق ثم حولها بايات قسنطينة إلى قبائل مستقرة تابعة لقوات شيخ العرب "بوعزيز بن قانة"[4].

وإذا كان العديد من الفلاحين قد هجروا أراضيهم والتجأوا إلى الجبال أو إلى المدن لتعاطي مهن أخرى، فقد انضم عدد كبير منهم إلى نظام "الخماسة" الذي ميزه ضيق الحال بالنسبة للمُزارع، الذي لا يحتاج عادة سوى لكوخ في مزرعة البايلك أو المالك، حيث تُعطى له بقرة أو بقرتين ،حسب الاتفاق، يعتني بها مقابل انتفاعه بأرطال من الزبدة.

---

[1] كلمة عامية تعني الجوع.

[2] صالح العنتري: مجاعات قسنطينة، المصدر السابق، ص 43.

[3] للإطلاع على مختلف عقود الزواج التي جمعت المجتمع الريفي بالأتراك. أنظر، جميلة معاشي: الإنكشارية والمجتمع...، المرجع السابق، ص 110_ 125.

[4] جميلة معاشي: الأسر المحلية...، المرجع السابق، ص 282.

ويتقاضى الفلاح خمس المحصول بعد أن تُخصم منه الديون المترتبة عليه،[1] وكثيرا ما استُعبد الخماسة لعجزهم عن أداء هذه الديون[2].

وعلى صعيد آخر، كشفت لنا نوازل محمد بن الفكون عن أنواع العقود التي تداولت بين الأفراد نتيجة التطورات التي أحدثها الصراع، ومن جملتها عقود الشركة والكراء، فهذا "فلان أعطى لرجال أرضا يحرثونها على وجه الشركة بينهم كما جرت العادة، وحرثوا هم أرضا أخرى لأنفسهم أخذوها من عند غيره بالكرى..."،[3] وآخر "ابتاع أرضا وتصرف فيها بالحرث والتحريث وعمل البحاير ولا يضع فيها أحد بحيرة حتى يؤد كراءها للمبتاع (الشاري) المذكور، ثم أن "رجلا عمل بحاير في الأرض المذكورة وامتنع عن الكري إلا في الحرث..."،[4] وهو ما يدل على انتشار تلك العقود وكثرة الفلاحين المستغلين من طرف ملاك الأراضي.

وعموما، وبغض النظر عن المهن التي امتهنها الرجل الريفي في المدن والتي يبدو على أغلبيتها أنها من أشق الأعمال مقارنة بالمبلغ الزهيد الذي يتقاضاه حيالها. تجدر الاشارة إلى ملاحظة أخرى تزيد من شقاء المجتمع الريفي موضوع الدراسة، وهي أنه إذا كان الغرض من الهجرة إلى المدينة هو الهروب من الضرائب والصراع وأصدائه من أجل العمل والكسب، فلا شك أن معظم النازحين الريفيين إلى المدينة هم صغار السن. وهو ما يؤدي إلى فقدان الريف لشبابه الأكثر قدرة على تحمل العمل الزراعي المرهق، وبالتالي تزداد مشاكل المجتمع الريفي تعقيدا عندما يُصاب الانتاج الزراعي بالركود نتيجة لقلة من يتولى الزراعة.

[1] محمد العربي الزبيري: المرجع السابق، ص 58.

[2] أندري نوشي وآخرون: المرجع السابق، ص 209.

[3] محمد بن عبد الكريم الفقون: المصدر السابق، ص 226.

[4] المصدر نفسه، ص 93.

رابعا_ أثر الصراع على الأسرة الــريفية.

1_ أثر الصراع على الرجل الريفي:

لا شك أن المتصفح للنصوص المتوفرة حول الانعكاسات الديمغرافية للصراع داخل الريف القسنطيني يكشف دون عناء عن ثنائية طالما رددتها المصادر في عرضها لنتائج كل صراع، وهي قتل الرجال والاستيلاء على المغانم، لدرجة يمكن اعتبار ذلك جوهر الظاهرة نفسها، مما يعني أن الفئة الأكثر عرضة للموت هي فئة الرجال، وهذا ما تؤكده معظم الاحصائيات وإن كانت قليلة[1]. نذكر منها على سبيل المثال ذلك الصراع الذي جمع قبيلتي النمامشة والحنانشة، والذي قضى على الكثير من رجال القبيلتين، وهذا ما يبدو واضحا في الأغنية الشعبية التي أدرجها *Féraud* في عرض كلامه حول صراع هاته القبائل على لسان رجال قبيلة النمامشة، حيث بَدَوا في حالة عتاب لصهرهم بوحفص من قبيلة الحنانشة، لما نالهم من القتل والفتن جراء الصراع ندرج منها هذه المقطوعة[2]:

بركانـــا يا بوحفص بركـــانـــا

بركانا بركانا هذا الفتن قضّانا[3]

لاذا الخـــســـارة اليــك والينـــا

الله يطـــفي ذي الـــنار عليـــنا.

وعلى صعيد آخر فإذا كانت الوظيفة الدائمة للمحلة هي النهب والخراب داخل الريف، فإن النتيجة المباشرة لها كانت تحدث في التركيب الديمغرافي، لأنه كثيرا ما تسببت في انحراف المنحنى المتصاعد للنمو في قرى أُبيد معظم سكانها تقريبا، كما حصل ذلك لأولاد بوعون الذين، حسب مخطوط بايات قسنطينة، "مات منهم خلق كثير ولم ينج منهم إلا القليل وهدم الباي (مصطفى الوزناجي) تلك القرية وخرب ديارها وقطع أشجارها،[4] وكذا أولاد زكري الذين قتلهم الحاج أحمد باي عن آخرهم في قرية بني زياد[1].

---

[1] نود أن نشير هنا إلى أن المصادر المعتمدة تفتقر للنصوص التي تكشف عما تخلفه كل حملة من قتلى وضحايا، والمتوفر منها يبدو ضئيلا جدا، ذلك أن مؤرخي المرحلة كثيرا ما يمرون عليها سريعا كما لو أن لا فائدة من الإطالة فيها، لأن الأهم الذي لمسته من تلك الكتابات هو تحديد غلبة المحلة وغنيمتها الاقتصادية في الحملة لا ما خلفته الحملة من خسائر في الجانب الاجتماعي.

[2] CH. FERAUD: "Les Harar…," OP.CIT, p355.

[3] **قضّانا:** هي كلمة عامية تعني قضى علينا وأفنانا.

[4] مؤلف مجهول: المصدر السابق، ص 58.

ويمكن أن نرصد الاستنزاف المزدوج للرجال والثروات في مرحلة التركيز للسلطة في الأرياف القسنطينية والتي يمثلها صالح باي، ومرحلة التأزم الحقيقي للسلطة في البايلك بوفاته سنة 1792م. وإذا توصلنا فيما سبق إلى أن فترة صالح باي قد تفاقم خلالها الصراع وتعاظم معها نفوذ البايات في الريف، فلا شك أنها اقترنت بتناقص ديموغرافي لم يعهده المجتمع الريفي على الأقل في تلك الفترة. وبالرغم من أننا لا نملك إحصائيات دقيقة لكل حملة إلا أنه يكفي أن نبرز المتوفر منها لعقل الأثر على المجتمع الريفي وقتها، فمثلا خلال حملة صالح باي على أولاد نايل أرسل إلى الداي بالجزائر غنائم كثيرة مصحوبة بـــ 60 رأس و400 زوج أذن للعصاة، فضلا عن الذين قُتلوا جراء التعذيب[2].

كما أبدت بعض الكتابات التاريخية للمرحلة ردود فعل واضحة عما ميز اجتياح هذه الحملات العسكرية من عنف وتقتيل؛ إذ يذكر *Mercier* نتائج حملة الباي على "دشرة النميلة" والتي كانت حصيلتها من القتلى 100 رجل،[3] والحقيقة أننا لا نملك احصائيات لهذه القرية قبل تلك الحملة، لكننا نعتقد أن دشرة صغيرة كالنميلة بنسبة سكانية محدودة لا تتحمل قتل مثل هذا العدد من الرجال، ولنا أن نتوقع الحالة الاجتماعية السيئة لهذه القرية بعد أن فقدت 100 رجل من خيرة رجالها.

والظاهر أن الصراع الذي نشب بين صالح باي وسكان الأرياف أفضى إلى سقوط الكثير من القتلى، ولا يُستبعد أن تكون هذه الخسائر في الأرواح هي التي كانت وراء خضوع القبائل له، مثلما حصل مع قبائل الزمول والسقنية التي قتل منها الكثير من الرجال،[4] ويستشف من هذا أن القبائل كانت تسارع لطاعة البايلك تفاديا لوقوع مزيد من القتلى في أفرادها وحسبنا أن رضوخ توقرت وأريافها وإذعانهم لصالح باي لم يتم إلا بعد أن رأت ما نالها من القتل والغارات.

---

[1] محمد العربي الزبيري: المرجع السابق، ص 32.

[2] VAYSSETTES: "Histoire de Constantine…", OP.CIT, p334.

ويذكر فايسات عملية تعذيب المتمردين التي استخدم فيها جنود المحلة ما يعرف بالخازوق حيث وضعوا عمود من الخشب، منثور الشوائب من كل الجهات، حاد الأطراف، مدهون بالزيت والصابون، وقاموا بإدخال العمود من الجانب الحاد داخل جسم المتمرد حتى يخترق كتفيه، ثم يجعلون العمود قائما ليبدوا الرجل وكأنه يمتطي حصانا، فتبقى يداه ورجلاه كذلك حتى يموت. Ibid, p335

[3] ERNEST MERCIER: Histoire de Constantine, OP.CIT, p 273.

[4] VAYSSETTES: "Histoire de Constantine…", OP.CIT, p336.

أما إذا تفحصنا واقع البايلك بوفاة صالح باي فنجد أن هذه الفترة كانت واحدة من الفترات الحرجة في تاريخ قسنطينة، فقد امتدت فترة زمنية ليست بالقصيرة شهد البايلك خلالها أزمات حادة أفضت إلى تناقص ملحوظ في المنحنى الديمغرافي للمجتمع الريفي.
وكثيرة هي القرائن التي تؤكد أن الصراع الذي استفحل ببايلك الشرق في هذه المرحلة قد عطل السير العادي للنمو، ففي تقرير كتبه مندوب وكيل القالة في سنة 1795م يقول فيه:" قبل 12 سنة كان يسكن نواحي القالة 10 آلاف نسمة، واليوم لم يبق فيها إلا حوالي 100 أسرة الأمر الذي أضر بتجارتنا وأنقص من منتوجات الحبوب، وهذا ناتج عن الحروب المترتبة عن استبدال الشيوخ بكثرة، إذ أنه تم تنصيب أربعة في ظرف عام ونصف"[1].

وعلى خلاف العادة اقترنت ثورة ابن الأحرش بأزمة ديمغرافية حادة في أوساط الريف القسنطيني، وقد عبر العنتري عن ذلك في فريدته قائلا:"وانقرضت (كذا) آلاف من الموتى وأضعاف ذلك من الجرحى"،[2] فضلا عن عدد القتلى الذي يتجاوز الـــ 75 رجلا من الريفيين في معركة وادي الزهور التي قُتل فيها الباي،[3] كما تتبع عبد الله باي ابن الأحرش وأنصاره بنواحي سطيف وأخذ أموالهم وقطع رؤوسا كثيرة منهم.[4]

هذا، واستمر قمع الفلاحين إثر كل محاولة للتهرب من دفع الضرائب، فقد أسفرت تمردات مجانة سنة 1813م على هلاك الكثير.[5] فضلا عن البايات الذين اشتهروا، حسب بعض المصادر، بولعهم بسفك الدماء وتفننهم في ذلك، ومنهم شاكر باي ومحمد الميلي؛ إذ كان الأول "يسفك الدماء في الحق والباطل"،[6] لدرجة أنه لا يهنأ بشرب القهوة في الصباح إلا إذا قتل عددا من السكان،[7] وقد قدّر *Vayssettes* عدد هؤلاء في قوله: " كان يقطع

---

[1] محمد العربي الزبيري: المرجع السابق، ص 25. نقلا عن:
ANP, " Mémoires et documents sur les concession français en ARN", lettre de M.PEIRON Gouverneur de la calle à M. VALLIERE, le 29 mai 1975.

[2] صالح العنتري: فريدة مؤنسة...، المصدر السابق، ص 89.

[3] BERBRUGGER: "Un Cherif" , OP.CIT, p 213.

[4] أحمد ابن العطار: المصدر السابق، ص 51.

[5] ERNEST MERCIER: Histoire de Constantine, OP.CIT, p 341.

[6] صالح العنتري: فريدة مؤنسة...، المصدر السابق، ص 105.

[7] مؤلف مجهول: المصدر السابق، ص69.

(الباي شاكر) في اليوم ما بين 15 إلى 20 رأسا"،[1] أما الثاني فقد "اشتغل بقتل الأعراب والنهب في أرزاقهم وأبدع في قطع الرأس بالشاقور حتى سماه الناس الباي بوشطابية"[2].

أما الحاج أحمد باي فكان له سبب آخر للقتل، حيث كان يقوم، حسب العنتري بقتل كل من خرج عن طاعته، خاصة بعد الاحتلال الفرنسي للجزائر سنة 1830م، ويقول العنتري في ذلك أن :"ناس وطنه (الباي) أنكروه وخرجوا على طاعته وما وصل إلى قسنطينة إلا بالفتن والقتال من كل الأعراش."[3] ويُحصي لنا شلوصر عدد القتلى الذين أسفرت عنهم حملة الحاج أحمد باي ضد فلاحي المدية بـــ 496 رأسا.[4] ولو تأملنا في هذه هذه الحصيلة المأساوية من الرؤوس، وعلمنا أن الباي جعل 300 ريال لكل من يأتيه برأس فلاح، يتضح لنا أن هذا الصراع ليس بصراع من أجل ضريبة، وهي مهمة محلته المتجهة إلى المدية، بقدر ما هو صراع من أجل التبعية والولاء خاصة في ظل غياب السلطة المركزية بمدينة الجزائر.

إن هذه النصوص على ضآلتها وما ميزها من انطباعية، تحمل الكثير من الدلالات حول الانتكاسة الديموغرافية للرجال التي عرفها البايلك في هذه المرحلة، وتتفق مع ما أشار إليه إبن خلدون في تفسيره لظاهرة الموت في المراحل الانتقالية بين الدول، حيث أثبت أن مرد ذلك إلى ما يقع في مثل هذه المرحلة من العدوان في الأموال والجبايات وكثرة الفتن والحروب والاضطرابات.[5] ومن هنا فإن ظاهرة الصراع التي شهدها الريف القسنطيني أفضت إلى زيادة غير طبيعية في عدد وفيات الرجال في هذه المرحلة، لدرجة أنها مثلت قاعدة ديموغرافية ثابتة للصراع، إلا أن هذه الزيادة تتغير تبعا للظروف ولأوجه الصراع ذاته داخل الريف، وكذا بحسب نتيجته، وإذا تأملنا في العوامل المؤثرة في الوضعية الديموغرافية نستشف ودون عناء بل قد لا نبالغ إن قلنا أن الظاهرة ومن ورائها الجوائح وغيرها من الكوارث الطبيعية تبادلت الأدوار لتعصف في النهاية بالوضع الديموغرافي للمجتمع الريفي.

---

[1] VAYSSETTES: Histoire de Constantine…, OP.CIT, p522.

[2] **الشطابية**: هي الشاقور الذي كان يقطع به الرؤوس. أنظر، مؤلف مجهول : نفس المصدر، ص 71.

[3] صالح العنتري: فريدة مؤنسة...، المصدر السابق، ص 117.

[4] شلوصر فندلين: المصدر السابق، ص 50.

[5] عبد الرحمن ابن خلدون: المصدر السابق، ص 237.

ثانيا_ أثر الصراع على المرأة الريفية:

لقد امتد أثر الصراع ليشمل المرأة الريفية أيضا. فكثيرا ما تعرضت هذه الأخيرة لفقدان زوجها تارة، و إلى السبي تارة أخرى، وإذا تأملنا قليلا في جملة "فقدان الزوج جراء موته في إحدى الحملات العسكرية" وما أكثرهم كما توضح ذلك سابقا، نتأكد من وجود عدد كبير من الأرامل. وعلى الرغم من أن المادة التاريخية التي تخص هذه الشريحة تظل نادرة، فلا مجال للشك في ضوء التحليل السابق أن قاعدتها كانت كبيرة، وأن ظروفها الاجتماعية كانت صعبة للغاية.

من جهة أخرى كان للمرأة الريفية نصيب من القتل والسبي، وقد أشار لذلك الزياني خلال ثورة ابن الأحرش بقوله:" فلحقه هناك (عصمان باي) وأثخن فيهم (القبائل المحالفة لابن الأحرش) بالقتل والسبي والأسر والحرق".[1] كما يذكر بوضربة في مذكراته أن الحاج أحمد باي قضى على الكثير من رؤساء قبائل الحنانشة واختطف عنوة عددا من بنات الأصول"[2].

وبالرغم من أن المرأة الريفية مثلت الحلقة الأضعف ضمن باقي الشرائح الاجتماعية التي تأثرت بالصراع في الريف وانعكاساته، فإننا لا نعدم بعض النصوص التي تثبت بأنها اضطلعت بأدوار هامة في منع الصراع أو التخفيف من آثاره على الأقل. فعلاوة عن كونها أساس عماد الدنوش الذي يُقدم للمحلة في كل مرة، وهو ما أكدته مصادر المرحلة كوصف حمدان خوجة لنساء الأرياف القسنطينية قائلا:" ...والنساء هن اللاتي ينسجن الخيام، والحياك والبرانس، وهن اللاتي يمخضن، ويتبعن طريق الحصادين لجمع السنابل كما أنهن يتولين طحن الحب..."[3] وغيرها من الأعمال التي تثبت أن المرأة هي من كان يُجهز الضرائب بأصنافها المختلفة من عسل وزبدة وسمن ودقيق وغيرها، فقد ساهمت أيضا في تحقيق السلم بين الأطراف المتنازعة، والنموذج الأفضل لمعاينة هذا الدور هو المصاهرات والزواج لأغراض سياسية، من خلال قبولها الزواج وإن كانت مكرهة، من رجال السلطة المركزية.

---

[1] محمد بن يوسف الزياني: المصدر السابق، ص 207.

[2] مذكرات أحمد باي وحمدان خوجة وبوضربة ، المصدر السابق، ص119.

[3] حمدان خوجة: المرآة، المصدر السابق، ص 74.

وقد سجّل التاريخ العثماني حالات لزيجات سياسية بهدف لجم الصراع والتناحر والأمثلة عديدة، نذكر منها زواج الباي مصطفى الوزناجي رغم كبر سنه من فاطمة بنت شيخ العرب الذباح، من أجل احتواء سكان الجنوب وإبعاد خطرهم وكسب مناصرتهم في نفس الوقت،[1] فضلا عن زواج عبد الله من إبنة شيخ العرب ابن قانة التي ذكر لنا الزهار أنها كانت "أحسن نساء زمانها وكانت لها شجاعة كبيرة"[2].

والواقع أن الحالات التي أوردناها عن دور المرأة في دفع الصراع عن أهلها، قد تدخل ضمن ما سماه بعض المؤرخين "بالحق السياسي الذي مارسه الرجال على النساء"[3]، بغض النظر إن كانت هذه المرأة راضية أم مكرهة. وإذا كانت المرأة الريفية سببا في لجم الصراع بموافقتها على الزواج السياسي، فقد كانت أيضا سببا في زيادته وتفاقمه عند رفضها لهذا النوع من الزواج سواء بالنسبة للبايات أو للقبائل، وهنا نذكر نتيجة رفض ابنة إبراهيم بن بوعزيز شيخ الحنانشة الزواج من صالح باي، وهي نشوب معركة سياسية وعسكرية بين الباي وشيخ الحنانشة أدت إلى شبه قطيعة بين السلطة المركزية في قسنطينة وبين احدى أبرز القبائل المخزنية بالبايلك.[4]

فضلا عما أصاب تلك المرأة من وراء رفضها للزواج، فقد عثرت الباحثة "جميلة معاشي" على أحد العقود المسجلة في سجلات المحكمة الشرعية، والتي جاء فيها:" طلّق محمد شاوش (الإنكشاري) بقسنطينة زوجه قامير بنت ابراهيم بن بوعزيز شيخ الحنانشة... رمضان 1215هـ_1800م"، وتساءلت عن إمكانية أن تكون هذه المرأة هي نفسها التي رفضت الزواج من صالح باي الذي قتل والدها وانتقم منها بتزويجها من شاوشه؟ ووصلت الباحثة إلى أنها قد تكون هي بالفعل خاصة إذا تعلق الأمر بباي عُرف بشراسة انتقامه، لأنها أدرجت عقدا آخر يؤكد هذا الانتقام، والذي جاء فيه تزويج إحدى بنات الأسرة نفسها من أحد عتقاء صالح باي[5].

---

[1] MOULOUD GAID: OP.CIT, p 49.

[2] الشريف الزهار: المصدر السابق، ص87.

[3] حميد تيتاو: الحرب والمجتمع بالمغرب خلال العصر المريني 1212-1465م، منشورات عكاظ، الدار البيضاء، 2010، ص 384.

[4] ERNEST MERCIER: Histoire de Constantine, OP.CIT, p 285.

[5] جميلة معاشي: الانكشارية والمجتمع...، المرجع السابق، ص 119_120.

من جهة أخرى ذُكرت في نوازل محمد الفكون عداوات كثيرة وطويلة المدى تسبب فيها النساء، منها أن "رجلا جاء يسأل عن أناسٍ انقطع بينهم النسب لمدة تزيد عن ثلاثة وثلاثين سنة بسبب امرأة"،[1] فضلا عن عداوة أهل الزوجة المطلقة لأهل زوجها، كما هو الحال بالنسبة لقبائل الأجناح الذين مستهم لعنة المرأة الغاضبة من زوجها والمنتمي لقبيلة الأجناح والتي تسببت في تغذية العداوة المستمرة بين الأجناح وجيرانهم الذين تنتسب إليهم الزوجة،[2] ويمكن تصور أثر هذا الصراع على تلك المرأة وحياتها المستقبلية بعد ذلك.

هذا ويذهب أثر الصراع على المرأة الريفية الى أبعد من ذلك، فما لحقها جراء الصراع حولها إلى امرأة إما ضعيفة وتُعبر عن آلامها بطقوس غريبة جدا؛ فإذا أرادت مثلا أن تبكي على الميت تقوم بطلي وجهها "بالبعر" أو تقص شعرها وتعلقه في أشجار تظن أنها خارقة،[3] أو تندب ندبا مبالغا فيه،[4] وإما امرأة شبيهة بالرجال لدرجة أن رجال الريف كانوا يعولون عليها في الهروب بالخيام والأطفال والماشية إلى الجبال كلما حلت عليهم المحلة،[5] هذا إن لم تشارك أصلا في رد الهجوم عليها، أما إن فعلت فأحيانا تصبح أشجع من الرجل نفسه.

وفي هذا الصدد يتعجب الرحالة *Peyssonnel* من شجاعة وبطولة المرأة الريفية في الصراع، وذكر لنا نموذجين يوجد منهما الكثير في البايلك، الأول يتعلق بعلجية بنت بوعزيز التي جمعت نساء وبنات قبيلة الحنانشة إثر الخسارة التي لحقت بالقبيلة بعد الهجوم الثنائي من باي قسنطينة وتونس عليها وتخاذل الرجال، حيث قالت أنها ذاهبة لقتال الأتراك فهبّ وراءها رجال ونساء القبيلة وهزمت الباي هزيمة شنعاء، والثاني يتعلق بأم هاني التي كانت زوجة شيخ العرب أحمد بن السخري، حيث كانت هذه المرأة في مقدمة الجيش في المعارك التي نظُمت ضد الأتراك وهزمتهم أيضا، لدرجة أن باي قسنطينة صاهرها وتزوج ابنتها لاتقاء شرها[6].

---

[1] محمد بن عبد الكريم الفقون: المصدر السابق، ص 122.

[2] شارل فيرو: تاريخ جيجلي، المصدر السابق، ص 68.

[3] PEYSSONNEL,T2, OP.CIT, p361.

[4] شارل فيرو: تاريخ جيجلي، المصدر السابق، ص 58.

[5] VAYSSETTES: "Suite et fin de l'Histoire de Constantine…" , OP.CIT, p 527.

[6] PEYSSONNEL,T2, OP.CIT, pp294_295.

وفي مقام آخر اندهش شلوصر من قساوة نساء أرياف قسنطينة، إذ روى لنا ما حدث له في طريقه إلى مدينة قسنطينة، حيث أن النساء خرجن من جميع الأكواخ وهجمن عليه ومن معه بالمناجل والخناجر، ولم ينج منهم إلا بصعوبة كبيرة.[1] ومن هنا يمكن أن نقول بأن المرأة الريفية قد تأثرت بذلك الصراع المستشري في الريف القسنطيني نهاية الفترة العثمانية بمجموعة من الآثار، منها المتعلق بالموت والسبي والفقر والإعسار والحاجة، ومنها المتعلق بالزواج السياسي والطلاق، والآخر الذي حولها من ألطف المخلوقات إلى مخلوق غريب عما خُلق من أجله، وأضحت وسط ذلك المجتمع المتأزم جراء الصراع امرأة تدافع عن أطفالها وخيامها وماشيتها وحتى عن أرضها بشراسة.

[1] شلوصر فندلين: المصدر السابق، ص24_25.

ثالثا_ أثر الصراع على الطفل الريفي:

يعتبر الطفل أضعف حلقة في سلسلة الأسرة الريفية، وبالرغم من قلة ما يدعم اجابتنا فيما يخص أثر الصراع على الطفل الريفي في مصادر المرحلة، إلا أننا نجد أنفسنا ملزمين بالإجابة عن هذا الاشكال الذي يتعلق بموقع الطفل ضمن هذه الظواهر الطارئة في مجتمع أصبح فيه الصراع ظاهرة شبه يومية، واتسعت انعكاساته لتمس كافة الشرائح الاجتماعية بما فيها الأطفال.

لقد مرت بنا بعض المتون المصدرية عن همجية المحلة في اجتياحها للمناطق الريفية، ويُستفاد من هذه النصوص وغيرها أن الطفل أيضا لم يُستثن من القتل على يد المحلة ما دامت هذه الأخيرة تقتل كل من تجده في طريقها أحيانا كثيرة، نذكر منها اجتياح المحلة لمنطقة "اوزغار" التي كان يختبئ بها الشيخ الزواوي الهارب من صالح باي، فقد "قامت المحلة باجتياح وتخريب المنطقة كلها"[1]. وحملة محمد الميلي ضد أهالي الزيبان من قبائل الشرقة، وأهالي بن علي وعمرة وأولاد بوزيد، والتي يقول عنها صاحب مخطوط بايات قسنطينة[2] أن الباي "حاصرهم ثلاثة أشهر وزيادة حتى بلغه خبر هروبهم فدخلها وقتل جميع من وجد فيها من الناس الذين لا قُدرة لهم على الهروب نحو الثلاثمائة رقبة"، ولا شك أن من لا قُدرة لهم على الهروب هم المسنون والأطفال، وهو ما يقيم الدليل على أن الأطفال أيضا لم يسلموا من القتل.

هذا، ويثيرنا سؤال آخر عن وضعية الأطفال دون غيرهم جراء المشاهدات المستمرة لمشاهد الصراع من قتل وجرح وتخريب، فهذه المشاهد التي كان يحضرها الطفل في كل مرة تعرضت فيها قبيلته للحملة العسكرية، كلها مشاهد لا شك أنها كانت ذات تأثير بعيد في رسم معالم شخصية الطفل وتحديد نموها المستقبلي، ناهيك عن مشاهدة الطفل لمصرع أبيه أو إذلاله، ومشاهد القلق والخوف التي تبدو في ملامح الكبار كلما اقتربت المحلة إلى مواطنهم، ومشاهد الهجرة والهروب، ومشاهد الغضب وانتزاع الممتلكات من أب لا يستطيع معها فعلا، خاصة إذا علمنا أن تركيًّا واحدا، حسب تعبير *Peyssonnel*[3] يستطيع أن يزعزع دُوارا بكامله ويصف ذلك بالمأساة الحقيقية لأن السكان يصبحون ليسوا برجال

[1] VAYSSETTES, E. Histoire de Constantine ..., OP.CIT, p 371.

[2] مؤلف مجهول : المصدر السابق، ص 71.

[3] PEYSSONNEL,T2, OP.CIT,p 291.

بوجود ذلك التركي، ثم يعلق على ذلك بقوله أنه لا يمكن أن يجد طغيانا أكثر بشاعة وأكثر قساوة من الذي يمارسه الأتراك على العرب في البايلك!

وهذا ما نلمسه أيضا في تلك التجاوزات الخطيرة التي سبقت الإشارة إليها والتي كانت تقوم بها المحلة ضد الفلاحين، وإن كانت الكتابات الأجنبية لا تخلو من المبالغة والتهويل، من ذلك ما جاء به *Féraud* و *Vallet* عن قصة التعذيب الذي تعرض له طفلان في كل من جيجل وفرجيوة، والذي أسفر عن قطع أحد أعضاء الطفلين، لا لشيء إلا لأنهما أكلا قليلا من ضيافة المحلة التي جهزتها أسرتهما[1]!

وعلى صعيد آخر يبدو أن أطفال الفترة قد عاشوا ظروفا صعبة جدا، فعلاوة عما تعرضوا له جراء ظاهرة الصراع من قتل وتعذيب، لم ينج أيضا من آثارها وأصدائها بفعل المجاعات والأوبئة التي ساهم الصراع في استفحالها، خاصة أنها كانت ذات وقع شديد على ضعاف الجسم كالأطفال والمسنين. هذا وتعتبر الباحثة فلة القشاعي أن آثار المجاعات الديموغرافية أخطر من بعض الحروب،[2] وهو ما يسمح لنا بالقول أنه بقدر ما نالت السيوف من رجال الريف القسنطيني بقدر ما نالت المجاعات والأوبئة من الأطفال.

وتجدر الإشارة إلى القول بأن الأطفال الذين لم يموتوا بفعل هذه الجوائح قد تعرضوا للمرض أيضا، فقد عانت هذه الشريحة الضعيفة البنية من أمراض متعددة كالجذري الذي تكررت أوبئته بحدة خاصة خلال عام 1817م، و مرض الشهاق الذي كان يصيب الأطفال الصغار في فصل الربيع،[3] حيث كانت الأمهات تترددن كثيرا بأطفالهن على بعض العيون اعتقادا منهن أن مياهها تشفي كل الأمراض، ومن أشهر تلك العيون في منطقة القبائل، عين الدواء، الواقعة بعرش بني إيراثن.[4]

هذا، وقد عانى الأطفال أيضا على غرار باقي الأسرة الريفية من التهميش والفقر والإعسار، وهذا ما استغربه وليام شالر بقوله:" أن كل الفئات الاجتماعية محرومة من أي اعتبار حتى أن الاطفال الذين يولدون ليس لديهم أي حظ من الاعتبار أو الشرف والمال

---

[1] أنظر الفصل الأول من المذكرة، ص.

[2] فلة القشاعي الصحة والسكان، ص 159

[3] المرجع نفسه، ص 176.

[4] ما زالت هذه العادة مستمرة الى يومنا هذا، تتوجه النساء من مختلف القرى بأطفالهن الى العين المذكورة قبل طلوع الفجر. أنظر، أرزقي شويتام: المجتمع الجزائري وفعالياته...، المرجع السابق، ص 283.

والثقة، ويبقى كل ذلك وقفا على المغامرين الذين يجندون من الخارج، وهذا هو الشيء الغريب حقا".[1] ومن القرائن التي تقيم الدليل على ما عاناه الأطفال وما لحق بهم من ويلات الفقر والإعسار وعدم القدرة على استيفاء أدنى لوازم العيش خاصة في فترات الأوبئة هي "اضطرار البعض لبيع أولادهم لأنهم لم يتمكنوا من توفير أدنى تغذية لهم"[2].

ناهيك عن الأطفال اليتامى الذين قُتل آباؤهم عند اجتياح المحلة أو في ثورة ابن الأحرش أو غيرها من التمردات، فلا شك أن هؤلاء قد عانوا من الفقر كما هو الحال عند باقي الأسرة، وخاصة الأمهات اللواتي تضررن من مشكل الإنفاق وما أصبحن عليه من ضنك العيش بموت الزوج، وهو ما يمكن استقاؤه من نوازل ابن الفكون والتي جاءت ببعض الفتاوى كحالة جواز بيع الأم عن ولدها بحكم كفالتها لليتيم إن باعت ذلك من غبن الحاجة.[3] أما عن الأيتام الذين حظوا بنصيب من تركة آبائهم فإن الوضع لم يختلف كثيرا بالنسبة لهم، وذلك بسبب تعرض البعض منهم للإهمال من قبل أوصيائهم نتيجة لسوء تصرفهم في ملك اليتيم، ومن الأمثلة الدالة على ذلك ما أثبتته النوازل التي تتعلق بنهب الوصي لأموال اليتامى، ومنها ما سُئل عن حكمه ابن الفكون، في نازلة ملخصها أن ورثة اقتسموا أرباعا مُخلفة عن مورثهم وبعضهم صغار مُولى عليهم، والوصي عليهم استولى على مالهم بحكم الوصاية.[4]

هذا ونعتقد أنه إذا كانت مشاكل اليتيم الذكر تتقلص بمجرد قدرته على الخروج إلى العمل والكسب، فإن الأمر لم يكن بهذه السهولة بالنسبة للبنت اليتيمة التي كانت معاناتها تزداد مع نموها، فإذا ألقينا نظرة عما جاء من فتاوى خاصة بالفتيات اليتيمات، والتي تبرز أكثر في قضايا الحبوس التي عادة ما تتعلق بالذكور دون الإناث، ومنها الكثير فمثلا: "أن رجلا حبس أملاكا على أولاده الذكور وعلى أعقابهم وأعقاب أعقابهم ما تناسلوا، وبعد انقراض الذكور يرجع إلى الاناث"[5]، اتضح لنا شقاؤها لا محالة.

---

[1] وليام شالر: المصدر السابق، ص 51.

[2] فلة القشاعي: الصحة والسكان...، المرجع السابق، ص298.

[3] محمد بن عبد الكريم الفقون: المصدر السابق، ص 110.

[4] المصدر نفسه، ص 176.

[5] المصدر نفسه، ص 294.

ويبدو أن هذه الظاهرة كانت منتشرة في معظم أرياف البايلك بالرغم من تحريمها من قبل الفقهاء المالكية، وهذا ما نلمسه في الفتوى التي جاء بها "خليفة بن حسن" شيخ خنقة سيدي ناجي سنة (1208هـ/ 1793م)، حيث ذهب إلى إبطال كل الحبوس المتعلقة بالذكور دون الإناث وجواز بيعها إذا كانت معقودة على نحو ذلك، فكتب الشيخ قائلا:" بعد الحمد لله، والقاعدة عندنا في القربات إذا تحولت نية فاعلها لغير ما وُضعت له شرعا، أنها تكون باطلة ولا تصح، فالحاصل أن المُحبسين في هذا الزمان أخرجوا الحبس عن وضعه الشرعي، فالواجب فيه الحكم بالبطلان على كل حال، هذا الذي لا يقول سواه كل فقيه منصف، وكتبه الفقير لربه خليفة بن حسن"[1] .

وعموما فإن هذه كلها مشاهد تضطرنا إلى القول بأن الأطفال الذين قد سلموا من القتل المادي من وراء هذا الصراع وأصدائه، لم يسلموا من مشاعر الخوف والقلق الدائمين، وجعلت العالم الخارجي لهم يتصف بالخطر بدل اتصافه بالجاذبية، ولا شك أن هذه المشاهد حولت الطفل كما حولت المرأة الريفية قبله إلى وضعية الضحية التي لا حصانة ولا حماية لها مما فجر لديه نزاعات الخوف والاضطهاد والتذمر الذي أسفر، حسب شلوصر، على تعلمه فنون الحرب وإطلاق النار منذ صغره.[2]

---

[1] عبد الحفيظ بلمكي: "الخنقة جوهرة وادي العرب"، مقال نُشر بالجمعية الناصرية للتنمية الثقافية والاجتماعية لخنقة سيدي ناجي بولاية بسكرة، نشر دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 2002، ص 75.

[2] شلوصر فندلين: المصدر السابق، ص 97.

خامسا_ الأثر النفــسي للصراع وترسباته في المجتمع الريفي.

1 _ الأثر النفسي للصراع على المجتمع الريفي.

لقد أثبت المتخصصون في علم النفس أن آثار الصراع النفسية تبدأ في الظهور قبل نشوب الصراع نفسه، وذلك نتيجة للتوتر والقلق والعصبية، ومشاعر الخوف والرهبة التي تصاحب فترة الانتظار والترقب،[1] وهو ما عانت منه القبائل القسنطينية في انتظار المحلة، كما تستمد خطورتها من كونها لا تنتهي بانتهاء الصراع، بل تستمر حية في نفسية من حضره وفعل فعلته فيها لتؤدي إلى ضغوط نفسية عميقة على الفرد والمجتمع[2].

فمشاهد المحلة وما تخلفه من غارة ونهب وقطع للأشجار وغصب للممتلكات،[3] ومظاهر الهروب والطرد الجماعي والتهجير من المواطن الأصلية،[4] فضلا عن مظاهر القتل وقطع الرؤوس وتعليقها في بوابة قسنطينة،[5] أو تركها في العراء فريسة لبنات آوى،[6] ومشاعر الخوف التي رسخت في ذهنية الفلاحين قبل كل حملة وبعدها،[7] كلها مشاهد لا شك أنها أدت إلى ظهور حالات الاضطراب النفسي وتفاقمها، ويتبع ذلك مضاعفات وخيمة لا محالة.

هذا، وبالرغم من أن أوضاعاً مشابهة قد تحدث في الأرياف القسنطينية نتيجة للتعرض لكوارث طبيعية كالجوائح مثلا، فإن علماء النفس يؤكدون على أن نوع الأزمات التي هي من صنع الإنسان مثل الصراع والقمع والعقاب الجماعي، تفوق في تأثيرها المدمر علي الأفراد والجماعات من الأزمات الطبيعية، لأن الأزمات التي تنشأ من ظروف طبيعية لا دخل للإنسان فيها ولا سلطان له عليها.[8] لذلك فقد شكلت تلك المشاهد واقعا قاسيا جدا على المجتمع الريفي مصبوغا بالتشاؤم والتشتت الذهني، ويتجلى

---

[1] لطفي الشربيني: "الأعراض والآثار النفسية للصراع والقتال في المجتمع"، مقال منشور في الموقع الالكتروني التالي: .
http://www.hayatnafs.com/ra2y/harbnafsia.htm

[2] يعقوب غسان: سيكولوجيا الحروب والكوارث ودور العلاج النفسي، اضطراب ضغوط ما بعد الصدمة، دار الفارابي، بيروت 1999، ص10_ 14.

[3] مؤلف مجهول: المصدر السابق، ص 58.

[4] شالر وليام: المصدر السابق، ص109.

[5] ERNEST MERCIER: Histoire de Constantine, OP.CIT, p 273.

[6] شلوصر فندلين: المصدر السابق، ص 28.

[7] VAYSSETTES, E. Histoire de Constantine…, OP.CIT, p337.

[8] لطفي الشربيني: المرجع نفسه، ص3.

ذلك بوضوح في قصيدة "قسنطينة الدهما" السالفة الذكر،[1] والتي عبرت عن واقع مرير انعدمت فيه سبل حماية الذات، وغاب فيه الشعور بالأمن ازاء ما يشكله الصراع من تهديد على حياة الفرد والمجتمع.

ويخيّل لنا أن السلطة المركزية كانت على وعي تام بما سماه بعض المؤرخين بالصراع النفسي، والذي يَنقّضُ على العقل باعتباره جزءا من الجسد لا تستطيع الأسلحة الأخرى أن تصل اليه.[2] ويبدو أن هذه الانعكاسات النفسية قد طالت حتى ذهنية السلطة الروحية والتي تمثلت في تعابير الفقهاء التي توحي بفساد الزمان، وهو ما نجد صداه عند الفقيه محمد بن الفكون بتعبيره عن ذلك "بفساد الزمان" تارة، وتارة أخرى " بزمان ذهب فيه الدين وتكاثرت فيه الهموم خصوصا هذه البلدة المسماة قسنطينة"،[3] وهو ما جعله يُثني على ما قاله أحد الشعراء في نوازله قائلا لله در من قال:[4]

هذا الزمان الذي كنا نـــحذره   في قول كعب وفي قول ابن مسعود
إن دام هذا ولم يحدث له كدر   لم يبكِ ميـــت ولم يُفـــرح بمـــولود

وهنا يبدو واضحا أن السلطة المركزية قد أسرفت في إلحاق الأذى بالمجتمع الريفي واتبعت في ذلك أساليب عدة، كانت تهدف من ورائها إلى التأثير النفسي على الآخرين وزرع الرعب فيهم، وترسيخ فكرة أن إعادة التمرد والعصيان تعني إعادة العقاب نفسه. ولدينا من الحقائق ما يكشف عن هذا التوجه في معاملة الرعية، فنتيجة للعنف الذي ميز اقتحام صالح باي لقبيلة أولاد نايل التي أُرسل منها رؤوس وآذان الكثير من أهلها للداي بالجزائر،[5] ومعاقبة دشرة النميلة بقطع رؤوس رجالها وتعليقها في بوابة قسنطينة،[6] خشعت نفوس الفلاحين من الرهبة ولم يُحدثوا أنفسهم بإعادة الكرة على الأقل فترة حكمه كلها، وهذا ما توضح لدينا من خلال تتبعنا لحملات الباي إذ لم نعثر له على أي حملة تخص هاتين القبيلتين بعد ذلك العقاب طوال 22 سنة.

---

[1] أنظر الملحق رقم: 11.

[2] فيليب تايلور: قصف العقول والدعاية للحرب منذ العالم القديم حتى العصر النووي، ترجمة: سامي خشبة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والأدب، الكويت، أفريل 2000، ص 23.

[3] محمد بن عبد الكريم الفقون: المصدر السابق، ص 320.

[4] نفس المصدر، ص 204.

[5] ERNEST MERCIER: Histoire de Constantine, OP.CIT, p 272.

[6] VAYSSETTES: Histoire de Constantine ..., OP.CIT, p 333_334.

هذا، ولم يكن صالح باي فقط من تميز بهذه القسوة على المجتمع الريفي، فقد تفنن البايات الأواخر في التعذيب النفسي للفلاحين، فهذا شاكر باي كان يحرص على تخويفهم وإفزاعهم، ففي إحدى حملاته على أولاد مقران وبعد أن قطع رؤوسا عديدة منهم، أمر أن يسبق ذلك الموكب الدموي المتوجه إلى قسنطينة "براح" أو منادي لكي يُشّهِرَ بتلك الرؤوس المقطوعة وتراهم أعين كل الناس، وبعد ذلك تُركت هذه الرؤوس وليمة للطيور الجارحة.[1] أما الحاج أحمد باي فأمر بجمع الرؤوس المقطوعة للمتمردين على حكمه ووضعها في أكياس كبيرة وإرسالها إلى قسنطينة ليشاهدها الناس في حين تُترك الأجساد فريسة لبنات آوى[2].

ويبدو أنه كلما تراكمت هذه المشاهدات، تكررت وتضخمت مشاعر العجز والقلق فأصبح المجتمع الريفي نتيجة لذلك في حالة تهديد دائم لحياته، صريحا كان أو مضمرا، وأضحى القلق على الصحة والرزق والأمن يلازمه على الدوام. ومعلوم لدى علماء النفس، أنه كلما انعدمت الضمانات المستمرة على الأمن والرزق والوجود ماضيا وحاضرا اصطبغ المستقبل بالتشاؤم، وأصبح سمة كامنة داخل الفرد تؤدي به إلى التوقع السلبي للأحداث المستقبلية، وفقدان الأمل مع الوقت في الخروج من الأزمة التي يمثلها وضعه الحالي[3].

وفضلا عن ذلك كله، تثبت مصادر أخرى حرص سلطة البايلك على إذلال المجتمع الريفي، وذلك بفرض أنواع غريبة من الضرائب، وعلى رأسها ضريبة الضيفة التي عانت منها الأسرة الريفية على وجه خاص. ولا سبيل للشك أن مرور أفراد المحلة بأي خيمة من خيام الأسر الريفية لا يمكن إلا أن يحدث ضررا ماديا مصاحبا للقلق والكبت النفسي لأفرادها، لا سيما وأن افراد المحلة كانوا ينتقون أفضل الخيام وأكثرها راحة ومنفعة.[4] ناهيك عن العنف وبث الرعب في نفوس سكان تلك الخيام، فتراهم يسارعون لخدمتهم تفاديا لغضبهم الذي قد لا يُحمد عقباه،[5] خاصة إذا علمنا أن العنهجية التركية

---

[1] VAYSSETTES: "Suite et fin de l'Histoire de Constantine" , OP.CIT, p 526.

[2] شلوصر فندلين: المصدر السابق، ص50.

[3] بدر محمد الأنصاري: التفاؤل والتشاؤم، المفهوم والقياس والمتعلقات، مجلس النشر العلمي لمطبوعات جامعة الكويت، الكويت، 1998، ص 16.

[4] PEYSSONNEL: OP.CIT, T2, p 364.

[5] شارل فيرو: تاريخ جيجلي، المصدر السابق، ص66.

تفرض إذلال المجتمع الجزائري وبقوة، لدرجة أن وليام شالر قال أن: "أحط الأتراك وأوضعهم شأنا يرفض باحتقار أية فكرة للمساواة بينه وبين الأهالي، والنظرية التي تعلمها الأتراك جيلا عن جيل تقول بأن التركي وُلد ليحكم ويتولى عجلة القيادة والأهلي ليخضع"[1].

وإزاء هذه الأزمات الوجودية في المجتمع الريفي القسنطيني، لم يملك الإنسان الريفي في هذه الفترة إلا الغرق في الماورائيات، والإيمان بقدرات خارقة لشيوخ الزوايا،[2] وكرامات المرابطين القادرة حسب قناعتهم على دفع كل مضرة،[3] والتعلق بالخرافات والأساطير، والتمسك بأوهام الخلاص السحري،[4] وغيرها من الإيمانيات التي أسسها مجتمع هذه المرحلة في عالمه الخيالي كآليات دفاعية لمجابهة هذا الواقع المتأزم. كما ساد الاعتقاد باستمرار قدرة المرابطين الخفية عن دفع الضرر وجلب المنافع، فشاع التبرك بقبورهم والتوسل إليهم من خلالها، عن طريق تقبيل التوابيت بخشوع والتمسح بالقبر والاحتكاك بما هو موجود في المقام وغيرها من الطقوس،[5] سعيا وراء كسب شفاعة صاحب القبر في الدنيا قبل الآخرة وأملا في ايجاد حلول للأزمات المعيشة.

---

[1] وليام شالر: المصدر السابق، ص 54.

[2] شارل فيرو: تاريخ جيجلي، المصدر السابق، ص 55.

[3] شلوصر فندلين: المصدر السابق، ص 84.

[4] أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي 1500_1830، ج1، دار الغرب الاسلامي، بيروت، 1998، ص245.

[5] فلة القشاعي: الصحة والسكان...، المرجع السابق، ص204.

2 _ ترسبات الصراع في سلوكيات المجتمع الريفي:

على صعيد آخر، الجدير بالذكر هو أن هذا الوضع المتأزم والصراع المتفاقم الذي دام في المجتمع الريفي مدة طويلة من الزمن قد طبع الحياة الريفية بالطابع العسكري، كما أن القيم التي تكرست في هذه الفترة كان للصراع دور هام في إعادة صياغتها وصقلها في الذهنية والسلوك الاجتماعي، بعدما كانت وليدة تلك المطاحنات التي عرفتها الدولة الزيانية منذ أكثر من خمسة قرون، ويتعلق الأمر بجملة من المظاهر حاولنا استنباطها من ثنايا المصادر بالرغم من ضآلتها، نذكر منها وجوب كثرة الفرسان في في القبيلة أو الأسرة الواحدة، الشجاعة، الثأر وحفظ الجوار، وحتى طريقة اللباس واللعب.

أ _ وجوب كثرة الفرسان في الريف:

نتيجة للقلق الذي كان يحيط بالمجتمع الريفي من كل جهة على الرزق والأرض والعِرض، أصبح تجهيز الفرسان المهمة الرئيسية للقبيلة لفرض وجودها المادي من جهة، ورد الحملات العسكرية من جهة أخرى. ويبدو ذلك واضحا في الكثير من النصوص كتلك التي تصف بعض القبائل بكثرة العدة والعدد، مثل إحصاء الرحالة *Peyssonnel* لعدد من شيوخ القبائل القادرين على جمع عدد كبير من المقاتلين العرب من 4000 إلى 5000 فارس وعدد آخر من المشاة، وذكر من بين هؤلاء الشيوخ بوعزيز زعيم الحنانشة، إضافة إلى شيوخ قبائل أخرى كلها قادرة على إنتاج هذا العدد الضخم من الفرسان،[1] هذا ويستطيع شيخ الحنانشة وحده أن يُجهز حوالي 8000 فارس على الأقدام خلال فترة حروبه مع بايات قسنطينة أو بايات تونس.[2]

كما أكد ذلك ابن العطار في روايته حول اجتماع حسين بوحنّك مع أصهاره قبل دخوله بايا على قسنطينة مكان صالح باي، حيث كوّن بهم جيشا عظيما وقويا، وبعث برسالة إلى أغا المحلة والديوان يخبرهم: "إن كنتم في طاعة الجزائر والوجاق فبها ونعمت وإن خرجتم عن الطاعة أغريت لكم العرب فلا يبقى أحد منكم إلا قتلوه".[3] من جهة أخرى يذهب *Féraud* إلى القول بأن شيخ أولاد مقران بمجانة يستطيع تجهيز 10000 فارس وعدد كبير من المشاة.[4]

---

[1] PEYSSONNEL: OP.CIT, p292. .

[2] Ibid,p293.

[3] أحمد ابن العطار: المصدر السابق، ص ص 73_ 74.

[4] CH. FERAUD: "bordj bouariridj", OP.CIT, p218.

فضلا عن النصوص التي تتحدث عن بأس القبائل مثلما أكده حمدان خوجة عن أسرة بن قانة بالصحراء التي تستطيع أن تجهز عشرة آلاف فارس كأدنى حد، وهم كثيرو الشغف بركوب الخيل وخوض الحروب،[1] هذه كلها شواهد تدل على العدد الهائل من الفرسان الذي يمكن أن تجهزه كل قبيلة على حدى، وهو ما يجعلنا نستنتج أن المجتمع الريفي كان على أهبة الاستعداد الدائم للصراع، وإلا سقط بين عشية وضحاها فريسة للسلطة المركزية فيضمحل كيان القبيلة أو تندمج في الكيان القبلي المغلوب على أمره.

ب _ قيم الشجاعة:

تعد الشجاعة من بين القيم التي تميزت بها المجتمعات الريفية منذ الأزل، وتعج بعض مصادر المرحلة بأوصاف الشجاعة والبسالة التي أردفت بها حديثها عن القبائل، فيما يوحي لنا بتشبع مؤلفي المرحلة أنفسهم بهذه القيم وتثمينهم لها، ومن بين هؤلاء نذكر الرحالة *Peyssonnel* الذي طالما أُعجب بشجاعة أهل الريف رجالاً أم نساءً كما سبق ذكره،[2] ويؤكد هذه النظرة حمدان خوجة عندما وصف لنا سكان الريف القسنطيني الذين يبجلون الأخلاق وقيم الشجاعة والفروسية بقوله: "ويوجد بين سكان السهول فرسان ممتازون يتسمون بكثير من الشجاعة والمهارة، عندما يركب الواحد منهم لا يتردد في محاربة عشرين أو ثلاثين شخصا، وله القدرة على رد هجوماتهم، وهم معروفون ببسالتهم وبعزة النفس، وجعل أبنائهم على هذه الأخلاق، فلا يرضون بفعل أدنى دنيئة، ولا أعتقد أن هناك من يستطيع إنكار هذه الحقيقة، ومن الفرسان من يمد يده إلى الأرض، أثناء الركض فيلتقط حجرا أو شيئا آخر دون أن يغادر صهوة جواده".[3]

وفي مقام آخر يؤكد شلوصر على شجاعة سكان الجبال ويثمن روح التعاون فيهم لصد الهجوم قائلا أن:"القبائلي يهاجم العدو بشجاعة، وأنه لا يحارب أبدا في مجموعة، وإنما يندفع بمفرده كقناص إلى الأمام، ويعرف كيف ينتفع بسرعته ومهارته في الدوران، وأنني كثيرا ما شاهدت 20 أو 30 شخصا يطلقون النار على قبائلي، دون أن يتمكنوا من

[1] حمدان بن عثمان خوجة: المرآة، المصدر السابق، ص 82.

[2] PEYSSONNEL,T2, OP.CIT, p295.

[3] حمدان بن عثمان خوجة: المصدر نفسه، ص 75.

قتله...وإذا اقترب عدو من مساكنه، فإنهم ينادون بعضهم بعضا من جبل الى آخر وبعد فترة قصيرة يتدجج الجميع بسلاحهم"[1].

والواقع أن المجتمع الريفي مثلما كان يُمجّد الشجاعة والجرأة والتعاون ويُعجب بمن اتصف بها، ذّم الجبن واحتقر ونبذ من اتصف به، وهذا ما تعكسه لنا مقولة حمدان خوجة في وصفه لقبائل قسنطينة الرحل قائلا:" أنه من الضرورة الملحة أن يكتسب المرء حصانا وبندقية وسيف، والذي لا يملك هذه الأشياء يكون محتقرا ومنبوذا، لأنه، كما يقولون، لا يقدم أي ضمان سواء للقيام بواجباته أو الدفاع عن المجموعة"[2].

ومن الأدلة التي تثبت أهمية هذه القيم في المجتمع الريفي تلك النظرة التحقيرية التي ينظر بها الفلاحون للجبناء منهم،[3] فضلا عن نظرة البايات لبعض رؤساء القبائل ونعتهم بالنساء، مثل وصف الحاج أحمد باي لــ "بوعزيز بن قانة" وتشبيهه بالمرأة، وذلك بمقارنته بقوة وشجاعة "فرحات بن سعيد" من أسرة بوعكاز قائلا: "أنه رجل بارود (فرحات) وصاحب ذراع، ولقد حاربني مدة سبع سنوات، فكان في المعركة يقابل مائة وحده، ويُعتبر بوعزيز إلى جانبه امرأة".[4] وفي مقارنته لسكان الصحراء بسكان السهول يُبدي حمدان خوجة إعجابه بالقوة الخارقة التي يتصف بها سكان صحراء قسنطينة عن غيرهم من سكان السهول قائلا أن:" الرجل من سكان صحراء قسنطينة أكثر نشاطا وقوة من السكان المزارعين، ونستطيع القول بأن الرجل منهم يساوي عشرة من الآخرين"[5].

ولما كان الصراع في الغالب يُحدث تحولا جذريا في عقليات المجتمع الريفي، فإن الأطفال والنساء أيضا كانوا متشبعين بهذه الصفة، فيتعلم الطفل منذ صغره فنون القتال،[6] وتُوصف المرأة الريفية بالشجاعة الفائقة حتى على قُدرة شجاعة الرجل، وهذا ما أكده الرحالة *Peyssonnel* عند مروره بأحد دواوير القالة "*Ouled Darix*" المليء بالأسود

[1] شلوصر فندلين: المصدر السابق، ص 97_ 98.

[2] المصدر نفسه، ص 73.

[3] شارل فيرو: تاريخ جيجلي، المصدر السابق، ص 51.

[4] مذكرات أحمد باي وحمدان خوجة وبوضربة: المصدر السابق، ص78.

[5] حمدان بن عثمان خوجة: المرآة، المصدر السابق، ص 76.

[6] شلوصر فندلين: المصدر السابق، ص 97.

والفهود والكثير من الحيوانات المفترسة لكن الأسد يخاف من النساء أكثر من الرجال، فيكفي أن يرى أمامه امرأة تصرخ في وجهه حتى يفر هاربا![1].

جـ ـ الثأر وحفظ الجوار:

بقدر ما يؤمن المجتمع الريفي بالشجاعة والبسالة كان يؤمن بأن الشجاعة لا يكتمل معناها إلا إذا اقترنت بالتمسك بروح الجماعة، وأن الغلبة والقوة وقدرة القبيلة على الحماية والمدافعة لا تتم بمجرد وجود أفراد شجعان بل في توفر عصبية واحدة تجمعهم،[2] ولعل أبرز ما يبين هذه العصبية هو الثأر الذي مارسه المجتمع الريفي بالخصوص.[3] حيث يُعتبر الثأر وحفظ الجوار مما ثمنه المجتمع الريفي القسنطيني وأكد على التحلي به، لدرجة أن القبائل وضعت له قانونا يجب احترامه، فقد ذكر "فيرو" أنه من بين القوانين المتعاقد عليها في القبائل الشرقية إذا نادت الجماعة بإحضار أناس العرش وحملهم السلاح وتأخر أحد منهم بعد المناداة يلزمه ريال خطية[4].

بل أكد على أن الذي لا يُذعن لهذه العادة لا يحظى بأي احترام، وكان يوصف بالجبان، وذكر لنا مثالا حول قبائل بني تفوت وبني فرقان وسكان المرتفعات التي تُكوّن جبال السبعة رؤوس، فبعد وقوع جريمة قتل مثلا كان أهل القاتل يجتمعون ويذهبون لطلب الصفح من أسرة الضحية، وكانت هذه الأخيرة تقبل بالدية التي كانت ترتفع عندهم إلى مائة بسيطة، وكان المبلغ يحفظ كاملا بدقة ويوضع في قرن ثور، ويُخفى في مكان من المنزل، إلى أن يثأر أحد من أعضاء الأسرة للقتيل، فكانت المائة بسيطة تخرج من مخبئها وتُرد إلى أقارب القاتل الأول، وما دامت هذه الإعادة لم تقع فإنه كان يقال في القبيلة أن قرن الأسرة الفلانية لا يزال مليئا فهي تنتظر رجلا شجاعا لإفراغه[5].

ويظل أبرز مثال على المحاماة والمدافعة في تحالف معظم القبائل الريفية في الشمال القسنطيني ضد السلطة المركزية خلال ثورة إبن الأحرش،[6] فضلا عن تحالف القبائل لرد ظلم الحملات العسكرية كتحالف قبيلتي الحنانشة والنمامشة سنة 1797م.[7] وعلى كل حال

[1] PEYSSONNEL,T2, OP.CIT, p272_273.

[2] ابن خلدون: المقدمة، المصدر السابق، ص 102.

[3] حليم بركات: المرجع السابق، ص74.

[4] شارل فيرو: تاريخ جيجلي، المصدر السابق، ص 50.

[5] المصدر نفسه، ص 51 _ 52.

[6] GRAMMONT: OP.CIT, p 364.

[7] ERNEST MERCIER: Histoire de Constantine, OP.CIT, p 303.

فإن التمسك بروح الجماعة، وإفناء الذات في مصلحتها، واستعداد الفرد التام لنصرة قريبه وجاره والدفاع عنه، كلها خصال كانت تمثل مُقوما من المقومات المادية والمعنوية في مجتمع غاب فيه التعايش السلمي، لذلك كان طبيعيا أن يثمن المجتمع الريفي هذه القيم ويشجع عليها.

د _ طريقة اللباس واللعب:

تُعد طريقة اللباس من الدلالات المادية على الحياة الاجتماعية المعيشة في الفترة، ولا شك أن الحيز الكبير الذي احتله الصراع في الحياة اليومية للمجتمع الريفي قد تجلى في لباسه اليومي فانطبع هذا اللباس بكثير من المظاهر الحربية، وهذا ما تجلى في أوصاف مؤلفي المرحلة، فهذا وليام شالر يصف لنا لباس الرجل الريفي، حيث أضحى السيف أو المسدس جزءا من ملبوسه اليومي قائلا:" إن الرجل الريفي كثيرا ما يلبس حزاما يلفه عدة مرات حول وسطه ويعلق عليه يتجانا (يطغان بمعنى خنجر) أو مسدسا".[1] أما اذا كان متوجها للحرب فإن شلوصر كفيل بالوصف الدقيق لذلك بقوله:" يرتدي الرجل الريفي ثيابا خفيفة جدا عندما يمضي للحرب بالإضافة إلى الحائك الذي يثبته فوق رأسه ويلفه حول جسمه، ويحمل بندقيته فوق كتفه، ويدخل سكينه ومسدساته في حزامه الذي تُثّبت فيه في الوقت نفسه جعبة الخراطيش"[2].

ومنه فإن الصراع المكثف في واقع المجتمع الريفي، قد أسفر عن ميل واضح إلى اقتران اللباس بالمظاهر العسكرية، وارتباطِه أيضا بالقيمة الاجتماعية السامية التي مُنحت للسلاح ولحامله، وهنا نحس أن الرجل الريفي كما وأنه يتحدى واقعه ويستعرض قوته بالسلاح بعدما تلاشت مع مشاعر الخوف والعجز اللتين رافقتاه طوال فترة الصراع.

---

[1] وليام شالر: المصدر السابق، ص83.

[2] شلوصر فندلين: المصدر السابق، ص 97.

ومن جهة أخرى عبر المجتمع الريفي عن واقعه من خلال هواياته وألعابه أيضا، فالهواية لديه اختزلت في إتقان القبائل لصناعة البنادق الجيدة، وتعلم إطلاق النار منذ الصغر والمهارة الخارقة في الفروسية،[1] كما نستطيع أن نشير في هذا المجال إلى تلك الألعاب التي التصقت بالمجتمع الريفي مرحلة الدراسة من خلال وصف أحد الأجانب قائلا:" أن كل الألعاب ممنوعة عند العرب ما عدا الشطرنج والدامة"[2].

ولو تمعنا قليلا في هاتين اللعبتين لوجدناهما تعبران بصورة واضحة عن الصراع وقوانينه، فلعبة الشطرنج مثلا وكما هو متعارف عليه أن قواعدها تقوم على أساس الهجوم والدفاع عن السلطان وحماية الجنود له، وكذا لعبة الدامة المبنية على قتل الخصم، فلا شك إذن أن الألعاب لم تكن إلا انعكاسا حقيقيا لظاهرة الصراع ومحاكاةً واضحة له، وكلها مظاهر توحي بمدى تغلغل ظاهرة الصراع في بنى المجتمع الريفي وذهنية أفراده أواخر الفترة العثمانية.

---

[1] شلوصر فندلين: المصدر نفسه، ص ص 96_97.

[2] مولاي بالحميسي: المرجع السابق، ص14.

من خلال دراستنا لموضوع "الصراعات الداخلية وأثرها على المجتمع الريفي في بايلك الشرق الجزائري أواخر العهد العثماني 1771_1837م" توصلنا إلى مجموعة من النتائج أهمها:

أولا- لم يكن للسلطة المركزية في بايلك قسنطينة، في أي فترة كانت من وجودها، خلفية تخريبية للمناطق التي كانت تحكمها، أو سياسة قمعية للمجتمعات التي انطوت تحت رايتها، سواءً كانت ريفية أم حضرية؛ لأنها لم تُنفذ سياسة الأرض المحروقة، كما لم تقم بتهجير المجتمع وتفريغ أراضيه، إلا أنها فرضت نظاما ضرائبيا ثقيلا على كاهل المجتمعات الريفية وطبقته بيد من حديد مثلتها المحلة وما انجر عنها من تجاوزات خطيرة كانت في بعض الأحيان قاسية جدا.

ثانيا- أسفرت الدراسة على أن الصراع ببعده الاجتماعي أضحى ظاهرة حاضرة باستمرار في أسلوب معيشة المجتمع الريفي أواخر العهد العثماني، غير أن السبب الحقيقي للصراع ليس لعدم رشد المجتمع أو تعطشه للدماء لأن حياته تتميز بالغضب البربري والحياة الوحشية كما ذهب لذلك رواد المدرسة الاستعمارية، بل هي نتيجةٌ لظروف حتمتها الأوضاع السائدة آنذاك، كصعوبة الطبيعة والفقر الشديد والتعسف الضريبي وقساوة المحلة ودورية الجوائح وسياسة السلطة في تدبير الخلافات بين القبائل وغيرها، فإذا ما توفرت نفس هذه الظروف بنفس الاتساق في أي مجتمع إنساني آخر يتوقع المرء حدوث نفس النتائج، وإن اختلفت فسيكون اختلاف مقدار وليس اختلاف نوع، وذلك حسب درجة الوعي والتباين في الأنماط الثقافية وتضارب المصالح الاقتصادية بجانب نوع العلاقة مع السلطة.

ثالثا- أظهرت الدراسة ذلك التلازم الوثيق بين الصراع والحصول على الغنائم في تركيب السلطة واستمرارها، كما كشفت عن جملة من المظاهر والتنظيمات التي شكلت إفرازا واضحا لتعمق الظاهرة في الريف؛ إذ ولّد الصراع أنساقا من السلوك الاجتماعي لمسايرة حضوره المكثف بعقد التحالفات والمصاهرات التي تهدف أساسا إلى تمثيل الغلبة العسكرية وتصدير الصراع إلى خارج الأطراف المتحالفة.

رابعا- تبين لنا أن ظاهرة الصراع قد أضرت كثيرا بالمجتمع الريفي، وحالت دون استقراره، فنتيجة لنهب المحلة للمحاصيل الزراعية وهجرة الفلاحين برزت تحولات على مستوى الريف وأنظمة الاستغلال والإنتاج فيه؛ إذ نتج عن تخلي الفلاحين عن أراضيهم تغيرات جذرية في المشهد الفلاحي، تمثلت في تحول السهول الخصبة إلى مجالات ممتدة للرعي والانتجاع. كما شجعت على الرعي الذي يتلاءم مع التوغل في الجبال لأن الرعي يصبح أكثر ضمانا لأمن القبائل من الاقتصاد الزراعي.

خامسا- أثبتت الدراسة أنه إذا كانت الوظيفة الدائمة للصراع هي النهب والخراب في الريف، فإن النتيجة المباشرة له كانت تحدث في التركيب الديموغرافي، وقد رصدنا ذلك من خلال الاستنزاف المزدوج للرجال والثروات في مرحلة التركيز للسلطة في الأرياف القسنطينية والتي يمثلها صالح باي، ومرحلة التأزم الحقيقي للسلطة في البايلك بإعدامه سنة 1792م. وقد لا نبالغ إن قلنا أن ظاهرة الصراع ومن ورائها الجوائح وغيرها من الكوارث الطبيعية تبادلت الأدوار لتعصف في النهاية بالوضع الديموغرافي للمجتمع الريفي.

ومن جانب آخر كشفت الدراسة عن وضع الأسرة الريفية في ظل الحضور المكثف للصراع إذ أن المرأة لم تسلم بدورها من آثار الصراع ومآسيه؛ حيث تعرضت للقتل والسبي، كما تحولت في بعض الأحيان إلى امرأة توازي الرجال قوة وقد تفوقهم شجاعة أحيانا أخرى وتتصدر فرسانهم، وأضحت امرأة تدافع عن أطفالها وخيامها وماشيتها وحتى عن أرضها بشراسة. أما الطفل فإنه لم يختلف في شيء عن مصير غيره من الشرائح الاجتماعية الأخرى. باعتباره يتعرض لمجموعة من الآثار النفسية جراء المشاهدات المستمرة لمشاهد الصراع من قتل وجرح وتخريب، ناهيك عن مشاهدتة لمصرع أبيه أو إذلاله، ومشاهد القلق والخوف التي تبدو في ملامح الكبار كلما اقتربت المحلة إلى مواطنهم، ومشاهد الهجرة والطرد والهروب، ومشاهد الغضب وانتزاع الممتلكات من أب لا يستطيع معها فعلا. كلُها مشاهد لا شك أنها كانت ذات تأثير بعيد في رسم معالم شخصية الطفل وتحديد نموها المستقبلي.

وعموما فقد كشفت الدراسة عن إفراز الصراع لآلام معنوية وآثار نفسية ترسّبت في الذهنية المتلقية لمشاهده المؤلمة والمتكررة. ونتيجة لذلك لم يملك المجتمع الريفي في هذه الفترة إلا الغرق في الماورائيات، والإيمان بقدرات خارقة لشيوخ الزوايا والمرابطين والتعلق بالخرافات والأساطير، وغيرها من الإيمانيات التي أسسها مجتمع هذه المرحلة في عالمه الخيالي كآليات دفاعية لمجابهة هذا الواقع المتأزم، بالاضافة إلى جملة من القيم كان للصراع دور هام في إعادة صياغتها وصقلها، مثل الشجاعة والفروسية وحفظ الجوار وغيرها من الخصال الأصيلة التي عكست لنا وبصدق رغبة المجتمع الريفي في تطويع ظروف الواقع والتكيف مع مُستجداته المؤلمة.

أولا_ الأرشيف:

1_ أرشيف ولاية قسنطينة:

2_ الأرشيف الوطني الجزائري سلسلتي البايلك والمال.

3_ رسائل البايات في المكتبة الوطنية بالحامة (الجزائر العاصمة).

4_ الأرشيف الفرنسي(فانسان) سلسلة H رقم 227.

A.M.G, H227, Notice sur la Province de Constantine.

ثانيا_ المخطوطات:

- الزهرة النائرة فيما جرى في الجزائر حين أغارت عليها جنود الكفرة، مخطوط في المكتبة الوطنية الجزائرية، رقم المخطوط:2603، رقم الوثيقة: 45، د.ت.
- محمد بن عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم الفقون (1114هـ_1702م): كتاب النوازل، نسخ محمد بن عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم الفقون، ملك للأسر وقد زودتني الأستاذة المشرفة بصورة عنه فجزاها الله خير الجزاء.

ثالثا_ المصادر العربية المطبوعة:

- ابن أبي الضياف (أحمد): إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك وعهد الأمان، المكتبة التاريخية، تونس، 1963.
- ابن حمدوش (عبد الرزاق الجزائري): رحلة ابن حمدوش الجزائري المسماة لسان المقال في النبأ عن النسب و الحسب و الحال، تقديم وتحقيق وتعليق: أبو القاسم سعد الله، إصدارات المكتبة الوطنية، الجزائر، 1983.
- ابن خلدون (عبد الرحمن): مقدمة العلامة ابن خلدون المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تحقيق: على عبد الواحد وافي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 1972.
- (ابن رضوان المالقي) أبي القاسم: الشهب اللامعة في السياسة النافعة، تحقيق: علي سامي النشار، منشورات دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، 1984.
- ابن سحنون الراشدي (أحمد بن محمد بن علي): الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، تحقيق وتقديم: المهدي بوعبدلي، منشورات وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، سلسلة التراث، مطبعة البعث، قسنطينة، 1973.

- ابن عبد القادر(محمد): تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر، شرح وتعليق: ممدوح حقي، ج1، منشورات ثالة، الجزائر، 2007.
- ابن العطار (أحمد بن المبارك): تاريخ حاضرة قسنطينة، تحقيق: رابح بونار، الجزائر، 1971.
- ابن منظور (جمال الدين الإفريقي): لسان العرب، دار المعارف، القاهرة، د.ت.
- الإدريسي (الشريف): المغرب العربي من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ترجمة: محمد حاج صدوق، د.ت.
- البكري (أبو عبيد الله): المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب، مكتبة المثنى بغداد،د.ت.
- الجبرتي (عبد الرحمن حسن): عجائب الآثار في التراجم والأخبار، تحقيق:عبد الرحيم عبد الرحيم، تقديم: عبد العظيم رمضان، الجزء الأول، مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة.
- مذكرات أحمد باي وحمدان خوجة وبوضربة، ط2، ترجمة محمد العربي الزبيري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981.
- خوجة (حمدان بن عثمان): إتحاف المصفين والأدباء في الاحتراس عن الوباء، تقديم وتحقيق: محمد عبد الكريم، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1968.
- خوجة (حمدان بن عثمان): المرآة، تقديم وتعريب وتحقيق: محمد العربي الزبيري، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر،1982.
- خوجة (حمدان بن عثمان) الجزائري ومذكراته، تأليف وتعريب: محمد بن عبد الكريم، ط1، دار الثقافة للطبع والنشر والتوزيع، بيروت، 1982.
- الزهار (أحمد الشريف): مذكرات الحاج احمد الشريف الزهار نقيب اشراف الجزائر، تقديم وتعليق: احمد توفيق المدني، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1979.
- (الزياني) أبو القاسم: الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برا وبحرا 1734_1809، تحقيق وتعليق: عبد الكريم الفيلالي، غشت، 1967.
- محمد بن يوسف الزياني: دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران، تقديم وتعليق: المهدي بوعبدلي، الشركة الوطنية لنشر والتوزيع، الجزائر، 1978.

- سجل صالح باي للأوقاف(1185_1207هـ/1771_1792م)، تقديم وتحقيق: فاطمة الزهراء قشي، تصدير: عبد الجليل التميمي، دار بهاء الدين للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009.
- العدواني (محمد بن محمد بن عمر): تاريخ العدواني،تقديم و تحقيق و تعليق: أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي،ط2، الجزائر، 2005.
- العنتري (صالح): سنين القحط والمسغبة ببلدة قسنطينة، منشورات تحت عنوان: مجاعات قسنطينة، تحقيق: رابح بونار، قسنطينة، 1974.
- العنتري (صالح): فريدة مؤنسة في حال دخول الترك بلد قسنطينة واستيلائهم على أوطانها أو تاريخ قسنطينة، مراجعة وتقديم وتعليق: يحي بوعزيز، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2005.
- العياشى (عبد الله بن محمد بن أبى بكر): الرحلة العياشية (1661_1663)، تحقيق وتقديم: سعيد الفاضلي وسليمان القرشي، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي، 2006.
- الفكون (عبد الكريم): منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية، تقديم وتحقيق وتعليق: أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الاسلامي، بيروت، 1987.
- (شارل): تاريخ جيجلي، ترجمة: عبد الحميد سرحان، دار الخلدونية للنشر والتوزيع، الجزائر، 2010.
- (الماوردي) علي بن حبيب: درر السلوك في سيلسة الملوك، تحقيق: فؤاد عبد المنعم احمد، دار الوطن للنشر، الرياض،ط1، 1997.
- مؤلف مجهول: تاريخ بايات قسنطينة المرحلة الاخيرة، تحقيق: حساني مختار، منشورات دحلب، الجزائر.
- الورثلاني (الحسين بن محمد): نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار تحقيق محمد بن ابي شنيب، مطبعة بيروفونتانا الشرقية الجزائر 1908.
- الوزان (الحسن بن محمد ليون الإفريقي): وصف إفريقيا، ترجمة: محمد حجي ومحمد الأخضر، ط.2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983.

رابعــا_ المصــادر المترجمــة:

- برنيان أندري، نوشي أندري، ايف لاكوست: الجزائر بين الماضي والحاضر، ترجمة: اسطنبولي رابح و منصف عاشور، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1984.
- شالر (وليام): مذكرات قنصل أمريكا في الجزائر 1816_ 1824، تعريب وتعليق وتقديم: إسماعيل العربي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982.
- شلوصر (فندلين): قسنطينة أيام الحاج أحمد باي 1832-1837، ترجمة وتقديم: أبو العيد دودو، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1980.
- كاثكارت (ليأندر): مذكرات قنصل أمريكا في المغرب، ترجمة وتعليق وتقديم: إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1982.
- **خامســا_ الرسائــل الجامعيــة:**
- بوودون (عبد العزيز): المشكلات الاجتماعية المترتبة عن الهجرة الريفية، مذكرة مقدمة لنيل دبلوم الدراسات المعمقة في علم الاجتماع الريفي والحضري، جامعة قسنطينة، 1985.
- شويتام (أرزقي): المجتمع الجزائري وفعالياته في العهد العثماني 1519_1830، رسالة مقدمة لنيل درجة دكتوراه دولة في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة الجزائر، 2006.
- عمراني (معاذ): أسرة بني جلاب في منطقة وادي ريغ من بداية القرن 19 الى سنة 1962م _دراسة سياسية واجتماعية_، مذكرة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة الامير عبد القادر، قسنطينة، 2003.
- الغربي (الغالي): الثورات الشعبية في الجزائر أثناء العهد التركي (1792- 1830)، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث ، كلية الآداب، جامعة دمشق، 1975.
- القشاعي (فلة موساوي): الريف القسنطيني اقتصاديا وإجتماعيا أواخر العهد العثماني (1792_1837)، مذكرة لنيل دبلوم الدراسات المعمقة في التاريخ الحديث، جامعة الجزائر، 1983.

- القشاعي (فلة موساوي): الصحة والسكان في الجزائر أثناء العهد العثماني وأوائل الاحتلال الفرنسي (1518_1871م)، أطروحة دكتوراه دولة في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة الجزائر، 2004
- القشاعي (فلة موساوي): النظام الضريبي بالريف القسنطيني أواخر العهد العثماني (1771_1837)، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، 1992.
- قشي (فاطمة الزهراء): قسنطينة المدينة والمجتمع في النصف الأول من القرن الثالث عشر للهجرة (أواخر القرن 18م إلى منتصف القرن 19م)، رسالة دكتوراه دولة في التاريخ، جامعة تونس، 1998م.
- معاشي (جميلة): الأسر المحلية الحاكمة في بايلك الشرق الجزائري من القرن (16–19م) رسالة ماجستير في التاريخ الحديث، جامعة قسنطينة، 1992.
- معاشي (جميلة): الانكشارية والمجتمع ببايلك قسنطينة في نهاية العهد العثماني، رسالة دكتوراه العلوم في التاريخ الحديث، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة قسنطينة، قسم التاريخ والآثار، 2008.
- **سادســـا_ المراجع العربية المطبوعة:**
- ابن اشنهو (عبد اللطيف): تكون التخلف في الجزائر، محاولة لدراسة حدود التنمية الرأسمالية في الجزائر بين عامي 1830_1962، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1979.
- الأشرف (مصطفى): الجزائر الأمة والمجتمع، ترجمة: حنفي بن عيسى، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983.
- الامام (رشاد): سياسة حمودة باشا في تونس 1782_1814، منشورات الجمعية التونسية، تونس، 1980.
- الأنصاري (بدر محمد): التفاؤل والتشاؤم، المفهوم والقياس والمتعلقات، مجلس النشر العلمي لمطبوعات جامعة الكويت، الكويت، 1998.
- اوران (ريمون): صراع الطبقات، ترجمة عبد الحميد الكاتب، منشورات عويدات، بيروت، 1983.

- بالحميسي (مولاي): الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، بحث تحت إشراف: المركز الوطني للدراسات التاريخية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981.
- بركات (حليم): المجتمع العربي المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2001.
- بن حسن (محمد): القبائل والأرياف المغربية في العصر الوسيط، دار الرياح الأربعة للنشر، تونس، 1986.
- بوتول (غاستون): الحرب والمجتمع، ترجمة: عباس الشربيني، دار النهضة العربية، بيروت، 1983.
- بورويبة (رشيد): قسنطينة، سلسلة الفن والثقافات، وزارة الاعلام والثقافة، الجزائر، 1978.
- بوقصاص (عبد الحميد): النماذج الريفية _ الحضرية لمجتمعات العالم الثالث في ضوء المتصل الريفي الحضري، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائرية، د.ت.
- بيك (عبد الحميد): أعيان من المشارقة والمغاربة، تقديم وتعليق: أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الاسلامي، بيروت 2000.
- تايلور (فيليب): قصف العقول والدعاية للحرب منذ العالم القديم حتى العصر النووي، ترجمة: سامي خشبة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والأدب، الكويت، أفريل 2000.
- تيتاو (حميد): الحرب والمجتمع بالمغرب خلال العصر المريني 1212-1465م، منشورات عكاظ، الدار البيضاء،2010،
- الجابري (محمد عابد): فكر ابن خلدون العصبية والدولة معالم نظرية في التاريخ الاسلامي،مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1992.
- جراد (عبد العزيز): العلاقات الدولية، موفم للنشر، الجزائر، د.ت.
- الجناحي (الحبيب): دراسات مغربية في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للمغرب الإسلامي، دار الطليعة، بيروت، 1980.
- حتي (ناصف يوسف): النظرية في العلاقات الدولية، دار الكتاب العربي، ط 1، بيروت، 1985.

- خنوف (علي): تاريخ منطقة جيجل قديما وحديثا، منشورات الأنيس، الجزائر،2007.
- خنوف(علي): السلطة في الأرياف الشمالية لبايلك الشرق الجزائري نهاية العهد العثماني وبداية الإحتلال الفرنسي، الميزان للنشر والطباعة، الجزائر، 1999.
- دوفرتي (جيمس)، بالستغراف (روبرت): النظريات المتضاربة في العلاقات الدولية، ترجمة وليد عبد الحي، شركة كاظمة للنشر والتوزيع، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 1985.
- سعد الله (أبو القاسم): تاريخ الجزائر الثقافي (1500_1830)، ج1، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981.
- سعيدوني (ناصر الدين): دراسات تاريخية في الملكية والوقف والجباية، الفترة الحديثة، ط1، دار الغرب الاسلامي، بيروت، 2001.
- سعيدوني (ناصر الدين): دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر_العهد العثماني_، سلسلة الدراسات الكبرى، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984.
- سعيدوني (ناصر الدين): النظام المالي للجزائر في الفترة العثمانية 1800_1830، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1979.
- سعيدوني (ناصر الدين): ورقات جزائرية دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2000.
- السيد (غلاب)، الجوهري (يسري): الجغرافيا التاريخية، المكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، 1998.
- الشاذلي (عبد اللطيف): التصوف والمجتمع نماذج من القرن العاشر الهجري، سلا، 1989.
- الشريف (محمد الهادي): ما يجب أن تعرف عن تاريخ تونس من عصور ما قبل التاريخ إلى الاستقلال، تعريب: محمد الشاوش و محمد عجينة، ط3، دار سراس للنشر، تونس، 1993.
- صابان (سهيل): المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، مطبوعات مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، 2000.

- عباد (صالح): الجزائر خلال الحكم التركي 1830_1514، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، ط2، الجزائر، 2007.
- العبادي (عبد السلام): الملكية في الشريعة الإسلامية، ط2، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، د.ت.
- عبد الكريم (جودت): الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في المغرب الأوسط خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د.ت.
- عبد المنعم (ماجد) : تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، المكتبة المصرية، القاهرة، 1978.
- العلام (عز الدين): السلطة والسياسة في الادب السلطاني، الدار البيضاء، 1991.
- عميراوي (أحميدة): علاقات بايلك الشرق بتونس أواخر العهد العثماني وبداية الاحتلال الفرنسي، دار البعث، قسنطينة، 2002.
- فركوس (صالح): الحاج أحمد باي قسنطينة 1850_1826، ديوان المطبوعات الجزائرية، الجزائر، 2007.
- فركوس (صالح): المختصر في تاريخ الجزائر من عهد الفينيقيين إلى خروج الفرنسيين (814 ق.م–1962)، دار العلوم، عنابة، 2002.
- قشي (فاطمة الزهراء): قسنطينة في عهد صالح باي البايات، منشورات ميديا بلوس، قسنطينة، 2005.
- معجم العلوم الاجتماعية، ترجمة: إبراهيم مدكور، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1975.
- غسان (يعقوب): سيكولوجيا الحروب والكوارث ودور العلاج النفسي، اضطراب ضغوط ما بعد الصدمة، دار الفارابي، بيروت 1999.

سابعـــا_ المقالات العربية:

- بالحميسي (مولاي): سياسة الضرائب بالجزائر في أواخر العهد العثماني، أعمال الملتقى الثالث لتاريخ وحضارة المغرب، ج1، منشورات ديوان المطبوعات الجامعية، 1983.

- بحاز (إبراهيم): ثلاث رسائل مخطوطة حول الإباضية الميزابيين بالجزائر في العهد العثماني، المجلة التاريخية المغاربية، العددان 89_90، منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، زغوان، 1998.
- بلمكي (عبد الحفيظ): الخنقة جوهرة وادي العرب، مقال نُشر بالجمعية الناصرية للتنمية الثقافية والاجتماعية لخنقة سيدي ناجي بولاية بسكرة، نشر دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 2002.
- بن حسين (كريمة): خنقة سيدي ناجي ابان العهد العثماني، مقال نشر بالجمعية الناصرية للتنمية الثقافية والاجتماعية لخنقة سيدي ناجي بولاية بسكرة، نشر دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 2002.
- السرياني (محمد): مفهوم القرية و دلالاتها في القرآن الكريم، مجلة العقيق، العدد 1، السعودية، 1992.
- العايش (بكار): الوضعية العامة للجزائر قبيل الاحتلال، مجلة حوليات مخبر التاريخ والجغرافيا، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالمدرسة العليا للأساتذة، بوزريعة، العدد 2، الجزائر،2008.
- قاصري (السعيد): معالم الدولة والمجتمع في فكر نظام الحكم العثماني بالجزائر وفي فكر الأمير عبد القادر مقاربة تاريخية، مداخلة ألقاها بملتقى في جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، 2010.
- العقاد (صلاح): الأحوال الاجتماعية والنظم الادارية في الجزائر قبيل الغزو الفرنسي، المجلة التاريخية المصرية، المجلد: 12، 1965.
- معاشي (جميلة): أسرة أحرار الحنانشة بين بايات قسنطينة وبايات تونس، المجلة التاريخية المغاربية، العدد 128، تونس،2007.
- معاشي (جميلة): مخطوط عن صالح باي حاكم بايلك قسنطينة (1771_1792م)، المجلة التاريخية المغاربية، العدد 140، منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، تونس، جويلية 2010.
- معاشي (جميلة): مشيخة العرب والسياسة العثمانية ببايلك قسنطينة، مجلة كلية الدراسات الاسلامية والعربية، مجلة علمية محكمة، العدد 35، الامارات العربية المتحدة، دبي، 2008.

ثامنا_ المراجع الإلكترونية:

- الشربيني (لطفي): الأعراض والآثار النفسية للصراع والقتال في المجتمع، مقال منشور بالموقع الالكتروني التالي:http://www.hayatnafs.com/ra2y/harbnafsia.htm .
- المازوني (محمد): وظائف الزاوية المغربية، الجزء الاول، مقال منشور في موقع ارنتروبوس ، الموقع العربي الأول للانتربولوجيا والسوسيوأنترولوجيا.

- **تاسعا_ الكتب باللغة الأجنبية:**

- Daumas .E: La Kabylie, Éditeur : L. Hachette , Paris, 1857.
- DEVOULX ALBERT : Tachrifat, Recueil de notes historiques sur l'administration de l'ancienne Régence d'Alger, Imp. Du gouvernement général, Alger, 1852.
- ESTERHAZY WALSIN: De la Domination turque dans l'ancienne régence d'Alger, Éditeur : C. Gosselin, Paris, 1840.
- GAID MOULOUD: Chronique des Beys De Constantine , Office des Publications Universitaires, 1975.
- GRAMMONT: Relations entre la France et la régence d'Alger au XVII siècle, Alger, 1880.
- MERCIER ERNEST: Histoire de Constantine, éd Braham,1903.
- MERCIER ERNEST: Histoire de l'Afrique septentrionale (berbérie) depuis les temps le plus reculés jusqu'à la conquête français 1830, Paris,1888.
- NOUSHI: Enquête sur le niveau de vie des populations rurales constantinoises de la conquête jusqu' en 1919, Essai d'histoire économique et sociale , P.U.F. , Paris , 1961.
- PEYSSONNEL et DESFONTAINE: Voyages dans les régences de Tunis et d'Alger, Tom 1et 2, paris, 1838.
- PIESSE LOUIS: Itinéraire de l'Algérie, de Tunis et de Tanger , Hachette, Paris,1882.
- SAIDOUNI NACEREDDINE: L’Algérois rural a la fin de l’époque ottomane (1791-1830), Beyrouth, Dar Al-Gharb Al-Islami, 2001.
- THOMAS SHAW: Voyage dans la régence d'Alger au XVIII^{e} siècle, traduit de l'anglais par: E.Mac Carthy, Paris, 1830.

- TURIN YVONNE: Affrontements culturel dans l'Algérie colonial, Alger, 1983.
- VENTURE DE PARADIS: Alger au XVIII siècle, Alger, 1898.

• عاشرا_ المقالات باللغة الأجنبية:

- "Notes chronologiques pour l'histoire de Constantine", R.A, N° 39,Aléria, 1895.
- BERBRUGGER .A: "Epoque de l'établissement des turcs a Constantine", R.A, N° 1, Alger, 1956.
- BOYER: "contribution à l'étude de la politique religieuse des turcs dans la régence d'Alger", R.O.M.M,N°1,1966.
- COUR .A: "Constantine en 1802 d'après une chanson populaire du cheikh BELQASEM Er_RAHMOUNI EL_HADDAD", R.A, N° 60, ALGERIA, 1919.
- FERAUD CHARLES LOUIS: "AIN ELBAIDA", R A, N° 16, Alegria,1872.
- FERAUD. (CH, L): "BEN DJELLAB Sultans de Tougourt Notes historiques la province de Constantine", R.A, N° 24, 1880.
- FERAUD. (CH, L): "BEN DJELLAB Sultans de Tougourt Notes historiques sur la province de Constantine", R.A, N° 23, 1879.
- FERAUD. (CH, L): "Bordj-bou-Arreridj", in R.S.A.C , Alegria, 1871_1872 .
- FERAUD. (CH, L): "Exploitation des forets de la karasta dans la domination turque", R A, N° 13, Alegria, 1869.
- FERAUD. (CH, L): "Ferdjioua et zouar'a Notes historiques la province de Constantine", R.A, N° 22, 1878.
- FERAUD. (CH, L): "Note historiques sur les tribus de la province de Constantine (les Amamra)", in R.S.A.C .1868.
- FERAUD. (CH, L): "Notes historiques sur le turcs de la province de Constantine (les zmoul)", in R.S.A.C .1869
- FERAUD. (CH, L): "Notes sur bougie", légendes_ traditions, R A, N° 3, algeria, 1858.
- FERAUD. (CH, L): "Notes sur Tébessa", R A, N° 18, Alegria, 1874.

- FERAUD. (CH, L): "Revenus de la province", R.A.,N°3, 1858_1859.
- FERAUD. (CH, L): "Un Vœu D'Hussein Bey de Constantine 1807", R A, N° 7, Alegria, 1863.
- FERAUD. (CH, L): "Zebouchi et Osman bey", R.A, N°6, Alegria, 1862.
- FERAUD. (CH, L): Documents pour servir a l'histoire de BONE , R A, N° 32, Alger, 1888.
- FERAUD. (CH, L): Les harar, seigneurs des Hanencha, R.A, N°18, Alger, 1874.
- GUIN: "Notes historiques sur Les Nezluoia", R.A, N° 6, 1862.
- HAEDO: "Topographie et histoire générale d'Alger", R.A, N° 15, Alger, 1871.
- RINN LOUIS: "Le Royaume d'Alger sous le dernier dey, chapitre7, beylik Qsantina", R.A, N° 43, 1899.
- ROBIN . N: "Note sur l'organisation militaire et administrative des turcs dans la grand kabyle" , R A, N° 17, Alegria, 1873.
- URBAIN ET WARNIER: "Notice sur la province de Constantine Organisation et situation à l'époque de l'occupation", in Tableau de la situation des Etablissement français dans l'Algérie 1841
- VALLET. E: "Page d'histoire, le dernier siège de Constantine vu par les assiégés", in R.S.A.C, 1935_1936.
- VAYSSETTES: "Histoire de Constantine sous la domination turque, de 1517 à 1837", R.S.A.C, 1868.
- VAYSSETTES: "Suite et fin de l'Histoire de Constantine, sous la domination turque, troisième et dernière période, de 1792 à 1837", in R.S.A.C , Alegria, 1869.
- VAYSSETTES:"Histoire des dernier beys de Constantine depuis 1793 jusqu'à la chute d'Hadj Ahmed", R.A, N°03, 1858

الملحق رقم: 01

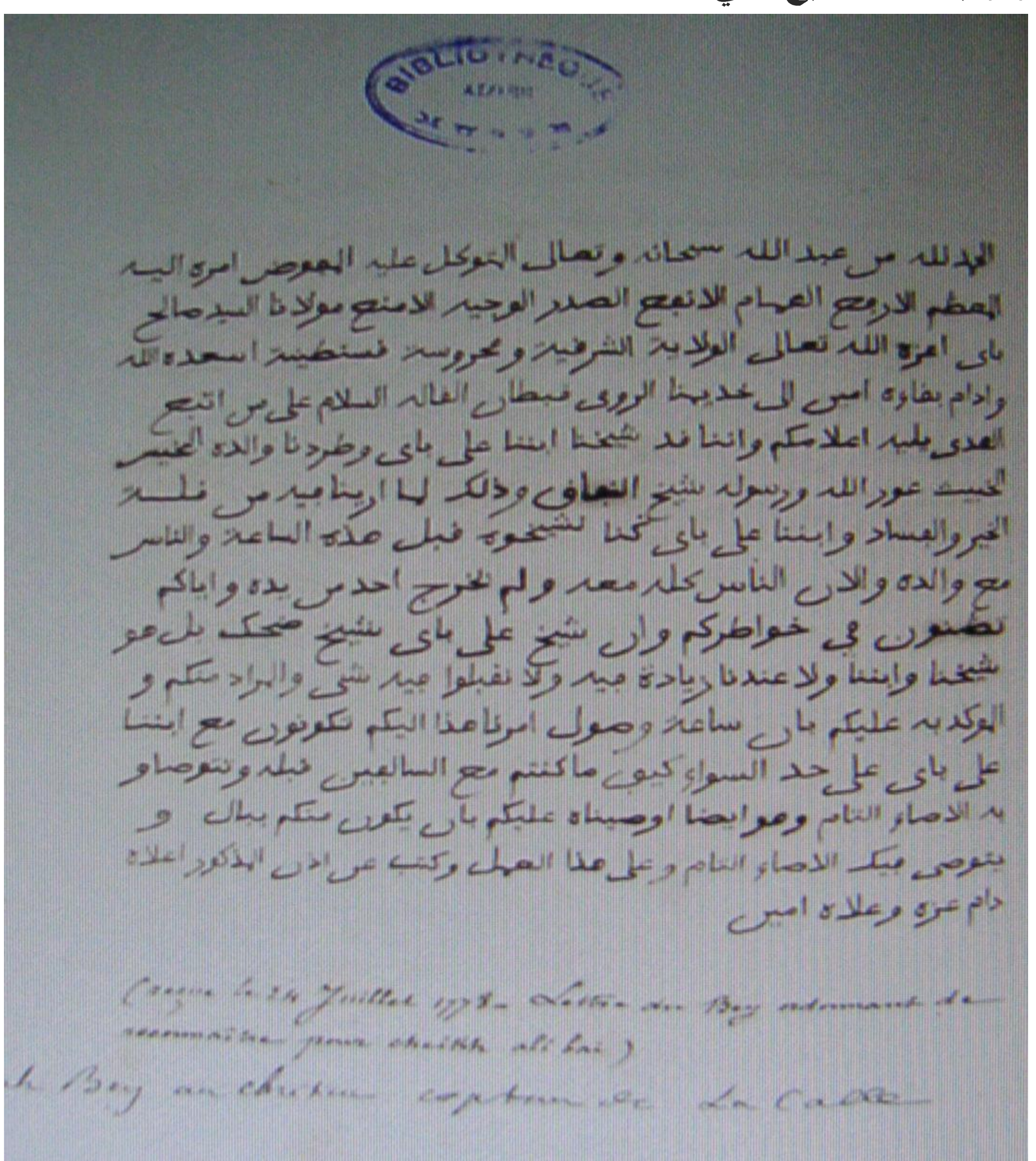
خريطة لقبائل الشرق الجزائري من وضع د. عبد الكريم بجاجة



1 – بجاية، 2 – بني بومسعود، 3 – بني ميمون، 4 – بني عمروس،
5 – آيت وطاس وعلي، 6 – بني محمد، 7 – بني حسين،
8 – بني سغلال، 9 – تابابور منصورية، 10 – بابور،
11 – بني فولكاي، 12 – بني اسماعيل، 13 – بني بويوسف،
14 – بني ملول، 15 – بني سليمان، 16 – بني تيزي،
17 – جرمونة، 18 – بني مرعة، 19 – أولاد صالح،
20 – ساحل قبلية، 21 – ڤرڤور، 22 – أولاد نابت، 23 – عموشة،
24 – الدهمشة، 25 – سطيف، 26 – بني مروان،
27 – لعوانة، 28 – بني فوغال، 29 – ڤرجيوة، 30 – أولاد بوصلاح
31 – بني قائد، 32 – بني أحمد، 33 – جيجل، 34 – بني عمران
35 – بني خطاب، 36 – بني عافر، 37 – زغاية، 38 – أولاد كباب
39 – أولاد بلعفو، 40 – بني سيار، 41 – بني معمر، 42 – بني يدر
43 – أولاد عسكر، 44 – زواغة، 45 – عزل، 46 – بني صالح
47 – بني حبيبي، 48 – بني عائشة، 49 – بني فتح،
50 – بني خطاب، 51 – ميلة، 52 – الجناح، 53 – أولاد عواط،
54 – بني بلعيد، 55 – بني ڤرڤان، 56 – مشاط،
57 – أولاد عيدون، 58 – بني تليلان، 60 – أولاد عطية،
61 – بني توفوت، 62 – أولاد الحاج، 63 – بني ولبان،
64 – عشايش، 65 – قسنطينة، 66 – بني حميدوش،
67 – بني اسحاق الكوفي، 68 – بني بونعيم،
70 – بني صالح، 71 – بني اسحاق، 72 – علمة معسلة،
73 – بني بشير، 74 – الثعابنة، 75 – مجاجة، 76 – أولاد نوار،
77 – معسلة، 78 – الزرامنة، 79 – سكيكدة.

الملحق رقم: 02

رسالة من صالح باي إلى قبطان القالة يخبره فيها بعزل الشيخ عبد الله بالعباس وتولية ابنه الشيخ علي مكانه.



الحمد لله من عبد الله سبحانه وتعالى المتوكل عليه المفوض امره اليه
المعظم الارفع الهمام الانفع الصدر الوجيه الامنع مولانا السيد صالح
باي اعزه الله تعالى الولاية الشرقية ومحروسة قسنطينة اسعده الله
وادام بقاوه امين الى خديمنا الرومي قبطان القالة السلام على من اتبع
الهدى وبعد اعلامكم واننا قد شيخنا ابننا على باي وطردنا والده الخبيث
الخبيث عدو الله ورسوله شيخ النفاق وذلك لما اريناه من قلة
الخير والفساد وابننا على باي كنا نشيخوه قبل هذه الساعة والناس
مع والده والان الناس كله معه ولم نخرج احد من يده واياكم
تظنون في خواطركم وان شيخ على باي شيخ ضحك بل هو
شيخنا وابننا ولا عندنا زيادة فيه ولا نقبلوا فيه شي والمراد منكم و
المؤكد به عليكم بان ساعة وصول امرنا هذا اليكم تكونون مع ابننا
على باي على حد السواء كيف ما كنتم مع السابقين قبله وتتوصاوا
به الاصاء التام وهو ايضا اوصيناه عليكم بان يكون منكم ببال و
يتوصى فيكم الاصاء التام وعلى هذا العمل وكتب عن اذن المذكور اعلاه
دام عزه وعلاه امين

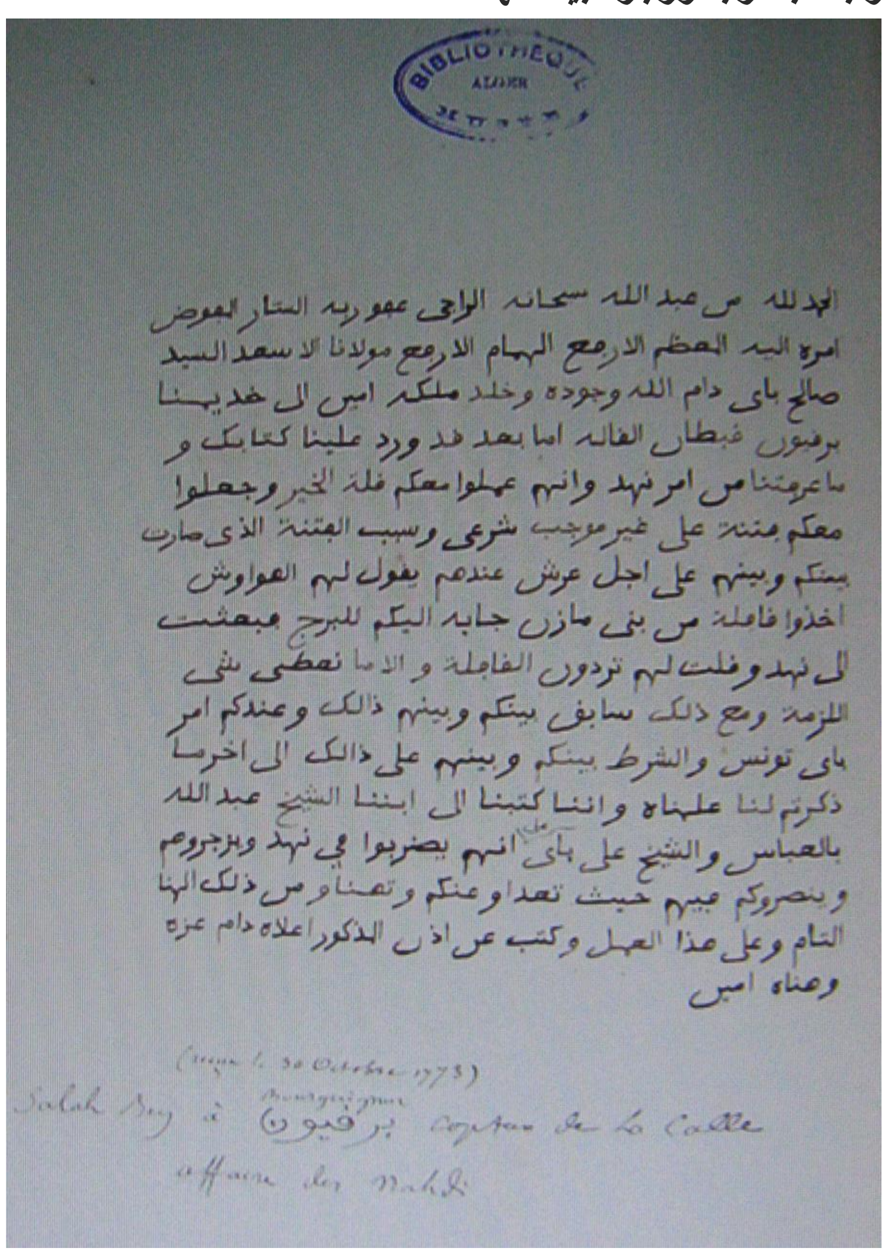
(Reçue le 24 Juillet 1778 – Lettre du Bey ordonnant de reconnaître pour cheikh Ali bai.)

Le Bey au chef capitaine de La Calle

<u>المصدر</u>: **أرشيف المكتبة الوطنية الجزائرية، مجموعة رقم: 1641، وثيقة رقم: 61، 1778م.**

الملحق رقم: 03 "النسخة الأصلية"

رسالة صالح باي إلى قبطان القالة حول فتنة بعض القبائل وأمر الشيخ عبد الله وابنه بضرب وزجر قبيلة نهد.



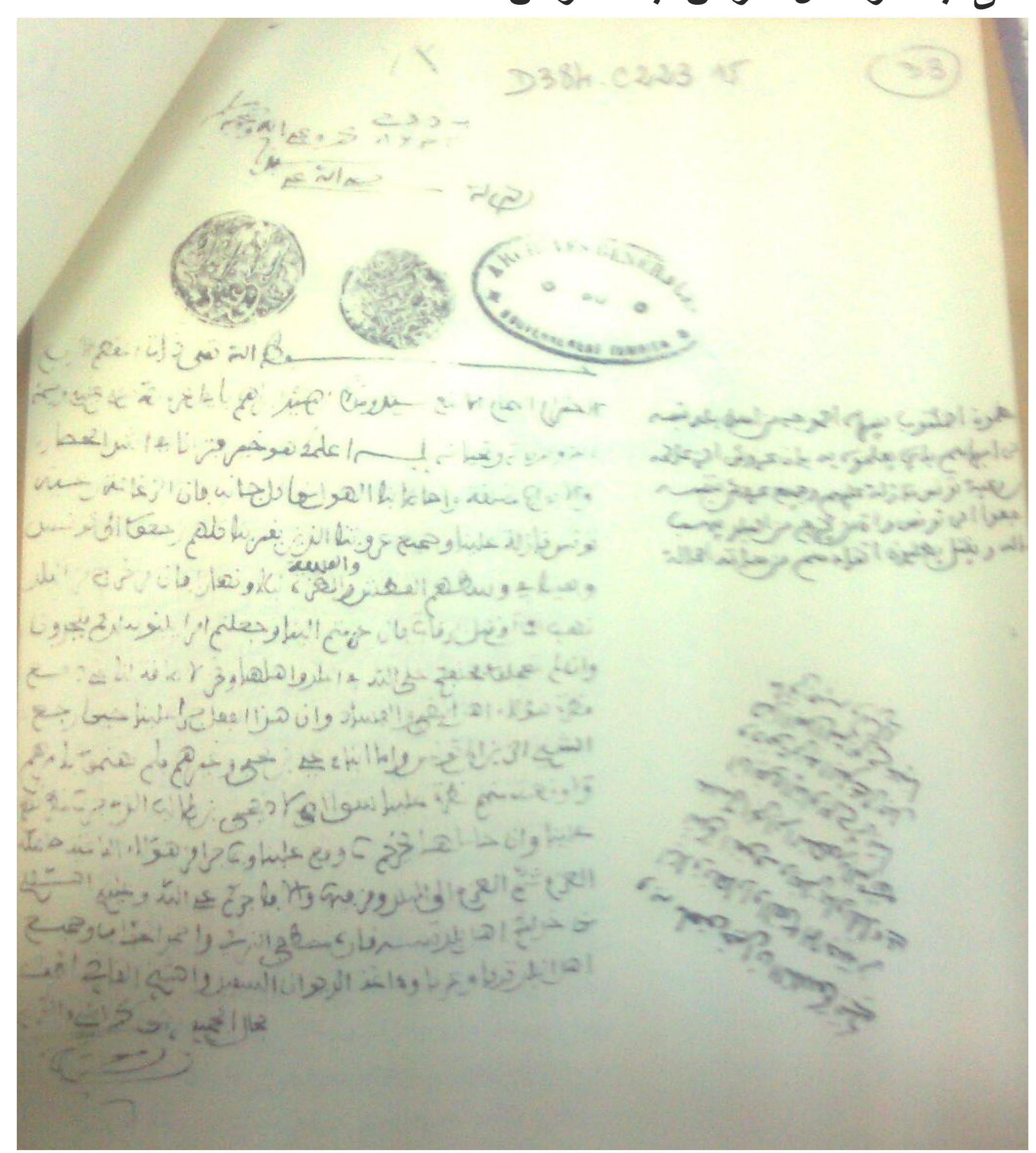
الحمد لله من عبد الله سبحانه الواثق عفو ربه الستار المعوض
امره اليه المعظم الارفع الهمام الارفع مولانا الاسعد السيد
صالح باي دام الله وجوده وخلد ملكه امين الى خديمنا
برقيون قبطان القالة اما بعد فقد ورد علينا كتابك و
ما عرفتنا من امر نهد وانهم عملوا معكم قلة الخير وجعلوا
معكم فتنة على غير موجب شرعي وسبب الفتنة الذي صارت
بينكم وبينهم على اجل عرش عندهم يقول لهم العواوش
اخذوا قافلة من بني مازن جابها اليكم للبرج فبعثت
الى نهد وقلت لهم تردون القافلة والا ما نعطي شي
اللزمة ومع ذلك سابق بينكم وبينهم ذالك وعندكم امر
باي تونس والشرط بينكم وبينهم على ذالك الى اخر ما
ذكرتم لنا علمناه واننا كتبنا الى ابننا الشيخ عبد الله
بالعباس والشيخ علي باي انهم يضربوا في نهد ويزجروهم
وينصروكم فيهم حيث تعداو عنكم وتعناو من ذلك الهنا
التام وعلى هذا العمل وكتب عن اذن المذكور اعلاه دام عزه
وعناه امين

(reçu le 30 Octobre 1773)
Bourguignon
Salah Bey à برقيون Capitaine de La Calle
affaire des Nahdi

<u>المصدر</u>: **أرشيف المكتبة الوطنية الجزائرية، مجموعة رقم: 1641، وثيقة رقم: 58.**

الملحق رقم:04 "النسخة الأصلية"

رسالة من ممثلي سكان تبسة إلى ابراهيم باي يخبرنه بإغارة عرش الزغالمة على تبسة وانتقال أعراش تبسة لتونس.



<u>المصدر</u>: صورة من أرشيف دولة تونس بمركز الأرشيف لولاية قسنطينة، وثيقة رقم: 33، تصنيف الوثيقة: D384_ C223، د.ت.

الملحق رقم:04 "الترجمة"

- **رسالة من ممثلي سكان تبسة إلى ابراهيم باي يخبر نه بإغارة عرش الزغالمة على تبسة وانتقال أعراش تبسة لتونس.**

"الحمد لله صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

حفظ الله تعالى ذات المعظم الأرفع الاحترام الهمام الأمنع سيدنا ومولانا السيد إبراهيم باي عزه الله سلام الله وبركاته وتحياته يليه أعلمك هو خير فترانا في أشد الحصار والأبواب مغلقة وأحاط بنا الهول من كل جانب، فإن الزغالمة من رعية تونس نازلة علينا وجميع عروشنا الذين بقربنا كلهم رجعوا إلى تونس، وبقينا في وسطهم العطش والغرة والعسة ليلا ونهارا فإن من خرج من البلد نهب المال وقتل الرقاب فإن عزمتم إلينا وجعلتم أمرا يليق ببلدكم فتتجدونا وإن لم تجعلوا فخلفكم على الله في البلد وأهلها ونحن لا طاقة لنا على دفع نصرة هؤلاء أهل البغي والفساد وأن هذا الفعل جرا علينا حين رجع الشيخ الزين إلى تونس وأما أبناء علي بن يحي وغيرهم فلم نهتموا بأمرهم ولا وقعت منهم مضرة سوا أولاد يحي بن طالب الذي جرت مضرتهم علينا وان حاملها يخبركم بما وقع وبما جرا في هؤلاء الباغية حاصلة العزم ثم العزم إلى البلد ومن فيها وإلا فأجركم على الله وعليكم السلام من خدامكم أهل تبسة قادة مصطفى التركي وأحمد الحفاف وجميع أهل البلد تركا وعربا وآغة الديوان السعيد والشيخ القاضي لطف الله بحال الجميع وكذا النبي الكريم. وبه ملحق خير أن النسوة تبكي ليلا ونهارا (كلمة غير مفهومة) من شدة الخوف ويقلن يا ويلنا على عسكر الجزائر المنصور بالله تعالى أن يقدم إلينا ويفرج كربتنا وذنوب من في البلد على من قبل هذا الفعل الله يفرج علينا ما نحن فيه والسلام".

المصدر: صورة من أرشيف دولة تونس بمركز الأرشيف لولاية قسنطينة، وثيقة رقم: 33، تصنيف الوثيقة: D384_ C223، د.ت.

الملحق رقم:05 "النسخة الأصلية"

- **رسالة من الحاج أحمد باي إلى الداي حسين بخصوص حملته على أولاد رشاش بالنمامشة العصاة والغنائم التي حصل عليها خلالها.**

المصدر: صورة من أرشيف المكتبة الوطنية الجزائرية بالحامة، مجموعة رقم: 1642، وثيقة رقم: 18، أوايل حجة سنة 1243هـ/ 1827م.

الملحق رقم:05 "الترجمة"

- **رسالة من الحاج أحمد باي إلى الداي حسين بخصوص حملته على أولاد رشاش بالنمامشة العصاة والغنائم التي حصل عليها خلالها.**

"الحمد لله حق حمده صلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم أسعد الله تعالى مقام المعظم الأرفع الصدد الملاذ الأنفع الأكرم الأنجم الهمام الأمجد الأحضر الأرضى الأرشد ولي نعمتنا سيدنا حسين باشا الدوكاتلي أعزه الله ونصره آمين السلام الأتم عليكم ورحمة الله وبركاته ورضوانه الشامل وتحياته وبعد سيدنا أعزك الله وأبقى لنا وجودك فالذي يجب إعلامكم به هو خير إن شاء الله أننا غزونا النمامشة أولاد رشاش فصبحنا عليهم بالوطن المعروف بالمحقل من ناحية القبلة فمنحنا الله نصرا فأخذناهم أخذا ذريعا وقطعنا منهم ثمانية وثلاثين رأسا 38 وأخذنا لهم من الغنم واحد وعشرون ألف وستمائة 21600 ومن الإبل خمسمائة وخمس وثمانون 585 وخمسة وثلاثون هوير35 ورجعنا وعسكرنا وقومنا في أمان الله وحفظه واعلم سيدي أن النمامشة كان منهم فرقتا يقال لهم العلاوتة والبرارشة جاءوا لنا عام أول وخدموا وجعلنا لهم قايدا وأعطوا ما عليهم وهم في الأمان والعافية وأما من الفرقة أولاد رشاش عصاة ومنافقين يقطعون الطريق ويأكلون أموال الناس ظلما لم يعطوا شيئا من المطالب وبعثنا لهم فلم يقبلوا ولم يعطوا ما مكننا الله منهم بسعدك وسانجاقك المنصور فأخذناهم وقتلناهم زجرا لهم والحمد لله والشكر لله ونسأله سبحانه وتعالى أن يمد لنا في حياتك ورعايتك ونصرك وسلامتك فانك ما دمت لنا بصير الحياة جعلني الله إلى ما عندنا إلا جميع الخيرات وتمام المسرات هذا سيدنا وقد بلغنا جوابك ومعه القبطان المجيد وحمدنا الله على سلامتك وجعل الله عيدكم مباركا مبرورا هناء وعافية وسرور وهكذا كل عام يمر وأنتم طيبون أمنون فرحون مستبشرون أمين والسلام من الفقير سبحانه المتوكل عليه المفوض أموره إليه.

عبدكم وخادمكم ومقبل الكريمين يدكم وقدمكم الحاج أحمد باي وفقه الله بقدر أمره.

أوايل حجة 1243هـ/ 1827م".

<u>المصدر</u>: صورة من أرشيف المكتبة الوطنية الجزائرية بالحامة، مجموعة رقم: 1642، وثيقة رقم: 18، أوايل حجة سنة 1243هـ/ 1827م.

الملحق رقم:06 "النسخة الأصلية"

- **رسالة من الحاج أحمد باي إلى الداي حسين بخصوص حملته على فرقة العمامرة بجبل أوراس، وكذا الحنانشة والغنائم التي حصل عليها خلالها.**

المصدر: صورة من أرشيف المكتبة الوطنية الجزائرية بالحامة، مجموعة رقم: 1642، وثيقة رقم: 19، أواخر صفر الخير 1243هـ/ 1827م.

الملحق رقم:06 "الترجمة"

- **رسالة من الحاج أحمد باي إلى الداي حسين بخصوص حملته على فرقة العمامرة بجبل أوراس، وكذا الحنانشة والغنائم التي حصل عليها خلالها.**

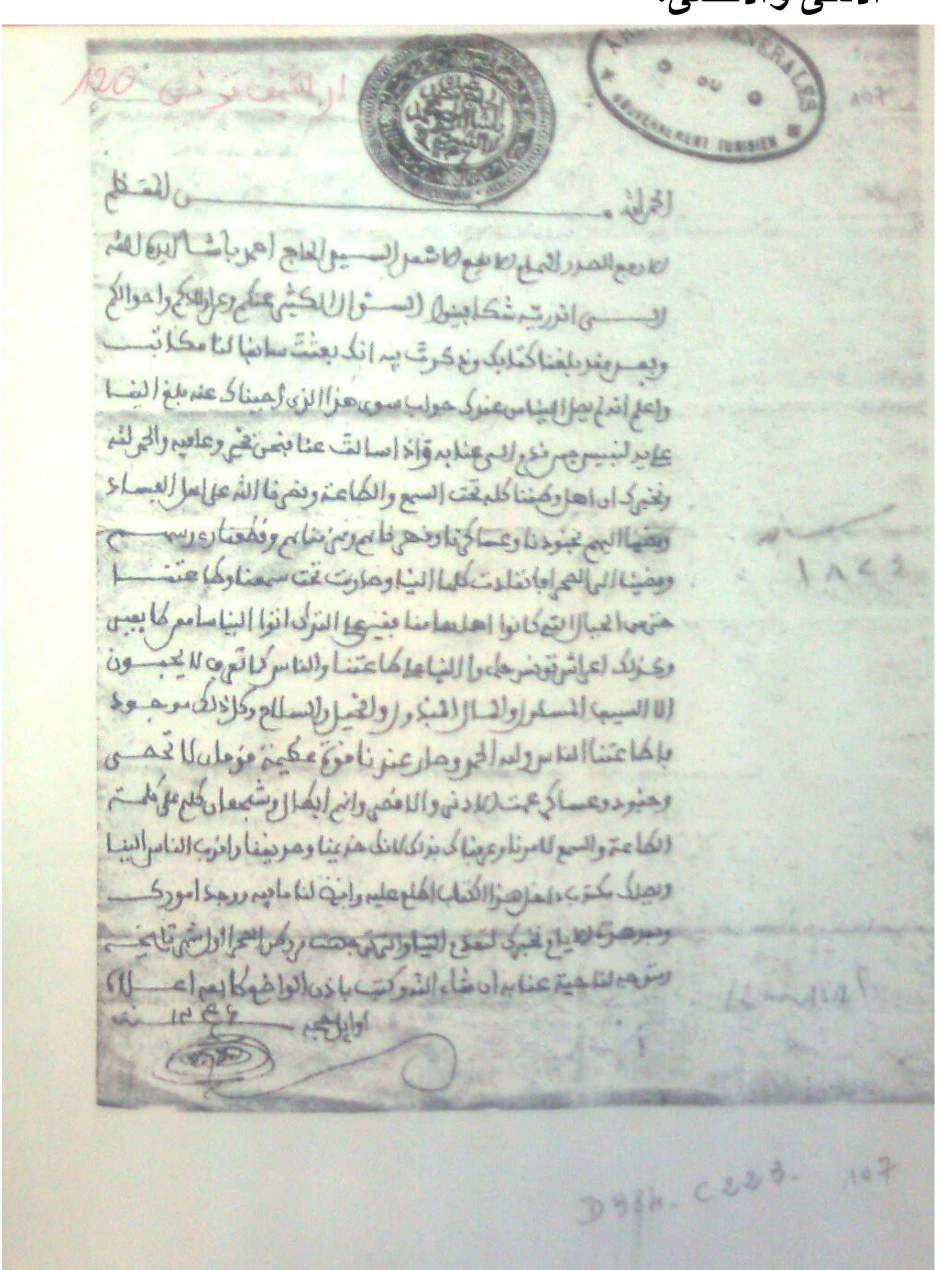
"الحمد لله حق حمده وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.
أسعد الله تعالى بطول أيامكم وجعل بعزه مقامكم ووالى بفضله بقائكم المعظم والأسعد الصدر الهمام الأحضر الأمجد الأفخر الملاذ الأسمى ولي النعم سيدنا حسين باشا الدوكاتلي أعزه الله وأيده وحفظه ونصره أمين والسلام عليكم ورحمته وبركاته ورضوانه القيم وتحياته .... الله جلت قدرته وتمرست ومن الخير والعافية ونعم الله المتوالية التي نطلب من الكريم رب العرش العظيم بقائها على سيادتكم العلية بكرة وعشية تجاه أشرف البرية سيدنا ومولانا محمد عليه أفضل الصلاة وأزكى التحية وبعد سيدنا أعزك الله ونصرك وأبق وجودك وسلمت فالذي يتصل بشريف علمكم خير ان شاء الله أننا لما وصلنا وطن ريغة ونزلنا بغرب غزونا من هنالك على فرقة العمامرة من جبل أوراس وأنها سيدي فرقة عاصية لم يعطوا مطالبهم ولم تكن فيهم طاعة فأصبحنا عليهم في اليوم الحادي عشر من شهر تاريخه في جبلهم فمنحنا الله النصر ورزقنا الظفر فقطعنا منهم ستة عشر رأسا وحملناها لقسنطينة وأخذنا لهم غنائم جيدة وذلك خمسة عشر ألف وستمائة غنم 15600 منها كبش ألفان واثنان 2002 وأخذنا لهم من البقر ستة عشر مائة وستين رأسا 1660 من البقر وهوير 32 وإبل 17 ورجعنا نحن وعسكرنا وقومنا سالمين غانمين والحمد لله ثم استرحنا نحو يومين وغزونا من هنالك إلى بلاد الحنانشة فأخذنا أولاد شيخ وأولاد مسعود فنصرنا الله عليهم فقطعنا منهم أحد عشر رأسا وأخذنا لهم اثنين وعشر ماية وستين رأسا 1260 من البقر وأخذنا منهم ثلاثة عشر ماية وعشر شياه غنم 1310 ونصيب هوير ولينا في أمان الله وحفظه ونزلنا بوطن الحنانشة نقظوا حاجتنا هنالك فرجعوا إلى محلتنا وهذا كله من فضل الله تعالى وبركاته ونحمده جل وعلا ونشكره الذي جعل سانجاقك منصورا حيث ما توجه والمطلوب منه سبحانه أن يمد لنا حياتك ويبارك لنا في سنينك وأعوامك وأن يذل ويهلك أعدائك وأن يشيد أركان مملكتك ويرفع سلطانك وينصر رايتك وأعلامك إنه على ذلك قدير وبالإجابة جدير وهو نعم المول ونعم النصير وصل الله عل سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما والسلام من الفقير لربه سبحانه عبدكم وخادمكم ومقبل قدمكم من الحاج أحمد باي.

أواخر صفر الخير 1243هـ "

<u>المصدر</u>: صورة من أرشيف المكتبة الوطنية الجزائرية بالحامة، مجموعة رقم: 1642، وثيقة رقم: 19، أواخر صفر الخير 1243هـ/ 1827م.

الملحق رقم:07 "النسخة الأصلية"

- **رسالة من الحاج أحمد باشا إلى خديمه الإنجليزي بعنابة يخبره فيها بتطويع أعراش الصحراء والجبال العصاة، والتأكيد على أن جنوده عمت الأدنى والأقصى.**



<u>المصدر</u>: صورة من أرشيف دولة تونس بمركز الأرشيف لولاية قسنطينة، وثيقةرقم: 120، تصنيف الوثيقة: D384 _C223، أوايل حجة سنة 1246هـ/ 1830م.

الملحق رقم:07 "الترجمة"

- **رسالة من الحاج أحمد باشا إلى خديمه الإنجليزي بعنابة يخبره فيها بتطويع أعراش الصحراء والجبال العصاة، والتأكيد على أن جنوده عمت الأدنى والأقصى.**

" الحمد لله من المعظم الأرفع الصدد الهمام الأنفع الأسعد السيد الحاج أحمد باشا أعزه الله إلى (كلمة غير مفهومة) شكافين السؤال الكثير عنكم وعن أولادكم وأحوالكم وبعد فقد بلغنا كتابك وذكرت فيه أنك بعثت سابقا لنا مكاتيب واعلم أنه لم يصل إلينا من عندك جواب سوى هذا الذي أجبناك عنه بلغ إلينا على يد لنبيس حين قدم إلى عنابة وإذا سألت عنا فنحن بخير وعافية والحمد لله ونخبرك أن أهل وطننا كله تحت السمع والطاعة ونصرنا الله على أهل الفساد وذهبنا إليهم بجنودنا وعساكرنا وقهرناهم وهزمناهم وقطعنا رؤوسهم ومضينا إلى الصحرا (كذا) فانقادت كلها إلينا وصارت تحت سمعنا وطاعتنا حتى من الجبال التي كانوا أهلها منافقين على الترك أتوا إلينا سامعين طائعين وكذلك أعراش تونس جاءوا إلينا على طاعتنا والناس كما تعرف لا يحبون إلا السيف المسلول والمال المبذول والخيل والسلاح وكل ذلك موجود فأطاعتنا الناس ولله الحمد وصار عندنا قوة عظيمة قومان لا تحصى وجنود وعساكر عمت الأدنى والأقصى وأنهم أبطال وشجعان كلهم على كلمة الطاعة والسمع لأمرنا وعرفناك بذلك لأنك خديمنا وصديقنا وأقرب الناس إلينا ويصلك مكتوب آخر هذا الكتاب اطلع عليه واجب لنا ما فيه ووجد أمورك وبعد هذه الأيام نخبرك لتقدم إلينا وأني توجهت من وطن الصحرا (كذا) أوايل شهر تاريخه ونتوجه لناحية عنابة ان شاء الله وكتب بإذن الواضع طابعه أعلاه.
أوايل حجة سنة 1246هـ/ 1830م".

<u>المصدر</u>: صورة من أرشيف دولة تونس بمركز الأرشيف لولاية قسنطينة، وثيقةرقم: 120، تصنيف الوثيقة: D384_ C223، أوايل حجة سنة 1246هـ/ 1830م.

الملحق رقم: 08 "النسخة الأصلية"

رسالة من آخر سلاطين بني جلاب "سليمان الجلابي" إلى الحاكم الفرنسي قصد الدخول في طاعته، تبين بوضوح وصراحة تفوق العادة التطاحن المستمر بين افراد أسرة بني جلاب حول السلطة.

المريشال الحاكم الكبير بولاية الدولة الفرانصوية على الجزاير
واقليمها ايده الله ورعاه واخصب بوابله رياض مرعاه امين السلام
عليكم ورحمة الله وبركاته بدوام الملك وحركاته وعلى من لاذبكم
من ولات وقياد ووزرا وسعاي خدمتكم اماما وورا وبعد السؤال عنكم
وعن المرضية احوالكم وليكن في علمكم خيرا فاني خديمكم وابنكم
والابن اذا اهمل يرده ابوه واننا خدام لكرسى الجزاير من قديم
الزمان وانا اليوم يا سلطان دخلت تحت جنا حكم وتحت سنجق
الدولة الفرنصوية ان تعطفوا علينا وتبلغونا مبلغ اوايلنا من لباس
الحرمة والاحترام وبلوغ المرام وتعفوا عنا فيما سلف من
التقصير منا وقد قصد ناكم ونزلنا بحماكم وانتم اهل الجود والكرم
ولاكن يا سلطان لم نزل نبعث معادنا الى حكام بسكرة الهاد اثر
الهاد ليخدمونا وفي حزبهم يدخلونا فلم يرجع معادنا من عندهم
الا بالخيبة وعدم المقصود فان كان يا سلطان عاتبونا من شان
القتل فالامر مقدر من الله وهذه سيرة قديمة من عهد اوايلنا ما يتولى
سلطان في بلادنا الا بالقتل وسنقص عليكم سيرة اوايلنا لما شاخ الشيخ
محمد بن احمد بن جلاب قتل اخويه الشيخ ابراهيم والشيخ عبد
الرحمن وابن عمه الشيخ الخازن ثم تولى بعده ابنه الشيخ عمر
بن محمد قتل اخاه الشيخ احمد وابن عمه الشيخ محمود ثم تولى
بعده الشيخ ابراهيم بن محمد قتله اخوه الشيخ على ثم تولى بعد
الشيخ على ابن عمه بل ابن اخيه الشيخ عبد الرحمن بن عمر وهو
صغير قام خدامه ووالدته على خدام الشيخ على فقتلوا منهم عثمان
بن المقصورى واولاده اثنين وقتلوا ابنالى في حال الرضاع وقتلوا
محمد بن جلول والحاج الطاهر بن الحاج والاخضر بن طيبه هذا
الثلاثة قتلهم الشيخ عبد الرحمن هذا الذى شهدناه وكذا لك اسلافنا
الاقدمون فعلوا مثل ما ذكرناه فلما تولينا على تقرت كثر القيل
والقال في بلادنا حتى ءال امر البلاد الى الفساد اتبعنا الاثر واقتضينا
والامر من الله مقدر واليوم ندمت على ما فعلت وفي كتبكم
دخلت المطلوب منك تستوصى بنا خيرا وتامر ولات الدولة يعطفوا
علينا مثل سعادة السيد الجنرال الحاكم بقسنطينة وحكام باتنة
وبسكرة ما ابقالى هروب منكم الا اليكم خديم لكم طايع والذى
اتلزمونا به نقبلوه على قد الطاقة والاستطاعة وانا خديمكم وابنكم
والسلام من سلمان بن على بن جلاب وفقه الله امين بتاريخ
اوايل الربيعين سنة ١٢٧١ *

المصدر: CH. FERAUD: BEN DJELLAB Sultans de Tougourt Notes historiques sur la province de Constantine, R.A, N° 23, 1879.

الملحق رقم 09: "النسخة الأصلية"

قصيدة "قسنطينة الدهما" لصاحبها أبو القاسم الرحموني الحداد سنة 1802م.

**

Texte de la Qaçida

من كلام (2) الشيخ بالقاسم الرحموني الحداد

1 عام مكبره (3) هاتي (4) سيدي • بالكساد وغلات النعما (5)

2 كيف نخبر هاتي سيدي • بالفساد في كمان حوما (6)

3 باح كل شي بلا كتما • في بلد قسنطينة الدهما

4 واش تنظره هاتي سيدي

ركاب (7)

5 واش تنظروا فيها هلكت • راهي فسدت

6 مابقت تسمى بلدة

7 من كثير العبد اندخلت (1) • رغما عمرت

8 كل جنس جاها يتهدا

9 تعمرت كثير بكل خبث • وقوى الغوات

10 تخلطت ورجعت كيف الدا

11 واهلها انهزمت واندمرت • والبدو لها حدث

12 والفصاة عليها يتعدا

13 اذ حشت بارهوط انعدت • فيها سكنت

14 هذا يجي وهذاك يغدا

ترفيسة (2)

15 بالقبايل راهي تحشات (3) • والشاوية كلتهم جات

16 والسوافة ذوك الازبات • حتى مزيتة زادوا

17 مغاربة وشرافة حبلات • جاتيين ليها (4) بالكثرات

18 فازعين ليها الكل باتبات • مثل قيس اجرادوا (5)

19 بني مزاب افوات بسلعات • اكثومس عرات الاتات

20 مخلطين نساهم وابنات • وبعدهم يولدوا

توريدة (1)

21 بيها تبصروا هاتي سيدي • قالوا احنا لينا الحرما (2)
22 راهم يغيروا هاتي سيدي • في العباد يبليهم بالعاما (3)
23 كل من حضر في ذي النقما • في بلد قسنطينة الدهما
24 واش تنظره هاتي سيدي

ركاب

25 واش تنظروا في ذي الدنيا • عادت عميا
26 ا تشوف شي غير تمهمش
27 اليهود جات ليهم محيا (4) • عادوا عليا
28 باللباس والقصور تدهش
29 والمسلم في غم الحيا • يعطي الجازيا
30 والكبر يقوي ويعرش
31 ديننا صعيب ولى بديا • لاهل العديا
32 كل يوم ينسب وينغش

ترفيسة

33 ذاك حال الدهر الخوان • من حضر لتواخير ازمان
34 يشوف جميع المنكر باعيان • ولا يطيف يغيره
35 من كان نصلة ورجع طغان (1) • وامتسح من حديد الي كان
36 الوقت يوالم النسوان • والجار يخدع جاره
37 الدهر راه تسقم وزيان • على الذي ما ينظر غفلان
38 استشيخت جميع الصبيان • بغير وقتا فراوه
39 يرتفع العلم والقران • من صدور الناس بتبيان
40 يتولعوا باحزاب الشيطان • يكثروا في اصواره

توريدة

41 أيش ينظهروا هاتي سيدي • غير ناس ضلال وعلما
42 بهم نفتخر (2) هاتي سيدي • هما مصابيح نور الظلما
43 حاط بهم الفقر والعما • في بلد قسنطينة الدهما
44 واش تنظره هاتي سيدي

47 كل يوم يتفوى جرحي * هاتي جوحي

48 معيشتي معيشة الدبانا

49 يظهر شروط الساعي (1) * فبل البتحي

50 افترب الوفت بعلوانّا

51 كل من سمع معنت مدحي * وانا نشحي

52 ننظم المعانـ في اوزانّا

ترفيسة

53 (2) ناختمت النظم وجبته * على شروط الدنيا فلته

54 جميع المرار الّي ذفته * عحرم وتريافه (3)

55 على الذي عمري ما ريته * من صميم الكبدة جبذته

56 الخو يخدع خوه في نيته * الهموم ما ينطافوا

57 لاسعار راه اغلات وحتى * امطار الصيف ادبا فوا (4)

58 الحرث راه صعب نبته * اليبس والحجر يكثروا

59 تريد نشهر ما ريته * في شروط الوفت لقّيته

60 بالفاسم الرحموني فلته * وطرزت في اورافه

61 فربت الصدة جانا وفته * وشروط الساعة كي ريته

62 للامام مهدي فلته * ناحوا الّي ذافوا

توريدة

63 توريد نشهرُ (1) هاتي سيدي * صغت بحلا تسما (2)

64 تاريخ نخبرُ هاتي سيدي * عام الف ومايتين الختما

65 تريد نفدرُ هاتي سيدي * سبعة عشرة يا بهما

66 نفرا السلام على لامة * في بلد بسنطينة الدهما

67 واش تنظره هاتي سيدي

خماسة (3)

68 كثرة العجائب يا بهما * في بلد فسنطينة الدهما

69 واش تنظره هاتي سيدي

المصدر: **A. COUR: Constantine en 1802 d'après une chanson populaire du cheikh BELQASEM Er _ RAHMOUNI EL_HADDAD, R.A, N° 60, ALGERIA, 1919.**

فهــــرس الأعــــــــــلام

- أ

- ب

- ج

- ح

- ز

- س

فهرس القبائل والأماكن .

- أ

- ب

فهــــرس الجـــــــــــداول

فهـــرس الأشكـــــــال

فهرس الملاحق

فهرس الموضوعات:

يهدف موضوع الدراسة إلى إبراز العلاقة الجدلية بين ظاهرة الصراع والمجتمع الريفي القسنطيني، وذلك بإعادة قراءتها من خلال مقاربة جديدة تتجاوز السرد التقليدي للأحداث العسكرية إلى البحث في ظواهرها وبُناها ومُتغيراتها، والكشف عن آثارها في النظم العسكرية والمؤسسات الاجتماعية والاقتصادية. ويأتي اختيار فترة الدراسة ابتداءً من مرحلة صالح باي إلى غاية سقوط قسنطينة في قبضة الفرنسيين، باعتبار أن هذه الفترة تمثل المنعطف الأكبر الذي أثر بشكل قوي ومتواتر على البنى التحتية للمجتمع الريفي، كما أثر على التطورات اللاحقة التي طبعت المسار التاريخي للبايلك، وجسدت زمن التحول الذي ابتدأ بترسيخ السلطة في الريف، متبوعا بإجحاف ضريبي كان السبب الرئيس في تفاقم الصراع، وانتهى ببوادر التراجع والانهيار الذي يبدو أكثر وضوحا في نهاية العهد العثماني، حيث انتقلت فيه موازين القوى لصالح الأوروبيين.

وبغض النظر عن انهيار الحكم العثماني بالبايلك واحتلال فرنسا لقسنطينة، خلفت ظاهرة الصراع آثارا عميقة على المجتمع الريفي، تجاوزت الآثار الظاهرة من قتل ونهب وخراب إلى الآثار الاجتماعية والنفسية والوجودية العميقة التي نخرت وترسبت في ذهنية المجتمع الريفي. كما اقترنت الظاهرة بأصداء مخيفة كالمجاعات والأوبئة كان لها الأثر البليغ في العصف بالوضع الديمغرافي للمجتمع الريفي، فضلا عن أهم تحول شهده الريف القسنطيني نتيجة للصراع والذي تمثل أساسا في لجوء معظم الفلاحين إلى الجبال والفيافي والمدن، في الوقت الذي أضحت فيه أملاكهم وأراضيهم ملكا للبايلك وقبائل المخزن ذات النجعة والحرب مما ساهم في زعزعة النشاط الفلاحي وتدهوره.

وتوصلت الدراسة إلى أن ظاهرة الصراع ليست لصيقة بالمجتمعات القبلية؛ لأنها تتميز بالغضب البربري والحياة الوحشية كما ذهب لذلك رواد المدرسة الاستعمارية، بل هي نتيجةً لظروف حتمتها الأوضاع السائدة آنذاك، وإذا ما توفرت نفس هذه الظروف بنفس الاتساق في أي مجتمع إنساني آخر يتوقع المرء حدوث نفس النتائج، وإن اختلفت فسيكون اختلاف مقدار وليس اختلاف نوع، وذلك حسب درجة الوعي والتباين في الأنماط الثقافية وتضارب المصالح الاقتصادية بجانب نوع العلاقة مع السلطة المركزية. وختاما فإن ظاهرة الصراع لم تعد بذلك واقعة عسكرية ضيقة ملازمة للفتن وفاعلة في سقوط دولة وقيام أخرى، بل غدت واقعة اجتماعية ثقافية بنيوية، متجّذرة الهياكل في الكيان الوجودي للمجتمعات.

Résumé de la thése

Le sujet d'étude est destiné à mettre en évidence la relation dialectique entre le phénomène de conflit et la communauté rurale de Constantine, et cela en relecture à travers une nouvelle approche qui dépasse le récit des événements traditionnels de l'armée à regarder les phénomènes, leurs structures, leurs variables, et de révéler leurs effets sur les systèmes militaires , les institutions sociales, et les divers aspects de la vie en milieu rural. le choix de la période d'étude est à partir de la période de Salah Bey jusqu'à la chute de Constantine sous l'emprise des français; étant donnée que cette période représente le plus grand tournant qui a été d'une forte et fréquente influence sur l'infrastructure de la société rurale, et elle a eu l'impact sur les développements ultérieurs qui ont marqué le chemin historique du Baylek, et a incarné le temps de la transformation qui a commencé par la consolidation de son pouvoir dans la compagne, suivie par un injustement d'imposition qui a été la principale raison de l'aggravation du conflit, qui a fini par les signes de déclin et d'effondrement, qui ont été flagrants à la fin de l'empire ottoman, où l'équilibre du pouvoir penche en faveur des européens.

Indépendamment de l'effondrement de la domination ottomane au baylek et l'entré de la France à Constantine, le phénomène de conflit a engendré des conséquences profondes sur la communauté rurale, qui a dépassé les effets visibles de meurtre, pillage et la destruction aux effets sociales, psychologiques et existentielles qui a été sculpté et déposé dans la mentalité de la communauté rurale. Ce phénomène est couplé avec des échos effroyables comme la famine et les épidémies qui ont eu des effets négatifs dans l'assaut démographique de la société rurale, ainsi que la transformation la plus importante que la communauté rurale de Constantine a subie à la suite du conflit qui est principalement représenté dans le départ de la plupart des paysans dans les montagnes, les habitants du désert et les villes, alors que leurs propriétés et leurs terres ont été détenue par le Baylek et les tribus d'Elmakhzan qui a contribué à la déstabilisation de l'activité agricole et la dégradation.

Donc selon les pionniers de l'école coloniale, le phénomène de conflit ,n'est pas étroitement destiné aux sociétés tribales, car il est caractérisé par la colère barbare et brutale, mais le résultat des conditions circonstances à l'époque est identique à celui de n'importe quelle société humaine, cela sera différent dans le montant et non pas dans le type selon le degré de sensibilisation et de variation dans les conflits culturels et économiques et aussi en relation avec l'autorité centrale. En conclusion on constate que le phénomène de conflit n'est plus le cas et la réalité inhérente à la lutte étroite militaire et efficace à l'automne de l'État et la construction de l'autre, mais il est devenu une réalité socioculturelle structurelle, ancrée dans les structures d'entités existentielles de la société.

Abstract
The subject of study is intended to highlight the dialectical relationship between the phenomenon of conflict and the rural community of Constantine. this can be done by re-reading through a new approach that goes beyond the traditional account of the events of the army to look at phenomena , their structures, and variables, and to discover their effects on military systems and on social institutions, and the various aspects of rural life. the study period is from the time of Saleh Bey of Constantine to the fall under the influence of the French. Given that this period represented an influential turning point, it had also a strong and common impact on the infrastructure of rural community and on the future developments that marked the history of baylek. And it represented the time that started by the consolidation of power and authority in the rural community, followed by an unfair taxation which was the main reason for the worsening of the conflict. And it finished by some signs of decline that were more prominent at the end of the Ottoman rule when the balance of power shifted in favor of the Europeans.

Regardless to the collapse of Ottoman rule in baylek and the colonization of Constantine by the French, the phenomenon of conflict has a profound impact on the rural community, these effects did not include only murder and destruction , but they went to include social, psychological and existential effects that were carved in the mentality of the rural community. the phenomenon was coupled with scary echoes as famine and epidemics. These echoes have impacted the demographic situation of the rural community .the main change that the rural community of Constantine suffered from as a result of the conflict was that those farmers went to inhabit the mountains ,deserts and cities, while their properties were held by the baylek and the tribes of "elmakhzan" which contributed in the destabilization and degradation of agricultural activity .

So the phenomenon of conflict is not only related to the tribal communities because of their barbaric anger and wild life as has been claimed by the pioneers of the colonial school, but it was the result of conditions imposed by the situation of that time. And if any society lives the same conditions in the same way ,it will have the same results, and if the results are different, they will be different in terms of amount and not of type, depending on the degree of awareness , the change in cultural conflicts , economic relationship and also in the central authority. As a conclusion we can say that the phenomenon of conflict is not only a military phenomenon but it can be regarded as a social phenomenon that has a profound and deep Impact on the mentality of the individual and the community as well.